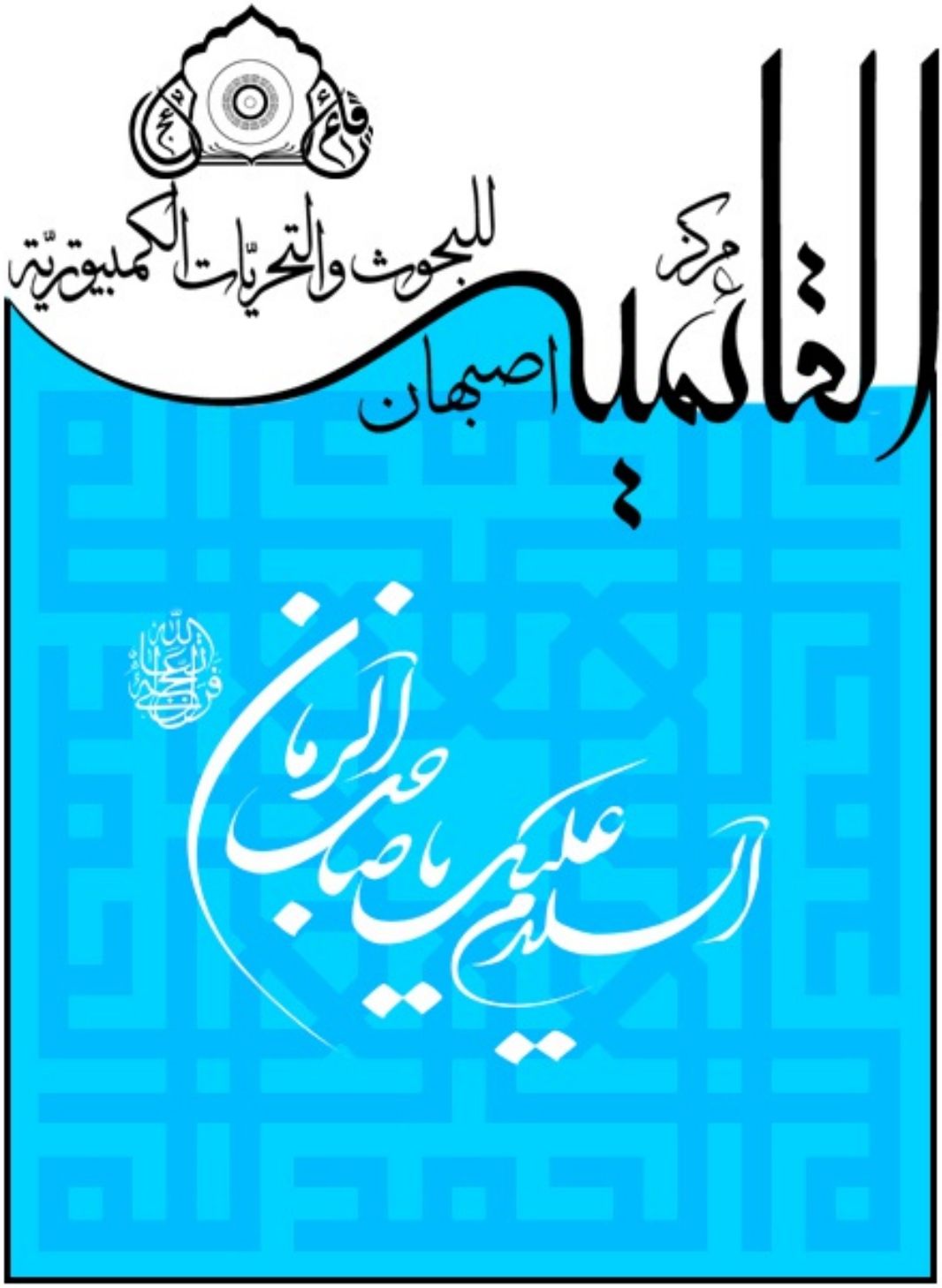

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ويلفرد ثيسجير

رحلة إلى عرب هوائر العراق

الدار العربية للموسوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلة الى عرب اهوار العراق

كاتب:

ويلفرد تسيجر

نشرت فى الطباعة:

الدار العربية للموسوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
رحلة الی عرب اهوار العراق ----- ۷
اشارة ----- ۷
کلمة الناشر ----- ۷
کلمة المؤلف ----- ۸
۱- لمحة عامة عن أهوار العراق ----- ۱۰
۲- الرجوع إلی حافة الأهوار ----- ۱۳
۳- صید الخنزیر البّری ----- ۱۸
۴- الوصول إلی قریة قباب ----- ۲۴
۵- الصورة الأولی المطبوعة فی ذهن المعدان ----- ۲۸
۶- فی دار ضیافة صدام ----- ۳۲
۷- بومفیفات إحدی قری الأهوار ----- ۳۶
۸- عبور الأهوار الوسطیة ----- ۴۳
۹- فی قلب الأهوار ----- ۴۹
۱۰- الخلفیة التاریخیة للأهوار ----- ۵۳
۱۱- الفوز بکسب الصداقة ----- ۵۸
۱۲- بین عشیرة الفرطوس ----- ۶۴
۱۳- العداوة فی الأهوار ----- ۶۸
۱۴- العودة إلی قباب ----- ۷۱
۱۵- فالح بن مجید الخلیفة ----- ۷۷
۱۶- وفاة الشیخ فالح ----- ۸۲
۱۷- مراسیم العزاء ----- ۸۶
۱۸- الأهوار الشرقیة ----- ۹۰

۱۹- بین السودان و السوید ---- ۹۶
۲۰- عائلة عماره ---- ۱۰۱
۲۱- فیضان سنة ۱۹۵۴ ---- ۱۰۶
۲۲- سنة ۱۹۵۵: سنة الجفاف ---- ۱۱۳
۲۳- البربر و المضایف ---- ۱۱۷
۲۴- عداوة دم عمارة ---- ۱۲۳
۲۵- سنتی الأخیرة فی الأهوار ---- ۱۲۷
المحتویات ---- ۱۳۲
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---- ۱۳۳

رحلة الى عرب اهوار العراق

اشارة

نام كتاب: رحلة إلى عرب أهوار العراق / تعريب خالد حسن الياس

نويسنده: تسيجر، ويلفرد

موضوع: سفرنامه

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: الدار العربية للموسوعات

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۲۶ ه. ق

نوبت چاپ: اول

كلمة الناشر

حبا الله بلاد الشرق مناظر خلّابة، و مناخا لطيفا، حيث تسلّط الشمس عليها أشعتها الذهبية صيفا و شتاء. و أنعم على بلاد الرافدين بسحر الطبيعة ففيها جبال شاهقة، تكسوها أشجار بأشعة خضراء، تسرّ الناظرين، و تعطى ثمارا يانعة من كل نوع و جنس. و تكسو جبالها شتاء حلّة بيضاء من الثلوج و سهولها خضراء، صالحة للزراعة، و وديانها سحيقة تجرى فيها الأنهار، و صحاريها فسيحة، يخترقها نهران كبيران متوازيان من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. و لها روافد كثيرة متعاقبة تسبب أهوارا واسعة، غنيّة فى محاصيلها، خلّابة فى مناظرها.

تنتشر فيها آثار تاريخية، تحكى قصتها للأجيال القادمة بأنها كانت فى يوم من الأيام ذات شأن، متقدمة فى الحضارة و المدنية، فى عهد كان العالم فيه يتخبط فى دياجير الجهل و الظلام. و كيف لا، فهى مهد الحضارة الأولى و منبع العلم و المعرفة.

لكنها أقوام تشتهر بالجود و الكرم فضلا عن الشجاعة و الإقدام. و فى ثناياها قباب مطلية بالذهب لمراقد الأئمة الأطهار، و ريازات عربية نادرة الوجود، تسلب العقول و تبهر العيون، و تجلب إليها الزوار. و فى باطنها النفط شريان المدينة الحديثة و معادن أخرى لا تعدّ و لا تحصى. هذه الخصائص هى التى تستهوى قلوب الفرنجة لرؤيتها و التمتع بمناظرها الخلّابة، فيشدون الرحال إليها من أقاصى المعمورة ليتحققوا بأنفسهم عما

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶

سمعوه من أخبارها و عما قرأوه عنها، فمنهم من يقضى فيها أياما قلائل، و منهم من يقضى السنين، يسلك طريقه فى الحياة كالسكان المحليين، يجوب أراضيها باحثا و مستعصيا و دارسا ما يحلو له دراسته، فيكتب ما يعنّ له كتابته ليطّلع عليها أبناء جلدته، و لتكون دليلا لمن يشدّ الرحال لمشاهدة هذه البلاد. و ربما كان لهم من زياراتهم مآرب أخرى، يجعلون ظاهر أعمالهم ستارا يخفون وراءها مآربهم التى جاءوا من أجلها. علينا أن نقرأ ما يكتبونه عنّا، إن خيرا و إن شرا. و علينا أن لا ننفعل إذا ما أساءوا فى كتاباتهم، إما جهلا أو نقصا فى المعرفة أو عمدا بل يجب أن نردّ عليهم ردا علميا و منطقيا، نقارع الحجة بالحجة فيكون تأثيرها أكثر فى نفوس القارىء الكريم، و قيمتها أبلغ شأنا.

و هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارىء الكريم يبحث فى «عرب أهوار العراق»، و هم قوم يسكنون منطقة تقع فى القسم الجنوبى من العراق، ألّفه ويلفرد تيسيجر Welfred Thesiger ، البريطانى الجنسية، بعد أن عاش فيها سنوات عديدة فردا من أفرادها بحيث لم يسبقه فى معالجته أحد من الروّاد.

ولد ويلفرد فيسيجر فى أديس أبابا فى سنة ۱۹۱۰ و تلقى علومه فى كليتى إيتون واكسفورد. أصيب هناك بكدمة فى عينه من الملاكمة. فى سنة ۱۹۳۵ التحق بالخدمة السياسية فى السودان. و عند اندلاع الحرب التحق بقوة الدفاع السودانية، ثم خدم فيما بعد فى الحبشة و سوريا. إشتغل مع القوة الجوية الخاصة فى الصحراء الغربية و حصل على قلادة الخدمة الممتازة. و كان يتنقل منذ زمن الحرب بين جنوب الجزيرة العربية و كردستان و أهوار العراق و هندوكوش و قرة قروم و مراكش و الحبشة و كينيا و تنجانيقا، دائما

سيرا على الأقدام أو بواسطة الحيوانات. حصل على الميدالية الذهبية من المؤسستين للجمعية الجغرافية و ميدالية لورنس العربية من الجمعية الملكية الأسيوية المركزية و ميدالية ليفنكستون الذهبية من الجمعية الجغرافية

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷

الملكية الاسكوتلاندية. ألف كتابه الأول و عنوانه رمال الجزيرة العربية و نشر فى سنة ۱۹۵۹.

تحمّل المشاق الصعبة، عاش عيشة بدائية بسيطة للغاية، حرم نفسه من ملذات الحياة العصرية و مباهجها الفاتنة و المغرية و حياتها الاجتماعية الراقية، قاسى من شظف العيش ما لم يقاسه أحد من قبله، تجرّع مرارة الغربة و لوعة الفراق حتى أخذ يشعر بما يشعر به أبناء الأهوار و يحسّ كما يحسّون، فتكون كتاباته عنهم نابعة، من صميم الواقع و الوجدان.

كما يجد القارىء فى ثنايا هذا الكتاب أسلوب الحياة الاجتماعية بين سكان الأهوار و عاداتهم و تقاليدهم التى يتوارثونها جيلا بعد جيل، و طريقة تعاملهم مع بعضهم البعض و مع غيرهم.

كل ذلك أمور يجهلها كثير من الناس، لأن عالم الأهوار عالم قائم بذاته، منقطع عن العالم المحيط به.

كما يطلع القارىء أيضا على طبوغرافية المنطقة و على أمور كثيرة أخرى، لا يحصل عليها المرء إلّا بعد جهد جهيد، و استقصاء دقيق، و صبر طويل، و قدرة على تمييز ما يهم معرفته.

هكذا، نجد أن المؤلف قد كفانا شرّ كل هذه المتاعب و البحث بطرحه كل هذه الأشياء من كتابه هذا، فجاءت لقمة سائغة، سهلة الهضم.

آمل أن تروق قراءة هذا الكتاب للقراء الكرام و أن يكوّنوا فكرة عن جزء هام عن الأهوار فى العراق الذى يخفى على الكثيرين منهم أسلوب حياتهم و معيشتهم فى عهد مضى عليه أكثر من نصف قرن تقريبا منذ صدور الكتاب بطبعته الأصلية الأولى.

أما إذا وجد القارىء بعض العبارات التى قد يتصور أنها تمسّ العرب بسوء فإنه مخطىء. لأن تبيان الحقائق أمر لا علاقة له بإلصاق التهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸

و فى هذه الحالة، يجب أن نحكّم العقل و المنطق و أن نتجرد عن التميّز و لا ندع العاطفة تتغلب علينا.

نسأله تعالى أن يهدينا سبل الرشاد، و يرفع من شأن أمتنا العربية و الإسلامية لتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم المتمدنة و من اللّه العون و التوفيق.

الدار العربية للموسوعات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹

كلمة المؤلف

عشت فى أهوار العراق الجنوبية من نهاية سنة ۱۹۵۱ حتى حزيران سنة ۱۹۵۸، و كنت أبقى فيها أحيانا مدة سبعة أشهر بشكل مستمر. و السنة الوحيدة التى لم أذهب فيها إلى الأهوار هى سنة ۱۹۵۷.

مع أننى كنت على الدوام فى حالة تنقل تقريبا إلّا أننى أعتبر هذا الكتاب من كتب الرحلات لأن المنطقة التى تنقلت فيها محددة، كما أعتبره كتابا يقوم بدراسة مفصّلة لسكان الأهوار الذين أعيش بين ظهرانيهم.

أمضيت هذه السنوات فى الأهوار لأننى كنت أستمتع بالعيش هناك، و عشت خلال هذه الفترة من الزمن بين سكانها كفرد منهم، و أصبحت حتما عبر هذه السنين، عارفا بأساليبهم تقريبا، و حاولت أن أعطى صورة عنهم مما تحتويه ذاكرتى، و مما دونته فى مذكراتى.

أدّت الاضطرابات السياسية الحديثة فى العراق إلى إغلاق هذه المنطقة أمام الزوار، و من المحتمل أن ينقرض قريبا، فتختفى، عند ذلك، طريقة الحياة التى دامت آلاف السنين فيها.

تغطى الأهوار مساحة من الأرض تقرب من ستة آلاف ميل مربع حول القرنة، حيث يلتقى فى هذا المكان نهرا دجلة و الفرات ليشكلا شط العرب. و هذان النهران يؤلفان الهور، و القصب هو النبات السائد فيه. أما الهور الموسمى، فإن نبات البردى يغطى معظم أجزائه و يجف فى موسم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰

الخريف و الشتاء. و الهور المؤقت يتكون فقط حينما تغمر مياه الفيضان الأرض ثم ينجو فيما يعد نبات البردى. و يمكن تقسيم هذه المنطقة بشكل ملاءم إلى المناطق التالية:-

۱- الأهوار الشرقية: و هى الواقعة فى شرق نهر دجلة.

۲- الأهوار الوسطى: و هى الواقعة فى غرب نهر دجلة و شمال نهر الفرات.

۳- الأهوار الجنوبية: و هى الواقعة فى جنوب نهر الفرات و غرب شط العرب.

هنالك أيضا بعض الأهوار الدائمية تقع أسفل مدينة الشطرة و على شط الغراف الذى هو عبارة عن نهر يترك نهر دجلة من الكوت و يجرى باتجاه الجنوب الغربى باتجاه الناصرية. و هنالك بعض الأهوار الموسمية من السهول الواقعة إلى شمالى شرقى مدينة العمارة حيث تتكون من الفيضانات الناجمة من نهرى الطيب و دويريج اللذين يجريان من التلول الإيرانية ثم يتلاشيان.

و هنالك هور موسمى صغير فى منطقة ألبودراج، على بعد خمسة عشر ميلا إلى شمال العمارة و إلى غرب نهر دجلة.

و فى ذروة الفيضانات، تغطى قطع من المياه المنتشرة بقعا واسعة من الصحراء المجاورة للأهوار، تختلف أحجامها فى كل سنة و تمتد إلى مسافات شاسعة بحيث تزيد على (۲۰۰) ميل، من ضواحى مدينة البصرة إلى الكوت تقريبا. و عندما تنحسر مياه الفيضانات هذه تتحول معظم الأراضى المغمورة بالمياه إلى صحراء.

و فى فصل الربيع، يسبب ذوبان الثلوج فى قمم الجبال فى إيران و تركيا بارتفاع منسوب مياه نهرى دجلة و الفرات. و الأهوار تكوّنت من مياه

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱

الفيضانات عبر قرون عديدة ماضية و من تدفق مياه هذين النهرين.

تأخذ الأهوار الشرقية و الوسطى مياهها من نهر دجلة، و إن ۸۰٪ من تصريف المياه فى بغداد تغور فيهما. فنهر الفرات نفسه يغور أسفل مدينة الناصرية بواسطة قنوات عديدة جدا، و تجرى مياهها المتبددة تدريجيا إلى هور السناف ثم إلى شط العرب عبر مجرى نهر «كرمة على» الواقع على بعد عدة أميال شمالى البصرة. و لا يزال المجرى القديم بين سوق الشيوخ و القرنة يعرف بإسم نهر الفرات. و فى الحقيقة، إن المياه التى فيها ما هى إلّا مياه تسربت من ضفاف نهر دجلة اليمنى.

و إلى وقت حديث، كان الكثيرون يعتقدون بأن نهرى دجلة و الفرات كانا يجريان بصورة منفصلة إلى الخليج و أن الطمى المتكون كان يدفع تدريجيا الطريق الساحلى أبعد فأبعد نحو الجنوب.

أما النظرية الحالية، فقدمها من البداية فى سنة ۱۹۵۲ الدكتور.

(جى. إم. ليز G .M .Lees) (و إن. إل. فالكون.???L .Falcon و هى أنّ تقل الطمى المتجمع يسبب ترسبا موازيا لسطح الأرض. و بقى معظم الطريق الساحلى على حاله دون أن يتبدل. يبلغ الفيضان السنوى ذروته على نهر دجلة من شهر مايس. و فى نهر الفرات فى شهر حزيران. و يبدأ النهران من شهر حزيران فصاعدا بالنقصان حتى يصلا إلى أدنى مستوى من شهر أيلول و تشرين الأول.

أما فى شهر تشرين الثانى فيحدث ارتفاع طفيف فى منسوبهما و يزداد الارتفاع طوال فصل الشتاء، و قد تحدث فيضانات قصيرة الأمد فجأة خلال فصل الشتاء و الربيع. أما الأهوار الوسطى فهى المنطقة التى بدأت أتعرف عليها بشكل أفضل، لأننى شرعت العمل فيها.

و فى الحقيقة حسبت هذا المكان وطنى، و خلال سنوات بقائى كان علىّ أن أزور كل قرية تقريبا، مهما كانت صغيرة، فزرت فعلا أكثرها مرات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲

عديدة. عندما كنت أحتاج لزورق لزيارة إحدى القرى، يأتينى به صبيانها الذين يستقبلوننى كما يستقبلنى رفاقهم من رجال القبيلة.

يبقى هؤلاء الصبيان طوال الوقت معى و تكون قراهم قواعد لى بعد عودتى من الزيارات. تنقلت تقريبا فى كل أرجاء الأهوار الشرقية، لكننى ما عرفت الناس معرفة جيدة أبدا، لذلك بقيت غريبا مع أنهم كانوا يرحبون بى لأنى كنت أساعدهم فى الأمور الطبية. أما الأهوار الجنوبية فما رأيت منها إلّا النزر.

إننى مدين بالعرفان إلى جون فيرنى John Verney لكل ما قدمه لى من المساعدات و النصائح لإخراج هذا الكتاب و ذلك خلال الأشهر التى كنت فيها معه فى فلورنس. قرأ كل المسودات بأناة و صبر، و أجرى فيها التعديلات الكثيرة.

فأقدم شكرى الجزيل كما أنني مدين لـ (فال فرينج باليك) و (جورج ويب) اللذين قدماه من اقتراحات هامة و لتلطفه؟؟؟ بقراءة مسودات الكتاب. إن الذى حثنى على كتابة هذا الكتاب هو كراهام واطسن Graham Watson ، و هو الذى تلقيت منه التشجيع الكثير و النصح الوافر. كما أننى أشكر أيضا شركة جيمس سنكلير التابعة لوايت هول التى أولت اهتماما كبيرا لتحميض التصاوير- طبعها-.

كما أشكر المستر كى. سى. جوردان K .C .Jordan الذى رسم لى الخرائط الموجودة فى هذا الكتاب.

و أشكر موظفى متحف التأريخ الطبيعى و الكثيرين من الأشخاص الآخرين الذين ساعدونى و زودونى بالمعلومات.

ويلفرد فيسيجر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳

۱- لمحة عامة عن أهوار العراق

كنا نمتطى ظهور خيولنا و نسلك أرضا منبسطة طوال النهار، و يرتفع الغبار من حوافر خيولنا إلى درجة تكاد تخنقنا. و كانت الأمطار قد انقطعت عن السقوط، كما يحدث كثيرا، فمالت النباتات النامية، و انكسرت فوق التربة، لم نجد على هذه الأرض المنبسطة أية أجمة و لا أية صخرة لتكون علامة بارزة لنقيس بها تقدمنا البطىء باتجاه خط الأفق.

كانت سروج خيولنا من نوع السروج العربية المعتادة و هى صلبة بيت من بيوت سكان الأهوار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴

لكونها مصنوعة من الخشب. و الركائب تتدلى بعيدا إلى الخلف بحيث تجبرنا على الجلوس إلى الأمام و تنحصر بين الجزء البارز من السرج فى الأمام و فى الخلف، و هى أشبه بسروج رعاة البقر. و فى الحقيقة، تركز اهتمامى على السروج و أيقنت من أن الأمريكيين هم الذين أخذوه من هذه الأشكال. فالعرب أدخلوا هذا التصميم إلى إسبانيا و منها أخذها الإسبان معهم إلى العالم الجديد.

بقينا على ظهور خيولنا و هى تسير سيرا اعتياديا لأن رفيقى كان يمتطيها لأول مرة. و رفيقى هذا هو دوكالد ستيورات Dugald Stevert ، نائب القنصل البريطانى فى العمارة، و هو و إن كان بعمر (۲۹) سنة إلا أنه كان شخصا ذا موهبة واضحة. و كان يقول على الدوام بأن ليس لديه أى طموح سوى إنهاء وظيفته كقنصل و بعدها يتمكن من الحصول على كل ما يريد من صيد البط الوحشى.

كنا نتبادل الأحاديث و نحكى ذكرياتنا عن (ايتون Eton) كما يفعل طلاب كلية إيتون القدامى. كان رفيقى هذا طالب مدرسة، حصل على رايتين مدرسيتين على الرغم من إصابته بعرج و إجراء عمليتين جراحيتين صيّرتاه أسوأ من السابق، أما أنا فلم أحصل على أية راية مدرسية مع أنى سليم الساقين.

أمضينا ليلتنا بين عشيرة البزون، افترشنا الأرض فى خيمة ضيوف الشيخ بعد تناولنا وجبة فاخرة من الأرز و لحم الضأن.

و الخيمة مع أنها تستند على أحد عشر عمودا و هى واسعة جدا، و لا تختلف عن بقية الخيم السوداء الأخرى المصنوعة من شعر الماعز، و هذه الخيمة محاطة. بحاجز من جميع الجهات، إلّا أنها مفتوحة من جهة واحدة على طولها.

تتجه فتحات الخيم كلها بالاتجاه نفسه، و أمام معظمها تجد حصانا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵

راعى جاموس من عشيرة السويد المعدان

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶

أو حصانين مربوطين و حولها مجموعة من الغنم و الماعز تجد قسما منها داخل كل خيمة.

راقبتها فرأيت الرعاء (الرعاة) الصبيان يسوقونها عند غروب الشمس، كل قطيع يسير داخل الغبار الذهبى المتصاعد. أما ثغاء الغنم طوال الليل فيحدث أصواتا و ضجيجا يرتفع نباح الكلاب على أثرها ثم يخفت.

كنت قادما من منطقة كردستان العراق متجها نحو الجنوب، و كنت قد ذهبت إليها لعلّى أجد فيها راحة البال، تلك الراحة التى كنت أعهدها فى صحارى الجزيرة العربية الجنوبية، حيث عشت مع البدو هناك مدة خمس سنوات، و تنقلت معهم عشرات الألوف من الأميال فى تلك الأراضى التى لا وجود فيها لأية عربة أبدا- حتى جاءت جماعات الزلزال، طليعة التقدم الحديث، للبحث عن النفط.

و فى كردستان العراق، التى كنت أرغب فى زيارتها على الدوام، كنت أمتطى صهوة الدواب و أقطع الجبال من طريق إلى آخر، يصطحبنى خادم كردى، شاب، و لا أحد غيرنا.

و نشاهد فى مسيرنا أشياء عجيبة و غريبة و أخرى لطيفة.

لا يزال الأكراد القاطنون فى المناطق الجبلية يرتدون الملابس المحلية الزاهية- غطاء رأس مزركش و سراويل عريضه، و سترة قصيرة و كمر و حزام من القماش ذى الألوان المختلفة.

يضعون الخناجر على أحزمة بطونهم، و يتدلى المسدس من جوانبهم، و تتقاطع صفوف الرصاص المنقوشة على صدورهم و هى مليئة بالعتاد كنت أنام فى قرى سطوح منازلها تكوّن أرضية لدار أخرى و هى تعانق سفوح الجبل حيث الدور ذات السقوف المسطحة

ترتفع من سطوح الدور التى تحتها. كما كنت أنام فى خيم البدو السوداء المنصوبة على قمم الجبل الأجرد، فأرى بعض أنواع الزهور بين الحشائش و أرى الثلوج المتبقية

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷

راعى غنم نصب خيمة على الحافة الشمالية من الأهوار

تجرفها الرياح طوال فصل الصيف.

كنت أسلك الطريق الذى يعقّب الأنهار الجارية من خلال غابات البلوط، حيث الدببة تنبش الأرض فى الأحراش بحثا عن الطعام. أراقب قطيعا من الوعل و هو يسلك طريقه على طول سلسلة صخرية ارتفاعها (۳۰۰۰) قدم، بينما تمرّ من فوقنا، فى الفضاء، أعداد كبيرة من النسور، و الرياح تحدث صفيرا من اصطفاق أجنحتها.

و كنت قد رأيت فصل الربيع الزاهى فى جبال كردستان، التى تنتشر على سفوحها و على جوانب الوديان فيها أنواع مختلفة من الزهور الجميلة الزاهية، تخالها بساطا زاهيا يسر الناظرين. و أتخمت من كثرة أكل العنب الطازج الملقى تحت أشعة الشمس أو فى جدول الماء الجارى البارد.

و بعد أن شاهدت كردستان العراق لم تبق لدىّ رغبة بالعودة إليها. فالسفر محدود جدا إليها كما هو الأمر بالنسبة للبحث عن غزلان الغابة الجبلية.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸

تقع تركيا عبر هذا المجرى من النهر، و تقع إيران وراء ذلك المجمّع من المياه، حيث ترى الشرطى ينتظر بزته الرسمية فى المضايق و يدقق سمات المرور، و التى ما كنت أحملها.

مضى من عمرى خمسون (۵۰) سنة، فلو كنت فى مقتبل العمر لسلكت الجبال من راوندوز إلى (أورميا) ثم إلى (وان)، إلا أن وجود قطاع الطرق و العشائر المعادية وقف حائلا دون ذلك.

و الأهوار التى أتجه إليها الآن هى، باعتراف الجميع، منطقة أقل سعة من المنطقة التى تؤلف منطقة كردستان الجبلية فى العراق، و لكنها عالم كامل بحد ذاتها و ليست جزءا من عالم أوسع. و قد منعت من الدخول إلى بقية أجزائها.

و فضلا عن ذلك، فإننى أحب العرب و ربما لهذا السبب لا أكنّ حبا للأكراد حقيقة. فالناس هناك لا يعجبوننى و لو أن المناظر الجبلية تعجبنى خيمة الشيوخ لأحد شيوخ آل عيسى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹

جدا و تروق لعينى.

و أعترف أن المانع كان بسبب جهلى لغتهم، و لكن، حتى لو كنت أتكلم لغتهم، فإنى كنت أشعر بأننى لا أزال أكرههم.

و لما كنت أفضّل كثيرا حب الناس على حرب الأماكن، لذلك عدت إلى العرب بناء على هذا السبب. و فى اليوم الثانى ركبنا خيولنا و إتجهنا صوب الجنوب قاصدين الأهوار هذه المرة، عبر أرض منبسطة. توقفنا عن السير عند الظهيرة لدى بعض العرب القاطنين فى الخيام لتناول الطعام و لتبديل الخيول.

ركب زميلى دوكالد حصانا جميل المنظر، رمادى اللون، إلّا أنه حرون، و عندما اعترضت و قلت بأن هذا الحصان هو أفضل من غيره، ظن الشيخ، على ما يبدو، بأننى أريد أن أمتطيه لذلك قال لى بأنه من أجل القنصل.

سرنا، و بعد فترة وجيزة، و خز دوكالد الحصان بكعب قدمه من دون عمد فانطلق الحصان بسرعة. و لكى ينقذ القنصل نفسه، ترك العنان و مسك بقوة بكلتا يديه القسم البارز من السرج ثم تبعه رفاقنا بالسير جنبا لعلهم يلحقون به و يحولون دون سقوط راكبه. ثم أدركنا بأن عملنا هذا من شأنه أن يثير الحصان و يهيجه لذلك أمرتهم بالتوقف عن الجرى.

أما دوكالد، فقد أخرج كلتا قدميه من الركاب و أصبح سقوطه من على ظهر الحصان حتميا بين لحظة و أخرى. فاستبد بى الخوف و القلق لأن السقوط سيكون مروعا و خصوصا إذا كان على أرض صلبة. إلّا أنه لم يسقط، بل وقف الحصان منهوك القوى، بعد أن قطع مسافة ميلين تقريبا، و ما زال دوكالد ممسكا بالسرج بقوة بكلتا يديه، اللتين أصيبت راحتاهما بالخدوش بسبب المسامير التى كانت تزين القسم البارز من السرج و قال «إننى بخير، و لكن أفضّل السير مشيا على الأقدام». و لم نحثه على استبدال حصانه لأننا غير متأكدين من استجابة الخيول لراكب غريب.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰

الشيخ مزيد بن حمدان شيخ عشيرة آل عيسى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱

واصلنا السير و الشمس ما زالت عالية، و رأينا شقوقا عميقة على الأرض، ظهرت من بعد إنحسار مياه الفيضانات الماضية التى غمرتها و غطتها، و كان دوكالد يترنح و يتمايل فى مشيته و هو يئن و يتأوه الأمر الذى حدا بالشيخ أن يلتمس منى بأن أقول لصاحبى أن يكفّ عن أنينه و تأوهاته و أن يخلد للسكون. أدركنا غروب الشمس و لم نعثر على أى أثر للأهوار أو للقرى التى نقصدها، إلا أننا لمحنا من بعيد أضواء تتلألأ و خصوصا عند اشتداد الظلمة ..

كانت عشيرة البزون قد أخطرت الشيخ مزيد بن حمدان شيخ عشيرة آل عيسى بأننا متجهون إليه، فأصبح يتوقع وصولنا فى كل لحظة. و لما تأخرنا، بعث مجموعة من أتباعه للبحث عنا. و حينما التقينا بها، قادتنا إلى خيام الشيخ المنصوبة على حافة الأهوار. و هنا كنا نحس بوجود المياه خلفنا دون أن نراها.

خرج الشيخ مزيد بنفسه ليرحب بمقدمنا، فرأيته شابا صغير الجسم، ممتلىء البدن، قوى البنية، منتصب القامة، تدل هيئته على النبل و النفوذ.

وجدنا خيمة الضيوف مضاءة بالفوانيس، مليئة بالرجال، معظمهم مسلحون بالبنادق.

و حينما دخلنا الخيمة نهض الجميع، و أشار الشيخ مزيد إلينا بأن نجلس قبالة الموقد، ثم أخذ يسأل الأسئلة التقليدية حينما كنا نرتشف القهوة و نحتسى الشاى، و هى أسئلة عامة عن الصحة و الأحوال و عن الرحلة. أما رجاله فكانوا جالسين جلسة معتدلة و هم سكوت لا ينبسون ببنت شفة لأن الشيخ هو المتكلم الوحيد.

نحن الآن فى حضرة عرب الصحراء، و هم دوما يتمسكون بالشكليات جهارا و يشعرون بمنزلتهم و مقامهم الرفيع. تناولنا عشاءنا الذى جاءوا به بعد ساعة من الزمن، فأدخلوا الصوانى الكبيرة و هى مليئة بالأرز و فوقها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲

كمية كبيرة من لحم الضأن. لم يكن الطعام لذيذا غير أن طعام العرب كميّ لا نوعى.

أكلنا نحن الأربعة مع الرجال المسنين، ثم نادى الشيخ مزيد على الآخرين بالأسماء بأن يتقدموا لتناول العشاء. أما هو و لأنه المضيف، فقد انتظر إلى أن إنتهى الجميع. كانوا يجلسون إلى المائدة بوجبات. و عندما انتهت الوجبة الأخيرة من طعامها، نادى الشيخ مزيد الأطفال الذين ينتظرون فى الظلام خارج الخيمة.

كان أصغرهم سنا عاريا تماما، لا يزيد عمره على ثلاث سنوات، ملأوا بطونهم بالأرز الباقى، و كانوا ينهشون العظام التى جرّدت من اللحم و فرغت الصينية من الأرز، الذى ملأوا به الأوانى التى جلبوها معهم.

و أخيرا ألقوا بالعظام إلى الكلاب.

و قبيل الانتهاء، لاحظت القهواتى يجتزىء لنفسه شيئا من الطعام و يضعه فى طبقه بالقرب منه، أما الشيخ نفسه فإنه إنزوى جانبا و بدأ يتناول طعامه القليل، بينما قدمت لنا القهوة و الشاى.

راقبته فى اليوم التالى وقت الطعام و هو واقف أمام الخيمة حتى يتأكد بنفسه أنه لم يعبر أى فرد من أمام خيمته دون أن يدخل فيها. و كان يذبح الغنم مرتين فى اليوم إلى ضيوفه الذين قد يبلغ عددهم المائة شخص.

لا تزال هذه العشائر الرعوية تتمسك بهذه العادات.

و هى التى تعطى فكرة عن عادات رجل من آل عيسى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳

العرب فى صحارى الجزيرة العربية. و فى السنوات التالية، عدت مرات عديدة، إلى خيمة ضيوف الشيخ مزيد وزرت مخيمات كثيرة أخرى تعود لعشيرته. كنت أهرب خلال أشهر الصيف السيئة من الأهوار، مستعيرا الخيول، و أتوجه نحو القبائل التى تربى الأغنام.

و قد تعرّفت على معظمها: بنى لام، البزون، آل عيسى، البوصالح و قبائل أخرى غيرها.

تجتاز بعض العشائر الحدود فى فصل الربيع و تنتقل إلى التلال الواقعة فى أسفل الجبال فى الأراضى الإيرانية حيث تكثر فيها الحشائش الطرية، كما ينتقل الآخرون إلى المملكة العربية السعودية و إلى ضواحى الكويت خلال فصل الشتاء.

يقوم الرجال و الصبيان برعى الأغنام و الماعز، بينما تقوم النسوة المرتديات الملابس السوداء بنقل الأحمال على ظهور الحمير و معهنّ الخيام و أعمدتها و السجاجيد و الفرش و صناديق خشبية صغيرة و المواقد و الصحون و الكتالى.

و كثيرا ما كنت أراهم من خلال السراب و هم يتنقلون عبر الأرض المنبسطة الخالية التى تبدو كالبحر. و بعد وجبة الطعام، أخذنا الشيخ مزيد إلى داخل صريفة مجاورة و مشيدة من القصب و الحصران، فرشت فيها الفرش و البسط الملونة حتى ننام فيها. و هذه خلوة

غير متوقعة لذلك كنت وزميلى دوكالد له من الشاكرين.

كان الهواء البارد الذى يهبّ علينا و نحن فى هذه الصريفة، طوال الليل ينعشنا و كنت أسمع صوت تلاطم الأمواج على الساحل و أنا على وشك النوم.

و عندما خرجت من الصريفة وقت الفجر، شاهدت بحرا من المياه الشاسعة، تتلاطم أمواجه، و وراءه قطعة من الأرض، تبدو سوداء، قبالة شروق الشمس. فلاح المنظر لعينى كأنه شبح الحفيض، تلك الجزيرة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴

الأسطورية التى لا يستطيع أى فرد أن ينظر إليها و يبقى سليم العقل.

و لكن، سرعان ما أدركت بأننى أنظر إلى أرض واسعة مفروشة بالقصب.

كما رأيت زورقا أنيقا مطليا بالسواد، له مقدمة عالية، يرسو أمامى- هذا هو زورق الشيخ الحربى جاءوا به لنذهب سوية لمشاهدة الأهوار.

و قبل أن تبنى القصور الأولى فى أور، كان الرجال يخرجون من مثل هذا البيت عند الفجر يبحرون بمثل هذه الزوارق من أجل الصيد. اكتشف المستر فولى Voolley . مساكنهم و نماذج من زوارقهم المدفونة تحت أعماق خرائب السومريين. و هذه المكتشفات هى أكثر قدما من عهد الطوفان. فهنا يكمن تأريخ خمسة آلاف سنة، و الزوارق لا تزال باقية على شكلها القديم.

بقيت ذكريات زيارتى الأولى إلى الأهوار عالقة فى مخيلتى تأبى أن تغادرنى. و ما تلك الذكريات إلّا عبارة عن ألسنة النار المسلطة على أنصاف الوجوه، و صياح الأوز و رفرفة أجنحة البط و هى تهمّ بالطيران لتبحث عن الطعام، و صوت صبى يغنى يأتى من مكان بعيد فى الظلمات، و حفيف الزوارق و هى تمخر المياه فى احتفال مهيب و موكب بديع، مغيب الشمس التى تظهر للعيان بلون قرمزى من خلال الدخان المتصاعد من إشتعال القصب، و الطرق النهرية الضيقة التى تتلوّى نحو أعماق الأهوار، منظر رجل عار فى الزورق ورمحه (فالته) بيده. الطرائف المشيدة فوق المياه، و الجواميس السوداء المستحمة بالمياه، و التى تبدو كأنها عجول البحر خرجت من المستنقعات إلى أول أرض يابسة، و لألأة النجوم من السماء نراها منعكسة على المياه الداكنة و أصوات نقيق الضفادع كأنها أنغام موسيقية و الزوارق و المشاحيف و هى عائدة فى المساء، و السلام المتواصل و الهدوء و السكينة فى عالم الأهوار الذى لا يعرف المكائن و الآلات و ضجيجها.

و مرة أخرى شدّنى الشوق لأسهم فى هذا النمط من الحياة، و أن أكون هذه المرة أكثر من مجرد شخص متفرج.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵

۲- الرجوع إلى حافة الأهوار

بعد ستة أشهر كنت أتنقل على ظهر زورق مبطن بقير، تتسرب إليه المياه و كنا نسلك أحد فروع نهر دجلة و نحن متجهون نحو الأهوار و يجذفه شخصان من العرب، كان أحدهم رجلا عجوزا، قد و خط الشيب رأسه، نحيل الجسم هزيلا جدا، يرتدى ثوبا مرقّعا، ضاع لونه، يصل إلى تحت الركبة قليلا. أما الآخر فكان ممتلىء الجسم، صبيا، عمره خمس عشرة مغيب الشمس على حافة الاهوار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶

سنة، أحول العين، يرتدى سترة قديمة فوق دشداشة بيضاء، تمنطق بالحزام حتى لا تسحل على الأرض.

يضع كل واحد منهما على رأسه كوفية (يشماغا) من النوع الذى يرتديه بشكل عام رجال العشائر من الشيعة فى جنوب العراق، و هى عبارة عن قماش مساحته ثلاثة أقدام مربعة و اسمه الشائع اليشماغ.

و بما أنهم لا يعتمرون العقال الأسود، فإنهم لفّوا هذا اليشماغ على شكل مثلث و وضعوه فوق الرأس.

كان العجوز يجلس فى مؤخرة الزورق العالية، و جلست أنا فى بطن الزورق متربعا على قطعة من الحصير و وضعت أمتعتى أمامى، و التى هى عبارة عن صندوقين من التنك الأسود اللون، إحداهما ملىء بالأدوية و الآخر بالكتب و الأفلام و خراطيش العتاد و غيرها من الأشياء. و وضعت فوق الصندوين كيس سرج كردى محاكا من ألوان زاهية فيه بطانيات و ملابس زائدة. ثم وضعت إزاءها بندقية الصيد عيار ۲۷۵، و هى داخل غطاء من الجنفاص.

النهر الذى نسلكه بعرض (۳۰) ياردا، سريع الجريان و عميق، كانت أصابع يدى تلامس سطح الماء حينما كنت أمسك بجوانب الزورق. و يهبّ نسيم بارد من أعلى المجرى بحيث يرفع موجات من الماء الذى يتطاير إلى وجهى و أمتعتى.

جلست ساكنا بدون حراك، لأننى إقتنعت من أنّ أية حركة تبدر منى تتسبب فى انقلاب الزورق. و كنت أرى هذين العربيين يديران

دفة الزورق بدون اكتراث و قد حافظا على موازنة الزورق.

توقف الصبى عن التجذيف ثم حبا إلى بطن الزورق ليستظل ثم أشعل سيكارة. و نهض العجوز و أخذ يجول بنظره كأنما يبحث عن صديق يعمل فى الحقول. و لم أستطع، و أنا فى بطن الزورق، أن أرى أى شىء سوى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷

الحافات المنحدرة لضفتى النهر و الذى يبلغ ارتفاعها (۴) أقدام.

كانت السواقى المخصصة لجرّ المياه من النهر تعترضهم بكثرة و بشكل متعاقب و هى تختلف من حيث الحجم. و أرى فى رأس كل ساقية كومة من البعرور، الواحدة منها بطول قدمين أو ثلاثة أقدام، و أصبح لونها كالتراب مائلا إلى الزرقة و الاخضرار.

رأيت السلاحف تنزلق من أماكنها على الضفتين و ترمى بنفسها إلى الماء الذى أراه بلون رمادى. كان بعض السلاحف مسطح الشكل، له ترس طرى، طول الواحد قدمان على الأكثر ثم يتموج هذا السطح عند الحافات أثناء السباحة. و بعضها الآخر صغير يشبه السلحفاة العادية كثيرا.

و تمرق الطيور المرقطة الصائدة للذباب من فوق رؤوسنا، أو نراها معلقة فى السماء، ترفرف بأجنحتها بشدة قبل الانقضاض.

و الحدأة تدور فوق رؤوسنا، و سرب من الغربان يطير من الأرض الزراعية الكائنة خلف الضفتين محدثا ضجيجا و صخبا عاليا.

و الضباب المنخفض متسلط فوق رؤوسنا يحيل كل شىء إلى لون أسمر كالتراب. مررنا بقرية صغيرة ذات أكواخ من القصب، داخل الأهوار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸

و هى رمادية اللون تبدو كأكوام غيّرتها الأحوال الجوية، و رأينا النساء المرتديات الثياب السوداء و هنّ يغسلن الأوانى و الصحون على حافة النهر بين أسطول من المشاحيف السوداء الراسية على الضفة الموحلة.

خرج أحد الرجال من الكوخ و صاح به صاحبنا العجوز قائلا «السلام عليكم». فأجابه الرجل قائلا: «و عليكم السلام» ثم أردف قائلا: «ملحوا» [أى انزلوا و تناولوا الطعام]. فأجبناه قائلين «كفوا! الله يحفظك». و تسابق فى هذه الأثناء ستة كلاب على طول الساحل بجانبنا، و هى تنبح و تكشر عن أنيابها إلى أن توقفت بسبب وجود حفرة عريضة لا تستطيع إجتيازها.

و فى ذلك اليوم، كنت قد غادرت مدينة العمارة فى الصباح، و كان ذلك فى الأسبوع الأول من شهر شباط سنة ۱۹۵۱، و كنت إستأجرت مشحوفا فى المجرى الكبير ليأخذنى إلى مسافة خمسة أميال على طول مجرى النهر قاصدا دار الشيخ فالح بن مجيد الخليفة الواقع على حافة الأهوار. كان والده أحد الشيخين البارزين من عشيرة البو محمد الكبيرة، إذ يبلغ تعدادها مقدار (۰۰۰، ۲۵) مقاتل. و كنت آمل أن أقضى عدة أشهر فى الأهوار. و كان دوكالد ستيوارت قد أخبرنى بأن الشيخ فالح هو أفضل شخص يستطيع مساعدتى.

جلست القرفصاء فى بطن المشحوف و أنا غير مرتاح، و كنت أجول بنظرى فيما حولى مستغلا استداراتنا مع تعرجات النهر لعلّى أرى الأهوار و لكن دون جدوى، و ما كنت أرى غير النهر الرمادى اللون الذى يجرى فى أرض منبسطة.

و بعد استدارة أخرى، انقسم النهر إلى قسمين، فرأيت أمام القسم الرئيس من النهر صفا طويلا من المساكن المبنية من القصب بشكل جيد، و من خلف هذا الصف من الدور، و فى أرض مكشوفة رأيت دارا بدور واحد، مبنيا بالطابوق، سطحه مستو، يشبه القلعة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹

و رأيت شيئا أدهشنى. بناء مشيدا من البراميل و سقفه من الحصير، عسلىّ اللون، و فى كل طرف أربعة أعمدة مستدقة الشكل على خط سقف البناء. كان البناء مشيدا على أرض بين جدولين، فقال لى العجوز «هذا هو مضيف الشيخ فالح». و رأيت صبيا يقف أمام الدار، سرعان ما دخل حين رآنا، ثم خرج بعد فترة و جيزة عدد من الرجال لاستقبالنا.

أشار صاحبى العجوز إلى رجل سمين، يرتدى عباءة سوداء، جيدة الصنع فوق معطف من قماش غامق اللون ثقيل و هو يقول: «هذا هو الشيخ فالح».

و حالما لامست مقدمة المشحوف الساحل قفز الصبى منه بمهارة و مسك المشحوف الذى بدأ يهتز و يتأرجح على الشاطىء. ثم خرج العجوز من المشحوف و تقدم نحو الشيخ فالح و قبل يده و قال له «إنكليزى من العمارة يا محفوظ».

ألقى الشيخ فالح نظرة علىّ و قال «مرحبا بك» فرأيته شخصا ذا نفوذ، ذا وجه رجولى، محلوق ما عدا الشارب، له حاجبان كثيفان سوداوان ملائمان أنفه الكبير البارز. وجهه مؤطر بطيات الكوفية التقليدية البيضاء المرقطة بالسواد، و يضع على رأسه العقال الأسود.

و لما نهضت، تمايل الزورق و انسكب الماء من فوق القسم العلوى منه، فقال فالح: «انتظر لحظة» ثم وجه كلامه إلى العربيين قائلا لهما «أسرعوا- ساعدوه» ثم مدّ يده القوية جذبنى إلى الساحل و هو يكرر قائلا «مرحبا بك». ثم التفت صوب رجل يقف بجانبه و أمره

قائلا: «دير بالك.

شوف جابوا حاجبات الإنكليزى إلى المضيف؟» ثم قادنى نحو باب الدار و قال لى «أهلا و سهلا بك. تصرّف كأنك فى بيتك». و بعد أن نظفت حذائى مررت من بين الأعمدة و هى بطول ثمانية أقدام، كل واحد مؤلف من حزمة من القصب السميك، سيقانها المنظفة من الأوراق محكمة الربط

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰

بحيث يبدو سطحه ذا ملمس ناعم و مصقول.

وجدت القاعة الكبيرة مليئة برائحة الدخان خافتة الضوء بحيث لا يمكن مقارنته بالشمس اللمّاعة فى الخارج. و شاهدت الرجال واقفين بمحاذات جدران القاعة فقلت لهم «السلام عليكم» فأجابوا جميعا «و عليكم السلام» ثم جلسنا على سجاد مزركش الألوان فرش فوق الحصير ثم جلس الآخرون فى أماكنهم متكئين على طول الجدران. و وضع المسلحون بنادقهم أمامهم. لاحظت وجود سجادتين قديمتين لطيفتى الشكل. باللون الأزرق و الذهبى وضعتا فى آخر القاعة أبعدهما الشيخ إلى ذلك المكان استبدلتا بأخريين جديدتين من أجل جلوسنا.

و رأيت فى الطرف البعيد أيضا، قبالة الجدار، صندوقا خشبيا.

و بالقرب من المدخل كوزا كبيرا من الفخار مملوءا بالماء يستند إلى إطار خشبى، و لم أشاهد أثاثا آخر. يقع الموقد على بعد ثلث الطريق إلى القاعة و فى وسطه. و هنا فى الموقد ترى صفا من دلالة القهوة، يبلغ عددها إثنى عشرة دلّة، أكبرها بارتفاع قدمين.

و وفقا للطريقة العربية، يجرى تفريغ ترسبات الخمائر السابقة فى هذه الدلّة الكبيرة. أما القهوة التى تكون على شكل سائل فتصبّ فى الدلال الأخرى الأصغر منها. توضع القهوة الجديدة المخمرة فى أصغر دلّة و تكون جاهزة على الدوام عند وصول أى ضيف بارز.

كان يجلس بجانبى رجل عجوز و هو الوحيد الذى لم يلبس العباءة.

كان يشغل نفسه بإعداد القهوة. فحالما تتحمص حبات القهوة يبدأ بسحنها من داخل هاون نحاسى صغير و يبدأ بضربها حسب إيقاع إعتاد عليه. و هذا الصوت اللطيف يدل على أن القهوة فى مضيف الشيخ جاهزة. و يحق لكل من يسمع هذا الصوت المجيء إلى المضيف.

راقبت هذا الشخص فرأيته ينهض و بيده اليسرى دلّة القهوة و فنجان أو

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱

فنجانان صغيران من صنع الصين فى يده اليمنى. و هذا الفنجان أكبر بقليل من كأس تجويف البيضة اقترب من الشيخ فالح فصبّ عدة قطرات فى الفنجان الأول و قدّمه له، لكنه أمره بأن يقدّم القهوة لى أولا. و أنا بدورى رفضت ذلك، و لما أصرّ الشيخ فالح، شربت القهوة، بينما صب القهوة فى الفنجان الثانى و قدمه للشيخ.

كانت القهوة مركّزة و طعمها مر. و بما أننى أعرف عادات العرب جيدا، تناولت ثلاث مرات قبل أن أهزّ الفنجان هزّة خفيفة لأبين له بأننى اكتفيت.

ثم بدأ القهواتى يتنقل ببطء فى القاعة مقدما القهوة إلى الآخرين حسب ترتيب مركزهم من الأهمية. ثم قدم الشاى لى و لصاحبىّ اللذين أوصلانى بالزورق و إلى الشيخ فالح فى إستكانات مذهبة.

و فى هذه الأثناء دخل أكبر أولاد الشيخ فالح إلى القاعة و يبلغ من العمر ست عشرة سنة. شاهدت أنفه كأنف والده، غير أن وجهه أقل استدارة و أضعف من وجه أبيه، قدّمه الشيخ فالح لى قائلا: «خادمكم» و أمره بأن يشرف على إعداد الغداء، ثم وجه كلامه إلى قائلا: «إننى خجلان لعدم تقديمى الطعام المناسب لك لأنك أتيت بدون أن تخبرنى، أعذرنى. أرى أن تأكل كل ما يقدم لك من الطعام الجاهز أفضل مما تنتظر حتى نذبح لك شاة لأنك جائع حتما الآن من بعد هذه الرحلة الطويلة».

و السكوت لفترات طويلة فى مجالس العرب عادة غير مستحبة أبدا بين الضيف و مضيفه. سألنى الشيخ فالح مرتين أو ثلاث مرات قائلا:

«كيف حالك؟» فأجبته «الحمد للّه» ثم يسألنى أيضا أكثر من مرة «هل كانت سفرتك مريحة؟» فأجبته «كانت مريحة جدا و الحمد للّه».

لم يتفوه أى فرد من الجالسين بأى كلام ما عدا الشيخ. رأيته ينهمك بتصريف شؤون العشيرة لأن المضايف هى غرف للمقابلات حيث يجلس الشيخ صباحا و مساء يدير فيها أمور العقارات و يحسم الخلافات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲

و المنازعات بين أفراد عشيرته.

يملك عدد قليل من الشيوخ، مثل الشيخ مجيد الخليفة، والد الشيخ فالح، أملاكا واسعة جدا بحيث يجنون من ورائها مئات الألوف من الجنيهات سنويا. و كانت الأراضى، فيما مضى، تعود إلى العشائر. و يحكم الشيخ ما دامت عشائره تتبعه. غير أنه فى السنوات الأخيرة كان الشيوخ يتملكون الأراضى فعلا. فأصبح الآن بين العشائر المستوطنة أصحاب أراضى بينما قلّ شأن رجال العشائر فأصبحوا عمالا، يزرعون الحقول مقابل حصة من المحصول بدون أى ضمان فى امتلاكها. تعود ملكية كل الأراضى فى لواء العمارة نظريا إلى الدولة، و هى التى تؤجرها بعقود إلى الشيوخ. و يدفع هؤلاء الضرائب المترتبة عليهم فيعتبرونها عند ذاك أراضى تعود لهم و لن يسأله أحد عن شرعية ذلك ما دام متنفذا.

و المفروض أنه لا ينبغى أن تكون للشيوخ سلطات قضائية إلا أنّ قضايا قليلة بين رجال العشائر (ما عدا قضايا القتل، و لكن ليس هذا دائما) تأخذ طريقها إلى المحاكم الحكومية.

و يفضّل رجال العشائر تحكيم الشيوخ الذين يعرفونهم فى مقاضاة الموظفين الذين ليس لهم أى شىء مشترك معهم، و أنه بوجه عام، ترضى الحكومة بأن تبقى بعيدة عن مشاكلهم و قضاياهم فلا تتدخل. عالج الشيخ فالح عدة قضايا. فأصدر أوامره بوجوب تقوية السداد الترابية قبل ارتفاع منسوب المياه. ثم بحث مسألة تخصيص قطعة أرض زراعية للأرز للمحصول القادم. ثم أنذر أحد الأشخاص بأن يدفع حصة غلاله التى لا تزال غير مدفوعة.

و على أية حال، بعد أن وجدت من الصعب تتبع اللهجة العامية، بدأت أتفرس فى وجوه المقاتلين و أدرسها. فلفت نظرى إختلاف أشكالهم و تراكيبهم العريضة و الضخمة عن أشكال البدو و تراكيبهم من سكان الجزيرة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳

العربية اللطيفة- اختلاف بين حصان جر العربات و بين الحصان الأصيل-.

و لكن من الصعب أن يكوّن المرء فكرة عنهم تحت ظروف كهذه.

كان كل شخص يجلس بهدوء و قد لفّ العباءة على جسمه، و وضع الكوفية و العقال فوق رأسه، ذلك العقال الأنيق فى هذا الجزء من البلاد. و لفت نظرى أيضا أنهم أناس دمثوا الخلق و ظرفاء، و هم مستعدون لقبول الضبط، غير أننى شككت فى أنهم سيكونون عنيدين و سريعى الغضب إذا ما أثيروا.

كان المضيف، الذى قسته فيما بعد، بطول ستين قدما و بعرض عشرين قدما و بارتفاع ثمانية عشرة قدما. لكنه كان يعطى انطباعا بأنه أكبر بكثير من هذه القياسات و خاصة عندما دخلت فيه لأول مرة.

و يستند السقف على أحد عشر قوسا و هى على غرار الأعمدة الموجودة فى المدخل مصنوعة من جذوع القصب الضخم، تربط سوية ربطا محكما بحيث تصبح محيطة بالمكان الذى يبرز فيه من الأرض (۹) أقدام و محيطه من القسم العلوى ۵/ ۲ قدم.

و لا حظت بأن القصب يمكن أن ينمو حتى يصل إلى ارتفاع خمسة و عشرين قدما. و يجرى ربط حزمات أخرى من القصب بعضها فوق بعض على طول البناية بأسرها خارج الأقواس حتى يكمل الهيكل الخارجى بحبال قطرها عقدتان.

إن هذا التباين بين هذا التضليع الأفقى و شكل الأقواس العمودية يعطى منظرا يلفت النظر.

أما السقوف نفسها فهى مغطاة بحصران من القصب، تشبه تلك المفروشة على أرضية القاعة و محاكة حتى الأضلاع بطريقة بحيث تضمن أنها تبدو على شكل أربع طبقات. كانت جوانب القاعة بلون ذهبى باهت، غير أنّ لون السقف كان غامقا بسبب الدخان فأصبح بلون الكستناء الغامق و يظهر بشكل كأنه مصبوغ.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴

قرية الرفيعية- تقع على الحافة الشمالية من الأهوار

و بإشراف ابن الشيخ فالح ظهر عدد من الخدم و وضعوا أمامنا حصيرة مستديرة الشكل، قطرها خمسة أقدام تقريبا، محاكة بالأسل الناعم.

و وضعوا فوق الحصيرة صينية مستديرة أيضا، فيها تل من الأرز. كما وضعوا عددا من صحون المرق المؤلف من الخضار، و ثلاث دجاجات محمصة، و سمكا مشويا و تمرا بالإضافة إلى صحون فيها المحلبية و أقداح فيها اللبن المخفوق و أوعية فيها الشربت.

و فى هذا الوقت، كان معظم الجالسين قد غادروا المضيف. و كنت أتوقع أنهم سيمكثون لأن العرب من العشائر تجتمع عادة عندما يكون الطعام جاهزا. غير أننى عرفت فيما بعد بأنه فى هذه الأجزاء من البلد يبقى الشيوخ من العشائر البدوية فقط دورهم مفتوحة فى خيم الضيوف. أما الآخرون، ما عدا فى مناسبات خاصة، فإنهم يتوقعون من أن أتباعهم يتناولون طعامهم فى بيوتهم و يطعمون

المسافرين القادمين من أماكن بعيدة فقط.

و الآن رأيت فقط ثلاثة رجال كبار السن ضيوفا بالإضافة إلى ثلاثتنا- أنا و رفيقاى أصحاب الزورق.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵

تناول الشيخ فالح و ولده الطعام معنا. و جلب أحد الخدم إناء و إبريقا فيه ماء فغسلنا أيدينا بالتعاقب الواحد بعد الآخر. ثم قال الشيخ فالح:

«هيّا. خذوا راحتكم. كأنكم فى داركم». و بدأ يوزعها علينا. فوضع قطعة كبيرة فى صحنى الذى جىء به بشكل خاص و فيه ملعقة و شوكة.

و لما شاهدت الجميع يأكلون بأيديهم من الصينية الكبيرة، بدأت أنا أيضا أتناول طعامى مثلهم. فقال لى الشيخ فالح: «إستعمل الملعقة و الشوكة لأن ذلك سيكون أسهل لك». لكننى قلت له بأننى كنت أتناول طعامى لسنوات طويلة بيدى فتعودت على الطريقة التى يستعملها العرب فأجاب على ذلك قائلا: «إذا أنت واحد منّا».

و بعد الانتهاء من تناول الطعام بدأنا نغسل أيدينا مرة أخرى ثم قدموا لنا القهوة و الشاى. و بعدما لاحظت بأن الشيخ فالح ينظر إلى بندقيتى، ناولته إياها قائلا له أن يعطينى رأيه فيها لأن كل رجال العشائر لهم ولع شديد بالسلاح.

جسّ ثقلها و أمعن النظر فيها ثم صوب بها ثم قال «هذه بندقية جيدة». و فى الحقيقة كانت بندقية جيدة. ثم سأل عن قيمتها و هى عادة متبعة عند العرب.

و أخيرا، مثلما كنت أتوقع، سألنى عن خططى. فقلت له بأننى أريد الذهاب إلى الأهوار حتى أرى المعدان.

«هذا سهل. سأبعثك إلى قرية قباب، و هى قرية كبيرة فى قلب الأهوار. و منها جلبوا لنا القصب لبناء هذا المضيف، و للشيخ مجيد، والدى، ممثل هناك. فإذا أردت أن تمضى ليلتك هناك فإنه يملك دارا مناسبا. و فى هذه القرية يمكنك أن ترى كيف يعيش المعدان، لا- تجد فيها سوى الجاموس و القصب و المياه. يمكنك أن تتجول هناك بالمشحوف فقط. لا توجد أرض يابسة فيها، و هنالك البط إذا أردت أن تصيد».

شكرته على ذلك و قلت له بأننى أريد أن أمضى عدة أشهر بين المعدان.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶

«قباب هى المكان الجيد.

و صدام له مضيف فيها، و المعدان يعيشون كما تعيش جواميسهم» ثم استمر قائلا- «بيوتهم نصفها تحت المياه، مليئة بالبعوض و البرغوث، فإذا جرّبت و نمت فى أحد بيوتها ربما يدوس وجهك الجواميس خلال الليل.

و المعدان هم أناس فقراء، لا- يملكون الطعام المناسب، و كل أكلهم من الأرز و اللبن. الأفضل لك أن تمكث هنا حيث يمكنك زيارة الأهوار من قلب الأهوار بالقرب من بحيرة زكرى

حيثما شئت و متى ما ترغب. عندى قوارب و رجال يأخذونك إلى أى مكان تريده. أمكث هنا فى الليل و اقضى نهارك فى الأهوار. هذا هو الشىء المعقول الذى يجب أن تفعله».

قلت له بأننى قد أمضيت من قبل عدة أيام فى الأهوار مع القنصل فى العمارة فى السنة الماضية. عدت الآن لأننى مولع بالمعدان و أريد أن أعرف الشىء الكثير عنهم، و لا يمكننى ذلك إلا بالعيش بينهم «كنت أتنقل على الدوام فى حياتى فى أماكن موحشة، و تعودت على العيش بدون راحة. أمضيت السنوات الخمسة الأخيرة فى الربع الخالى. العيش صعب هناك. و كنت دوما أشعر بالجوع و العطش. أما هنا، على أية حال،

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷

سأحصل على كل ما أريده من الماء».

ضحك الشيخ فالح و قال: «نعم، و اللّه، لن تكون فى عوز للماء.

ستنام فيها، أنتم الإنكليز قوم عجيبون! ليلة واحدة فى الأهوار هى كافية لى حينما يتوجب منى الذهاب إلى هناك لقضاء الأشغال التى تتعلق بالمشيخة.

لا أنام هناك من أجل المتعة. و على كل حال، أمكث معى يوم غد ثم أرتب مستلزمات الصيد لتخرج إلى صيد الخنازير. سأبعثك إلى قرية قباب بعد غد و أطلب من صدام بأن يهتم بأمورك و يعتنى بك. و لا بدّ و أن تتجول هذه الليلة معى فى المزارع لأرى عما إذا كنت قادرا على صيد بعض طيور الحجل. سأتوكل الآن لكى تستريح».

ثم سألنى قائلا: «هل اصطدت يوما خنزيرا؟. كن حذرا، إنها حيوانات خطرة، ففى الأسبوع الماضى هاجمت إحداها شخصا و قتلته بالقرب من هذا المكان بينما كان ينظر إلى زرعه. إننى أشك أن نجد خنزيرا هذا اليوم. و لكن لا بدّ أن نجد بعض طيور الحجل».

كنا نسير برتل مفرد على طول حاجز ترابى يحادد قناة رى واسعة و يؤدى إلى بستان نخيل يلوح لأعيننا مظلما إزاء السماء. و هذا الحاجز الذى صنعه الإنسان جعلنا نرتفع عن مستوى الأرض المنبسطة و الفسيحة جدا و الذى يشتهر به القسم الجنوبى من العراق.

فالأرض المنبسطة تمتد باتجاه الشرق نحو مائة ميل حتى سفوح التلول الإيرانية، و إلى الجنوب مقدار (۱۵۰) ميلا- حتى البحر، و إلى الشمال مقدار (۲۰۰) ميل حتى بغداد، و إلى الغرب إلى ما وراء نهر الفرات بحيث تندمج مع صحراء الجزيرة العربية. و كنا نقفز من حين لآخر، ساقية يجرى فيها الماء لسقى الحقول تحتنا. و اندفعنا مرة مسافة قليلة و نحن نسير تحت أشجار النخيل فمشينا بسرعة من خلال غابة تحتوى على أشجار ذات أشواك ارتفاعها (۳- ۴) أقدام حتى وصلنا إلى أرض مكشوفة. و هنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۸

وجدنا الأرض لزجة و مغطاة بطبقة من الملح. و بعملنا هذا هيّجنا طيور الحجل البرية السوداء، فلم تسنح لنا أية فرصة حتى نطلق النار عليها.

و عند عودتنا إلى القرية، رأينا ثلاثة طيور من البط و هى تطير فوقنا، قادمة من الأهوار على ارتفاع عال، فأطلق الشيخ فالح طلقة أصابت واحدة منها فسقطت على الأرض. هنأته على رميه هذا و عجبت عما إذا كانت رمية من غير رام أم أنه رام جيد. و اكتشفت فيما بعد أنه رام ماهر و هدّاف.

وصلنا القرية عند الغسق، وجدنا فانوسا يضيء المضيف، معلقا من السقف بواسطة حبل، و وجدنا ستة أطفال و هم جالسون فى الداخل. ثم قال الشيخ بأن موعد صلاة المغرب قد حان و علىّ أن أؤدى الصلاة.

كان المضيف يتجه نحو القبلة الجهة التى يتجه المسلمون فى صلاتهم نحوها على الدوام، و المفروض أن المسلمين يصلون خمسة أوقات- وقت الفجر، عند الظهيرة، وقت العصر، عند مغيب الشمس ثم صلاة العشاء من بعد مضى ساعتين. و لا حظت أن عدد المصلين قليل فى هذا المكان و أن المصلين هم من كبار السن.

و بعد أن إنتهى الشيخ فالح من أداء الصلاة، طلب إحضار الطعام، و لما جاءوا به، رأيته على غرار الطعام الذى قدموه لى من قبل ما عدا وجود لحم ضأن مقلى بدلا من لحم الدجاج و وجود بعض القطع من اللحم فى أطباق المرق. و بعد الإنتهاء، جاء الخدم و رفعوا الصحون ثم نظفوا المائدة ثم جاءوا بعده من الحصران و الفرش و الوسائد و أغطية النوم المبطنة بقماش أخضر اللون أو أحمر أو أصفر. و بقى معنا رجلان من كبار السن فأمضوا الليل معنا ثم أمر الشيخ أحد الشبان بأن يجلب بندقيته و يبقى ليحرسنا حتى الفجر.

نهض الشيخ فالح ليتركنا حتى ننام و تمنى لنا ليلة سعيدة ثم عبر إلى البناية المبنية بالآجر حيث يعيش فيها هو و أسرته.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۹

أطفأ الشاب الفانوس، و شرب ما تبقى من القهوة، و جلس يحرك جمرات النار.

وجدت هذا الشاب ذا حجم ضخم، و وجهه مغولى يشوّه الجمال.

و عندما بدأ أحد هذين العجوزين بالشخير صاح فى وجهه بأن يكف عن الشخير، فانقلب هذا العجوز إلى جهة أخرى محدثا صوت أجش يخرج من فمه و بدأ يشخر مرة أخرى بعد فترة و جيزة جدا و ابتسم الشاب بوجهى و قال لى: «المسنون يشخرون دوما».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۱

۳- صيد الخنزير البرى

نهض عبد الرضا القهواتى عند الفجر و أشعل النار، و سرعان ما امتلأت الغرفة بالدخان. أما الشاب الذى كان يحرسنا فقد خرج. و نهض العجوزان الآخران من نومهما و هما يتنحّعان لإخراج البلغم من صدرهما ثم يبصقان على الأرض.

و بعد أن أكملا وضوءهما أدّيا صلاة الفجر ثم جلسا و انحنيا على النار.

صيد الخنزير فى الأهوار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۲

يبدو أن الجو بارد، و لهذا السبب بقيت فى منامى حتى جاء خادمان ليرفعا المنام فجلست عند ذاك مع الجماعة و ناولنى القهواتى فنجانا من القهوة.

و بعد فترة، جلب الخادم الفطور المتكون من فطيرة محلّاة مصنوعة من دقيق الأرز و موضوعة فى إناء واسع حشيشى اللون و جلب معه

الحليب و فيه سكر موضوع فى الكتلى.

وضع حصتنا فوق الزولية أمامنا و كانت الشمس قد بدأت لتوها بالشروق باعثة أشعتها الذهبية فأضاءت أعمدة مدخل المضيف.

و بعد مضى ساعة أو ساعتين جاء الشيخ فالح و معه حشد من أتباعه المسلحين حتى نخرج لصيد الخنازير تنفيذا لوعده. و بعد أن تناول الجميع القهوة، فخرجنا من المضيف و ركبت الطرادة التى ركبها الشيخ و ابنه.

رأيت الطرادة ذات شكل لطيف، تسع لأثنى عشر شخصا، طولها ستة و ثلاثون قدما، و عرضها فى أعرض مكان من القعر ۵/ ۳ قدم، فيها نقوش محفورة. قعرها منبسط و مطلى من الخارج بطبقة ملساء من القير فوق ألواح خشبية. مقدمتها محفورة بنقوش تتجه إلى الأمام و إلى الأعلى تماما بحيث تصبح مقدمة مستدقة، طويلة و رفيعة. أما المؤخرة فهى الأخرى مزينة بنقوش محفورة أيضا. و على بعد الطردة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۳

قدمين من المؤخرة و من التجويف نقوش مزخرفة بشكل لطيف. أما المقعد الذى يجلس عليه الجذّاف فإنه يقع فى الثلث الأمامى. و رأيت أيضا عوارض خشبية للتقوية تقع فى الثلثين الأماميين من الزورق. كما رأيت أيضا ألواحا خشبية غير ثابتة مفروشة على أرضية الطّرادة.

أما الجزء الأعلى من الأضلاع فهو مرصوف بألواح خشبية على طول القسم الداخلى و مثبتة بخمسة صفوف من المسامير تزين الطرادة و هى علامة مميزة لطرادة الشيخ. و بعد سنوات عديدة، شاهدت فى أوسلو، سفن الفايكنك و هم يحتفظون بها. و سرعان ما ذكرتنى بالطرادات التى رأيتها فى الأهوار، لأن كل النوعين بسيط و لطيفة الشكل. كان عدد الجذافين أربعة أشخاص. اثنان منهم فى المؤخرة و اثنان فى التجويف. و كانوا يجذفون بإيقاع منتظم و على نفس الجهة ثم يتم استبدال شخص واحد إذا دعت الحاجة. أما الركاب الآخرون فإنهم وضعوا أسلحتهم بجانبهم و نزعوا عباءاتهم، و كل واحد منهم يحمل صف رصاص فيه عتاد كامل و خنجر مفترس ذو شفرة رفيعة فى القسم الأمامى من حزامه.

تقع الأهوار على مسافة ثلاثة أميال عن مضيف الشيخ فالح. و لما دنونا من الأهوار كنا قد عبرنا قرية كبيرة تمتد مسافة مئتى ياردة على امتداد الساحل الأيسر من مجرى النهر. بيوتها مرتبة على شكل صفوف، مصنوعة من الحصران، مثبتة على أقواس من القصب بشكل متواز مع الساحل، و البيوت متقاربة بعضها من بعض و أمامها عجول الجاموس و هى مربوطة و عدد من الأبقار و هى سائبة تتجول هنا و هناك. شاهدت حصانين أو ثلاثة أحصنة، أجسادها مغطاة بقطعة من القماش و أرجلها الأمامية مقيدة بسلسلة حديدية. و رأيت خيول الشيخ فالح مقيدة بهذا الشكل أيضا. و عندما سألته عن سبب ذلك، أجابنى قائلا: «هذه القيود تمنع الناس من سرقة الخيول.

إذا ربطت الخيول بالحبل فبإمكان السارق أن يقطع الحبل ثم يقفز على ظهره و يختفى عن الأنظار، خيولنا أصيلة، و غالية الثمن، لذلك نعتنى بها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۴

و نحافظ عليها».

ثم سألته قائلا «لماذا تلفّون جسم الخيل بالقماش بهذا الشكل؟ مع العلم أن الجو غير بارد». فأجاب «حتى نمنع الذباب من لسع أجسادها».

كانت الكلاب تتسابق على امتداد الساحل و تقف بعد أن تقطع مقدار (۱۰- ۱۵) ياردة. ثم تبدأ بالنباح بشكل جنونى و قد كشّرت عن أنيابها.

و كانت كل مجموعة من الكلاب تسلّمنا إلى مجموعة جديدة أخرى عند حدودها.

وجدنا الأطفال يراقبوننا بسكون، و النساء ينظرن من البيوت و هن غير محجبات. لم نشاهد غير عدد قليل من الرجال.

توجهنا نحو الساحل تحت بيت كبير فصاح أحد أتباع الشيخ فالح قائلا: «زاير محيسن» فخرج رجل كبير السن و هو يضع على رأسه الكوفية و قال «مرحبا، مرحبا يا محفوظ، تفضلوا، تفضلوا» إلّا أن فالح أبى أن ينزل و لو أن الرجل ألحّ علينا كثيرا حتى نشرب القهوة.

سأله فالح قائلا: «هل أرسلت الرجال إلى الهور بزوارقهم؟».

«نعم يا محفوظ، كلهم هناك، ينتظرون قدومكم من مدخل النهر».

«هل توجد خنازير داخل القصب؟».

«نعم، كلها متفرقة تماما، المياه ضحلة لا تساعد على تجمعهم فى الأرض التى فيها القصب».

«تعال. اركب معنا». فتسلق زايد محيسن الزورق و جلس على أرضيته.

يجلس المسافرون دوما فى بطن الزورق، و أما مكان الشرف فيبدو أنه أقرب ما يكون إلى مؤخرته، مقابل الجذاف فى المؤخرة.

و عندما يجذف هؤلاء الرجال، يجلس اثنان منهم فى مؤخرة الزورق على ظهره المرتفع- الواحد مقابل الآخر-. و يجلس الثالث على المجذاف

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۵

الأمامى فوق خشبة رفيعة غير مريحة، بينما يجلس الرابع راكعا على ركبتيه فى بطن الزورق.

سألت الشيخ فالح قائلا: «هل هؤلاء الناس هم معدان؟».

نظر نحو زاير و تبادلا الابتسامة ثم قال: «كلا. هم فلاحون. المعدان يعيشون داخل الهور ستراهم فيما بعد عندما تصل إلى قرية قباب».

تركنا حقول القمح و الشعير وراءنا قبل أن نصل إلى القرية. وجدنا النهر الذى نسير فيه ضحلا و كان الجذافون يجدون صعوبة أثناء الجذف.

و كانت ضفاف النهر واطئة و إذا ما اعتدلت فى جلستى يمكننى أن أرى الأشياء عبر هذه الضفاف.

رأيت مساحة من الأرض تمتد بمقدار (۲۰۰) ياردة، مغطاة بالطين، مليئة بالطحلب، تلمع تحت أشعة الشمس، و رأيت قطيعا صغيرا من طائر يشبه اللقلق، أبيض اللون. و طائرين من طيور مالك الحزين، لونهما أصفر برتقالى، راقدين و قد احدودب ظهرهما حتى تحضنا البيض على حافة صغيرة. و رأيت عددا من الغربان المتعددة الألوان تتعارك فيما بينها محدثة ضجيجا و صخبا حول قطعة من النفاية.

أشار الشيخ فالح إلى أرض و قال: «هذه الأرض هى التى يزرعون فيها الشلب، سوف يباشرون بتنظيف الحقول بأسرع وقت ممكن».

و فى الأمام، بإمكانى أن أرى عددا كبيرا من الرجال و الزوارق. و لما اقتربنا منهم، نزلنا من الزورق و وقفنا فوق آخر قطعة صغيرة من السدة الترابية الآخذة بالتآكل وقفة غير مستقرة. فغاص بسرعة عدد قليل من الرجال المسنين فى الماء و الطين و هم يرتدون ملابس أفضل من سواهم و ذلك حتى يسلّموا على الشيخ و يقبلوا يده. أما الآخرون، و معظمهم من الصبيان، فكانوا جالسين أو واقفين فى زوارقهم على بعد فى الماء العميق و يرتدى بعضهم عباءة خشنة سوداء و هى ملفوفة حول خصرهم. أما بقية

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۶

أجسامهم فهى عارية.

أما البقية من الرجال فكانوا يرتدون الدشداشات و هو لباس العرب التقليدى و قد رفعوها و عقدوها حول أفخاذهم. و رأيت شخصين و هما اللذان يسحبان الزورق من خلال الماء الضحل قد رفعا ثوبيهما إلى الأعلى لحد إبطيهما و هما عاريان بهذا الشكل تماما و لا يكترثان إلى أحد. و كان معظمهم يضع على رأسه الكوفية (الغترة) و يحمل الكثيرون منهم الخناجر.

و كان عدد من الصبية يحمل بيده الهراوة و على رأسها قطعة من القير و يسمونها المكوار. و لما رأى هؤلاء الصبية أننى أنظر إلى هذه المكاوير، ناولنى أحدهم مكواره و هو يبتسم.

و بشكل عام، كان هؤلاء الناس ذوى أجسام قوية و بطول معتدل مع بشرة سمراء لفحتها الشمس و ذوت وجوه بريئة و صريحة و عيون واسعة و أنوف عريضة.

كانت غالبية زوارقهم المبطنة بالقير صغيرة و تعرف فيما بينهم بإسم المشحوف، و كان لكل نوع و حجم منها اسم خاص.

كما رأيت عددا قليلا- من الماطورات فى الماء، يمكن أن تحمل شخصا واحدا فقط و هى تستعمل لمطاردة الطرائد. كما توجد ماطورات أكبر من هذه قليلا تسع لشخصين و هى بحجم الزورق الذى انتقلت به من المحجر الكبير.

ملأ عدد كبير من الرجال زوارقهم بالسهام التى يصيدون بها السمك و كانت نهاياتها الخشبية فى الماء. و شكل هذه السهام مخيف و لها يدة من الخيزران بطول (۱۲) قدما مع خمسة رؤوس تشبه أسنان الشوكة الكبيرة، و كل واحدة منها مزودة بشوكة ذات صنارة و يسمونها (الفالة).

و اقترح الشيخ فالح بأن أتسلح ببندقية الصيد لأنه من الخطر استعمال البندقية مع عدد كبير من الناس حول هذا المكان.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۴۷

فرحت لكلامه هذا، و رأيت الجذافين فقط يحملون البنادق و لو أن القرويين جميعا يملكون أسلحة نارية كثيرة.

لقد حصل رجال العشائر على الأسلحة و خاصة البنادق الإنكليزية و التركية من ساحات المعركة فى الحرب العالمية الأولى و احتفظوا بها و لم يجردهم أحد منها. و هم لا يزالون يحصلون على العتاد طالما يستخدم الجيش و الشرطة البنادق الإنكليزية. و أما عتاد البنادق التركية فإنهم يجدون صعوبة فى الحصول عليه و تتم فى بعض القرى إعادة إملاء ظروف الأعتدة التركية الفارغة بالبارود المصنوع محليا مع رصاصتها إلا أنها عملية خطرة نوعا ما.

أما فی الحرب العالمیة الثانیة فکان القتال فی العراق قلیلا، لذلک کانت فرص النهب قلیلة أیضا و لکن فی إیران جری حل الجیش و قوة الشرطة بشکل واسع قبل التقدم البریطانی، فأخذ کل جندی بندقیته معه إلی بیته. و أتیحت الفرصة للعشائر فنهبوا مستودعات الأسلحة التابعة للحامیات. و لکن، لما أحسّوا بأسالیب رضا شاه القاسیة خافوا علی أنفسهم من العقاب الصارم الذی لا رحمة فیه إذا ما وجدوا الأسلحة بحوزتهم لذلک بدأوا بتهریب معظمها إلی العراق. و کانت تباع بثمن بخس لا یتجاوز الخمسة دنانیر. أما الآن فیقال بأن البندقیة الواحدة تساوی مائة دینار.

تسمی البنادق المصنوعة فی جیکوسلوفاکیا ب (برنو) و هی مأخوذة من العلامة Brno المنقوشة علی السبطانة. و لا حظت هذه العلامة مثبتة علی البنادق التی یحملها أتباع الشیخ فالح فی الزورق.

رأیت الشیخ فالح ینصت إلی شکوی أحد أتباعه حول توزیع بعض الأراضی الزراعیة لزراعة الشلب فقال له:

«کافی- تعال باچر إلی المضیف بعد شروق الشمس بساعتین و أخبر

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۴۸

حسن بأن یحضر أیضا». ثم سأل: «هل أدهم موجود؟. ناد علیه». فرأیت شخصا قصیر القامة، یعرج قلیلا، یخرج من الزورق الأبعد ثم إندفع یتجه نحونا. حاول بخضوع و تذلل أن یقبّل ید الشیخ فالح إلّا أنه بادره قائلا:

«هل أعطیت عشرة دنانیر إلی جاسم و کنت أمرتک بذلک؟».

«أردت أن أعطیه یوم غد یا محفوظ».

«أمرتک قبل عشرة أیام بأن تعطیه».

«کنت مریضا. و أنا یومین .....».

«البارحة چنت فی المجر حسبما سمعت».

«رحت أراجع الطبیب و أشتری الدواء».

«ما راجعت الطبیب أبدا. قضیت النهار فی عرس نصّیف».

«و العباس! راجعت الطبیب. و .....».

«کلب ابن الکلب. أخبرتک إذا ما رجّعت المبلغ إلی جاسم راح أعاقبک، أنت غشاش و کذاب، یاسین، خذه إلی خزعل و قل له خلی یبقیه عنده إلی أن أعود. قل له خلی یربطه. خذه! روح یا کلب. راح أشوفک شلون تطیع الأوامر».

و عندما تقدم شخص آخر لیعرض علیه شکواه قال له فالح: «کافی- تعال ویانا و شوّفنا الخنازیر. أرید أشوف أشلون یصید هذا الإنکلیزی» ثم التفت نحوی و قال: «إرکب ذاک المشحوف. کن حذرا لما تنتقل به. هذا الشخص راح یجذف مشحوفک».

تسلقت علی ظهر المشحوف الذی جاءوا به بالقرب منی. و أما الشیخ فالح و ابنه فرکب کل واحد منهما فی مشحوف ثم بدأنا نجذف باتجاه القصب و الآخرون من ورائنا. و لما وصلنا إلی المیاه العمیقة وضع کل شخص المردی أو الفالة التی یحملها و یدفع بها المشحوف ثم جلس فی بطنه و بدأ یجذف بضربات قصیرة و سریعة. و عندما یکون فی المشحوف

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۴۹

أکثر من شخص واحد، یأخذ الجمیع أماکنهم فی الجانب نفسه و فی الوقت نفسه.

انقشع الضباب الذی کان سائدا فی یوم أمس، فظهرت السماء زرقاء صافیة، باهتة الضیاء، و تنتشر هنا و هناک قطع صغیرة من الغیوم.

المجاذیف کانت تغوص فی الماء و تشکل ما یشبه الدوارة و یتطایر الرذاذ حینما یرفعونها و تتساقط علی الماء و هی باردة جدا. سرنا و ترکنا الجدول الطینی الذی بدأ من بدایة المجری وراءنا ثم سرنا بین نباتات البردی التی تنمو فی المیاه الضحلة. و الآن نحن بین القصب الذی یغطی معظم أجزاء الهور.

و هذا النبات الضخم یبدو أشبه بالخیزران و ینمو بشکل کثیف فی منابت القصف و یبلغ ارتفاعه أکثر من خمسة و عشرین قدما. و ینتهی الساق برأس، فیه خصلة صفراء، باهتة اللون، کثیف إلی درجة یستعمله سکان الأهوار کمجذاف.

و فی هذا الفصل، کانت منابت القصب المحاذیة لمجری النهر الضیق غیر کثیفة و تبدو لطیفة المنظر لأنها هی من بقایا العام الماضی، لونها ذهبی باهت، و بعضها فضی رمادی ما عدا عند القاعدة فتکون بلون أخضر لأنها تنمو من جدید و یبلغ ارتفاعها فی ذلک الوقت بضعة أقدام.

رأینا أمامنا مجموعات صغیرة من الطیور الماضیة و هی منتشرة فوق سطح الماء، تطوف فی ظلال منابت القصب، کما رأینا الطیور المائیة المسماة الزقّه و الغاق، و هی قابعة تنشر أجنحتها الداکنة علی سیقان البردی حتی تجف لأن قطرات الماء کانت تتساقط من

أجنحتها. و لما شعرت بوجودنا، غطس بعضها فى الماء و طار بعضها الآخر بارتفاع واطىء ثم ظهرت من خلفها الطيور المسماة بمالك الحزين من بين البردى اليابس محدثة ضجيجا عاليا حينما بدأت ترفرف بأجنحتها حتى تطير.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۰

بلغ عدد المشاحيف أربعين مشحوفا. ازدحمت فى المجرى المائى الضيق، فاحتكت بعضها، و ارتطمت، لأن النوتية تسابقوا فيما بينهم و هم يصيحون و يضحكون حتى يجتازوا هذا الممر الضيق ثم ينتشروا فى المياه الواسعة و الفسيحة.

و لست أدرى، هل كنا نتنقل نحو الأهوار أو أننا كنا نتنقل بموازاة الساحل لأن منابت القصب أصبحت متشابكة و أحاطتنا من كل جانب و أصبح المجرى المائى أكثر ضيقا و أكثر التواء. خرجنا فجأة من هذه المنطقة المليئة بالنباتات و دخلنا فى بحيرة ضحلة مغطاة بالنباتات فرأينا جزرا صغيرة، كثيرة العدد، بعضها تبعد مسافة قصيرة جدا عنا و بعضها الآخر تبلغ مقدار فدّان أو أكثر تسدّ الطرف البعيد من البحيرة الضحلة.

و يسمى سكان الأهوار مثل هذه الجزر باسم «طحل». بعضها غائصة و بعضها الآخر ذات تربة رخوة و تنجرف، و كلها مغطاة بالقصب، و هنا رأيت القصب بارتفاع (۸- ۱۰) أقدام، و بأنواع مختلفة من نبات البردى، أوراقها حادة بحيث تشبه أمواس الحلاقة، و بالعليقات و بعدد قليل من أشجار الصفصاف و بأنواع مختلفة من النباتات المتسلقة. و تجد تحت كل هذه النباتات نباتا من فصيلة النعناع و نباتات ذاك أشواك منتشرة و أخرى أرجوانية اللون و نباتات مائية و نباتات من أنواع أخرى.

كانت الأرض تبدو و كأنها صلبة لكنها كانت رطبة. و هى بالفعل تتألف من طبقة من جذور النباتات و من نباتات متفسخة تطفو على السطح.

و بعد عدة سنوات، أطلقت رصاصة على خنزير ذكر، كبير الحجم، كان يأكل طعامه من جزيرة تشبه هذه الجزيرة و كانت قد احترقت قبل فترة و جيزة. وجدت هذا الخنزير يقف فوق أرض صلبة حينما أطلقت عليه النار و لكننى حينما عبرت إليه لم أعثر على الجثة «ربما لم تكن إصابته قاتلة فولّى هاربا و اختفى».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۱

«كلا. كلا» أجاب رفيقى «أنه قتل و غرق فى الماء».

و فى إحدى هذه الجزر، كان زورق الشيخ فالح يمخر بجوار زورقى:

و قال لى و للآخرين: «هذا هو المكان تعالوا و أدخلوا فى هذه الجزيرة لازم تشوفون شىء». فخطا عدد من الرجال على الساحل و بأيديهم الرماح و هم متأهبون لكل حدث طارىء، لكنهم لم يجدوا أى شىء. ثم دخلوا جزيرة أخرى ثم جزيرة ثالثة. و أما أنا فكنت أراقب طائرين و هما يغردان و يقفزان بين القصب ثم سمعت أصوات عيارات نارية فجفلت ثم أعقب ذلك صياح:

«هذا خنزير هناك، تعالوا بسرعة، راقبوا المكان، يا الهى، هذه أربعة خنازير».

و أعقب ذلك فترة اندهاش و سكوت ..

«وين راحت الخنازير؟» سأل أحدهم.

«راحت بالماى، شفت وحده منهم مرّت من بين قدمى. قسما باللّه! حجمها حجم حمار! قسما بالعباس!».

ثم صاح شخص آخر «رميت رمحى و ما أصبت. هى أنثى و معها ثلاث فروخ».

و صاح الآخرون «اختفت هنا. طوقوا المكان و اقطعوا عليهم الطريق حتى لا يهربوا». دخلنا فى ممر ضيق يقع بين جزيرتين، لكن، رأيت الجذاف يجذف بسرعة إلى المياه المكشوفة و جاءت من وراءنا زوارق أخرى.

انتقل الصيد إلى جزيرة أخرى. و لما اقتربنا منها، كان هناك هرج و مرج و صياح بصوت عال. ثم سمعنا صراخا حادا قصيرا، و ضحكة و شخص يصيح «شفتهن، شفت أصغر وحدة. رميتها بالرمح. راحت فى الماى و أنا أحاول إغراقها».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۲

و فى هذه الأثناء عبر الشيخ فالح بزورقه و كان قد نزع عباءته و بدأ يجذف بنفسه.

«وين راح الخنزير الكبير يا مناتى؟» سأل رجلا عجوزا، قوى البنية، كان يقود الصيد إلى مسافة بعيدة.

«فاتت بداخل الجزيرة الكبيرة. هناك. حسبما أعرف- يا محفوظ ... نعم. هذه آثاره. تعالوا. خلى نطلعه من هل المكان!».

إندفع مناتى بسرعة و غاب عن الأنظار داخل أجمة القصب ثم تبعه شخصان آخران. و بوسعى أن أسمع صوت تنقلهم. و صاح أحدهم و هو يقول: «ما جاء الخنزير بهذا المكان» ثم صاح مناتى بعد قليل «هاى هى آثاره».

لم يحدث أى شىء لحد الآن، على أية حال، و اعتقدت أنهم فقدوا آثاره ثم سمعت أصواتا من بعيد و زعيقا يقول «راح يقتلنى! راح

يقتلنى».

و صاح آخر «جرح مناتى. تعالوا يا ولد بالعجل. وين هم المقاتلين؟».

انـدفع عدد من الأشـخاص من خلال القصب. ثم بدأ الشـيخ فالح يجذف بشـكل جنونى كما بدأت أجذف و تبعنى آخرون و توجهنا صوب الجانب البعيـد من الجزيرة حيث وجـدنا مناتى قـد أخذ إلى زورق كبير آخر، قميصه ملطخ بالدماء و ممزق، و وجدته ممددا و قد أغمض عينيه ثم رأيت جرحا عميقا على عجزه الأيمن و بوسعى أن أدخل فيه جمع يدى.

مال الشـيخ فالح عليه و سأله بقلق: «شـلونك يا مناتى؟» ففتح العجوز عينيه و تمتم قائلا «أنا بخير يا محفوظ». ثم أمر الشيخ بأن يأخذوه بسرعة إلى الخلف إلى مدخل الخر و الذى لم يكن بعيدا من حسن الحظ.

و لما بدأنا نجذف و نحن عائدون قال أحد الصبية «هاى أنثى هى اللى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۳

عظّته. لو چان ذكر كان يشفه بأنيابه و يقتله».

و قال آخر «لو ما يتصرف زين و يذب نفسه على بطنه لكان ينقتل.

شفت رجل قبل سنتين من أرض عشيرة البوبخت بعد ما قتلته خنزيرة. شفت نصف أمعائه خارج بطنه».

و قـال آخر «الخنزير اللى قتل شاب من السادّة بحقل الحنطـة من العام الماضـى مزقه وصـله وصـله. كان الشاب بوحـده و غير مسـلح و يجوز داسته.

الزرع كان بارتفاع عالى و ما محصود. زحف الشاب باتجاه القريـة لكن فقد الحياة قبل خروجه من الزرع». قال شاب آخر: «هل تتذكر لما ركب هاشم على ظهر الخنزير؟».

«إى و اللّه» أجـاب صـاحبى المجـذف «كـان هو و أخوه يفتشون حقل الشـعير العائـد لهم. شافوا خنزير ذكر، كبير السن، رمادى اللون. أراد أخو هاشم يرميه. لكن منعه هاشم من الرمى. امتنع و ما طاع أمره فرماه و أصاب الخنزير فى بطنه».

«نعم» قاطعه آخر «هو رامى غير جيد».

و اسـتمر الجذاف قائلا «هجم الخنزير عليه و طرحه على الأرض. شق الخنزير ذراعه. اقترب هاشم خلفه و طعنه بخنجر على كتفه. و لما اسـتدار الخنزير نحوه، ألقى الخنجر و قفز على ظهره و ولّى هاربا و هاشم لا يزال على ظهره و هو يمسك من أذنيه. توجه الخنزير نحو بسـتان السـيد على و سـقط على الأـرض لما أراد أن يعبر ساقيـة عريضـة. و قال هاشم أنا ما أريـد أركب على ظهر الخنزيرة مرة أخرى أبدا». و ضحك المستمعون لأقواله.

و قال رجل عجوز «الخنازير هى أعـداء. تأكل محاصـيلنا و تقتل رجالنا. اللّه يقتلهم! إشوف مناتى. أصـبح عاطل ما يقـدر يشـتغل بعد. هذيج الخنزيرة قضت عليه».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۴

وصلنا إلى مدخل المجرى فوجدنا طرادة الشيخ فالح مع عدد قليل من الناس بانتظارنا لأن ضفتى النهر عاليتان و عريضتان.

نزلنا و بـدأنا نسـحب الزورق و مناتى فى داخله. كان ممددا على جنبه، يسـند أحد الرجال رأسه. و يبدو أن النزف كان قليلا لأن الماء الـذى فى قعر الزورق كان بلون وردى غير أن الجرح كان فظيعا و خطيرا جـدا. فالنهايات الممزقـة للعضـلة تبرز فى اللحم الذى ينزّ منه الـدم. تحرك مناتى قليلا حتى يرى جرحه و لكنه لم ينطق بأية كلمة، كان فى صـناديقى التى تركتها فى قرية الشـيخ فالح كمية كبيرة من العقاقير الطبية. و إننى غير مؤهل كطبيب، و لكن، بعد أن أمضـيت عشـرين سـنة فى البرارى و القفار، و كل فرد منهم يتصور بأننى يجب أن أداوى المرضى و الجرحى، لذلك فقد اكتسبت خبرة طبية.

و بالإضافة إلى ذلك، كنت أنتهز كل فرصة تسـنح لى، أتوجه فيها إلى المستشـفى و أتجول فى الصالات و أراقب العمليات الجراحية. و بعملى هذا استطعت أن أكتسب معلومات جراحية.

و لا بدّ أننى قد حصلت على معلومات أكثر خلال السنوات التى أمضيتها فى الأهوار.

و الآن قلت للشـيخ فالح: «من الأفضل أن نرسـله بسـرعة إلى المضـيف حتى أتمكن من معالجته هناك، و ألّف على جرحه الضـماد، و ليس بوسعى أن أفعل أى شىء أكثر من هذا. يجب أن نرسله بسرعة إلى العمارة».

«لا ترسلونى إلى المستشفى» ردّ مناتى قائلا «لا إلى المستشفى. خلّى أبقى بقريتى، أريد من الإنكليزى أن يعالجنى».

و قلت: «على أيـة حال، لازم نرجع بسـرعة إلى القرية» غير أن الشـيخ فالح أصـرّ قائلا بأن الطعام جاهز «و يجب أن نتناول الطعام أولا و بعدين نرجع».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۵

كنت فى حالة غضب حينما ابتسم مناتى قائلا «على كل حال، أنا جائع، أريد شوية أكل قبل ما تأخذونى من هذا المكان» استسلمت للأمر ثم مشيت متوجها نحو المكان الذى أعدوا فيه الطعام فوق حصيرة من القصب، فرأيت طبقا كبيرا مخلوطا بالأرز و عليه قطع من لحم الضأن بالإضافة إلى وجود الدجاج المحمر و صحون من المرق، و كنت أرجو أن نكتفى بهذا الحد و ننطلق بسرعة عائدين، و لكن رأيت أناسا آخرين يجلسون على المائدة من بعدنا ثم تأتى جماعة أخرى من بعدهم حتى تناول كل فرد طعامه، ثم جيء بالقهوة و الشاى.

ما استطعت أن أكتم تأثرى و هياجى أكثر، فمشيت نحو مناتى و رأيته قد أمسك بقطعة من لحم الضأن و تعجبت إن كان حقا قد تناول الطعام، كان يبدو شاحب الوجه كهيئة الميت. و أخيرا عدنا إلى قرية الشيخ فالح، و بدأ مناتى يتوسل مرة أخرى بأن لا نرسله إلى المستشفى، غير أن الشيخ فالح أقنعه بضرورة ذهابه.

يبدو أن الخنزير قد نهش قطعة كبيرة من عجزه. حقنته بإبرة من المورفين ثم نظفت جرحه و نثرت عليه كمية من مسحوق السلفوناميد ثم أجلسناه فى الزورق على أكثر ما يكون من الراحة و أرسلناه إلى المجر الكبير و منه إلى العمارة.

صادفته مرة أخرى بعد مضى سنة من الزمن حينما تناولت وجبة الغداء فى قريته و فزعت حينما رأيته يعرج بشكل دائم، لا يقدر على الحركة ما لم يستند على العصا الذى معه. سألته عن المدة التى أمضاها فى المستشفى. أجابنى قائلا: «لما وصلت المستشفى ما دخلونى، رجعت إلى القرية، الحمد للّه. دواك هو الذى أشفانى. ما أخذت أى شيء آخر».

و على أية حال، تساورنى الشكوك من أنه لم يقترب من المستشفى أبدا، بل إنما عاد إلى قريته فى مضيف الشيخ فالح.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۷

۴- الوصول إلى قرية قباب

أرسلنى الشيخ فالح فى اليوم الثانى إلى قرية قباب فى زورق يجذفه ثلاثة أشخاص. و قال لى: «سيأخذك هؤلاء إلى صدام. عد إلينا حينما تشعر بالضجر فى عيشك بين المعدان، تذكّر بأن هذا البيت هو بيتك.

إذهب مع السلامة».

شرعنا بالرحيل سالكين المجرى الرئيسى من النهر ثم صادفنا مضيفا قرية قباب- احدى قرى المعدان فى الأهوار الوسطية

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۸

كبيرا آخر و قال لى الجذاف بأنه يعود إلى السيّد (سروط). و عرفت أنه هو أكثر السادّة المحليين هيبة و احتراما بحيث إمتدت سمعته فى طول القسم الجنوبى من العراق و عرضه. و لهذا السبب لمضيفه حرمة و قدسية كبيرة كحرمة الجامع و قدسيته.

و اليوم يسمى كل شخص من سكان العراق نفسه سيّدا بذريعة أنه يتعلم، كما كان الحال عليه فى العهد التركى حيث كان يدعو نفسه أفنديا.

و فى هذا المعنى، كلمة سيّد تعنى «مستر» و ليس لها أية علاقة أو دلالة دينية. أما بالنسبة إلى العشائر فإن كلمة سيّد لا تزال لقبا محترما يشير إلى أن حامله من سلالة النبى محمد صلى اللّه عليه و سلم.

و بعد مضيف السيد (سروط)، تمتد قرية صغيرة أخرى على طول النهر، يتصاعد منها الدخان الرمادى اللون فوق خط البيوت. و أرى جواميس و حيوانات سوداء، منظرها قبيح، و أجسامها ضخمة، و جلودها قذرة، بعضها واقف على طول الساحل، و بعضها الآخرة غائص فى النهر، لا يظهر منها إلّا الأنف و قمة الرأس و القرون المقوسة و السميكة. و على الساحل أنواع مختلفة من المشاحيف المختلفة الأحجام، و على اليابسة بقايا متفسخة للمشاحيف و ألواح خشبية متساقطة منها. كما رأيت مجموعة من فروخ الكلاب و هى تجرى بجانبنا و تنبح. و رأيت رجلا ينظر من خلال باب بيته و هو ساكت، فقال لى الجذاف «هيّا صاحب. سلّم عليه».

صحت بأعلى صوتى «السلام عليكم» فأجاب «عليكم السلام» ثم أضاف قائلا: «تفضلوا لتناول الطعام».

فأجبته «أكلنا. اللّه يحفظك».

«كلش زين» قال الرجل الذى بجانبى «لازم تتعلم عاداتنا، شوف، من عاداتنا أن يسلم اللى فى القارب على من فى الساحل، و القارب النازل يسلّم على القارب الصاعد».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۵۹

كما رأيت صفا من أشجار الصفصاف الجرداء، فيها براعم صغيرة خضراء، تمتد على طول ضفتىّ النهر تحت القرية. تتدلى أغصانها

السفلى إلى النهر و تلامس المياه الموحلة و هى غائصة فى التيار الجارى. و خلفها أحراش من النخيل غير المعتنى بها. و رأيت فى إحدى الأماكن بيوتا فى العراء مشيدة من القصب.

و هنا يتفرع النهر مرة أخرى. فسلكنا الفرع الأيمن الأصغر، و مررنا من جانب حقول القمح و الشعير و من جانب قرية، سطوح بيتها من الطين ثم مررنا بحافة الهور و نباتات البردى. فهذا المنظر الذى أراه اليوم شبيه بالذى رأيته بالأمس.

سرنا فى قناة ضيّقة و ملتوية بين القصب، و فى الميل الأول من مسيرنا صادفنا مشاحيف كثيرة و هى عائدة، محملة بكثرة بكوم من فروع القصب الجديدة، بحيث لا نرى من المشحوف إلّا جزءا قليلا.

كانت هذه المشاحيف تجذف من قبل رجال و صبيان نصف عراة.

و أحيانا أرى بعض المشاحيف يجذفها شخصان، و لكن أكثرها يجذف من قبل شخص واحد. و قال لى أحدهم و هو يريد أن أتعلم «هذا حشيش إلى جواميسهم». و كان اسم هذا الشخص «جحيش» و فعلا كان هذا اسمه الصحيح و ليس لقبا للمزاح. و هناك كثير من رجال العشائر لهم أسماء غريبة غير مستساغة. و جحيش، على الأقل، إسم غريب.

و كنت أصادف مرات عديدة رجالا و صبيانا لهم أسماء مثل حليب، بقر، خنزير، و هى أسماء يكرهها المسلمون و يستنكفون منها لأن الكلاب و الخنازير هى حيوانات قذرة و مكروهة فى نظرهم.

و هنالك أشخاص آخرون لهم أسماء غريبة مثل جريدى، و واى، ضبع، كوسج، عفريت و بعرور.

يطلقون مثل هذه الأسماء حتى يطردوا عيون الحساد. و هم يسمون

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۰

الأطفال الذين يولدون حديثا بهذه الأسماء و خاصة إذا سبق و أن مات أخ لهم.

عبرنا مكانا كانوا يجمعون منه الحشيش. و تنطبق كلمة الحشيش على نباتات القصب النامية حديثا و تستعمل علفا للحيوانات.

رأيت فى مقدمة أحد المشاحيف صبيا عارى الجسم يقطع الأغصان الخضراء بمنجل له أسنان كأسنان المنشار ثم يجمعها على شكل كومة ثم يلقيها و هى ندية فى بطن المشحوف بجانبه. و كلما استمر فى قطع النباتات و تقدم من مكانه يسحب معه المشحوف.

و بوسعى أن أسمع من وراء هذا الستار المتكون من القصب أصوات ضحكات الأولاد بشكل واضح تخرج من صميم قلوبهم بصدق.

و سمعت أحدهم يغنى أغنية بحيث توقف الجذافون حتى يسمعوا هذا الغناء بهذا الصوت الرخم. و قال أحدهم «هذا صوت حسن». و لما انتهى من الغناء صاح عليه أحدهم قائلا: «سمّعنا أغنية أخرى».

كان هذا من المشاهد التى ستصبح مألوفة لى خلال السنوات السبع التالية.

كنا نسلك فى بعض الأحيان الطريق المائى فى فصل الشتاء. و تكون المياه باردة جدا، و عندها تكون الرياح باردة أيضا لأنها تمرّ عبر الأهوار و هى آتية من المناطق الجبلية الكردية المغطاة بالثلوج.

و كنا نسلك أحيانا أخرى الطريق المائى وقت الصيف و يكون الهواء مشبعا بالرطوبة فتحدث حماوة لا تطاق فى هذه الممرات الضيقة من بين القصب العالى، و ترى البعوض يطير فوقنا على شكل أسراب لا عدّ لها و لا حصر.

و من النادر أن تجد فصل الربيع أو الخريف لأنهما فصلان قصيران

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۱

جدا فى هذا الجزء من العام. فلا تجد غير فصل الشتاء أو الصيف.

و خلال مكوثى فى هذه المنطقة، كنت أعتاد على سماع ضحكات الصبيان و غنائهم بين حقول القصب حيث يكدحون فى جمع العلف لجواميسهم النهمة.

«ذلك الصبى له صوت رخيم» قال جاسم و هو يجذف.

«نعم، صوت جميل جدا، أحسن بكثير من صوت چليب فى قرية قباب».

«نعم، حقيقة، صوت أحسن بكثير و لكنه لا يستطيع الرقص، هل لاحظت ذلك الذى تزيّا بزىّ فتاة فى عرس عبد النبى؟، يا الهى، كانت متعة و نحن نراقبه عندما يرقص».

و سألت ما معنى «ذكر بنت»، فشرح لى جحيش قائلا بأنها تعنى راقصا محترفا من الصبيان و هو ذكر فاسد الأخلاق، و هناك إما شخصان أو ثلاثة منهم فى المجر الكبير يؤجرون للرقص فى احتفالات الأعراس و فى الاحتفالات الأخرى.

و حينما سألت عما إذا كانوا يعيشون بين العشائر قال لى «كلا. كلا.

أبدا ما يعيشون و ياهم. و بالطبع. عندنا صبيان كثيرين يجيدون الرقص و لكن ما هم (ذكر بنت)».

لم نصادف مشاحيف أخرى فى طريقنا على الرغم من أننا كنا نسير ببطء، تقريبا يجرفنا التيار و نحن نسلك الطرقات المائية الضيقة و المياه ساكنة بين نباتات البردى الذهبية الألوان. و عندما يتكلم أحدنا لا نسمع أى صوت غيره ما عدا صوت ضربات المجذاف و تطاير الرذاذ و حفيف الماء تحت مقدمة المشحوف.

أخذ هذا الطريق المائى يزداد اتساعا إلى أن وصلنا إلى حافة بحيرة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۲

صغيرة، عرضها ثلاثة أرباع الميل. رأينا ماءها الأزرق زاهيا تحت أشعة الشمس.

و قال جحيش «راح نجذف على شكل خط مستقيم لأن الرياح ساكنة». و فى هذه الأثناء رأينا مجموعة كبيرة من الماعز و هى راقدة فى البحيرة و وراءها عدد كبير من البط، على مسافة بعيدة بحيث لا يمكن تمييزها إلّا بصعوبة. فأخذت بندقيتى بيدى حتى أطلق النار عليها و لكنها طارت و ارتفعت فى الجو بعد أن رأتنا و نحن نخرج من بين القصب.

و قال جحيش «هذه طيور متوحشة فى هذا الوقت، لازم تجى بفصل الخريف و تشوف مثل هل طيور تجى هى أيضا بهل وقت. تكدر تصيد مثل ما تريد. فالح صاد عدد كثير منها فى الشتاء».

رأيت القصب الكائن عبر البحيرة كأنه جرف صخرى واطىء يمتد على طول الساحل المسنّن. بينما أجد القصب الذى أراه من بعيد و الكائن خلفه كأنه يذكّرنى بحقول الذرة الناضجة. و لما وصلنا الطرف البعيد، إندفعنا بسرعة مرة أخرى داخل القصب و صادفنا قاربين كبيرين محملين بالقصب اليابس بحيث تركت لزورقنا فسحة بالكاد تكفى لمرورها.

كان القاربان واسعين جدا، لهما جوانب عالية. طوال الواحدة ثلاثون قدما تقريبا، لها مؤخرة منقوشة و مجذاف.

يجذف ثلاثة أشخاص كل قارب ببطء و هم يتقدمون إلى الأمام.

كانوا يضعون مراديهم الغليظة فى الماء ثم يتقدمون خطوة بعد خطوة على طول الحافة العليا من القارب، من مقدم القارب إلى مؤخرته. و بعدما يصلون إلى المؤخرة يعودون إلى أماكنهم مرة أخرى و يبدأون بمثل هذا العمل ثانية.

و صاح بهم جحيش «هل صدام موجود فى قباب؟».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۳

«نعم. عاد إلى القرية قبل البارحة من عند خلف».

و خلف هذا هو الأخ الأصغر للشيخ فالح. «وين رايحين؟».

«عند صدام. و يانا شخص إنكليزى جبناه من عند الشيخ فالح».

«وين فالح؟».

«فى البيت».

«وين مجيد؟».

«بعد فى بغداد».

ثم قال لى جحيش: «نسمى هذه القوارب (بلم). و هى جايّة من قباب، محملة بالقصب إلى مضيف الشيخ مجيد الجديد».

و بعد فترة قصيرة اجتزنا مشاحيف محمّلة بالحشيش و هى عائدة إلى قباب.

كانت القناة ضحلة بشكل واضح، لأن الأعشاب المائية تنمو بين القصب ثم أصبحت القناة عريضة فسرنا حول أرض مزروعة بالأسل فى فسحة تتسلط عليها أشعة الشمس و تتموج من جراء هبوب النسيم و تظهر من بينها القرية.

شاهدنا بيوت هذه القرية منعكسة على سطح المياه. و شاهدنا من الدخان الأبيض تتبدد فى السماء الزرقاء الباهتة فوقها، و سياجا من أشجار الأسل الأصغر يقع إلى الوراء. و وجدنا فيها (۶۷) بيتا تنتشر حول البحيرة و بعضها يتباعد بضع ياردات عنها. كنا نراها من بعيد و نخالها داخل المياه، و لكن فى الحقيقة، وجدنا كل بيت مشيّدا فوق أكوام ندية من أشجار الأسل، كأنه عش وز كبير الحجم، يشكل حيّزا يكفى لبناء بيت مع فسحة قليلة فى الأمام. و شاهدنا جاموسين أمام أقرب بيت و المياه تنزلق عن جلودها السوداء.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۴

أما الجواميس الأخرى فكانت غاطسة فى المياه، تتفاوت فى مقدار الغطس، متقاربة بعضها مع بعض. و هذه البيوت كغيرها من البيوت المبنية فى البر الرئيسى هى من الحصران، مثبتة على هياكل مقوسة من القصب، و رأينا إحدى نهاياتها مفتوحة حينما عبرناها.

كانت بعض هذه البيوت بحجم مناسب، أما البيوت الأخرى فكأنها ملاجىء، من الصعب أن نصنّعها بيوتا، كانت ألوان البيوت الجديدة تبنية طريّة و لكن معظمها كان قذرا و هى بلون رمادى.

و فی کل مکان یصعد الناس إلی المشحوف و ینزلون منه فی رحلاتهم فی إحدی الجزر الاصطناعیة الصغیرة إلی أخری. و رأیت الرجال و الصبیان یحملون بأحضانهم الحشیش علی الساحل و یکدّسونه أمام بیوتهم. ألقینا علیهم التحیة فردوا قائلین «مرحبا، مرحبا، أبقوا للأکل».

راقبت صبیا صغیرا عمره من أربع إلی خمس سنوات، یخطو داخل المشحوف و یأخذ المردی بیده و یندفع نحو نباتات القصب. فنادته امرأة شابة تحمل بین ذراعها طفلا صغیرا حینما مررنا بها. و لهذه المرأة وجه جمیل، یستدق و ینتهی بحنک لطیف، ترتدی ملابس سوداء، و قد وضعت علی رأسها عباءة سوداء أیضا. و رأینا أمام بیت آخر فتاتین ترتدی کل واحدة منهما فستانا طویلا، إحداهما بلون أحمر و الآخر بلون أخضر و هما تدقان القمح فی هاون خشبی له ذراع طویل و ثقیل. رأیتهما تدقان بالتناوب و تحنیان جسمیهما إلی الأمام من الخصر و کانت الدقات بإیقاع رتیب.

کان مضیف صدام یقع فی الطرف البعید من القریة، علی حافات القصب، یبعد مسافة عن البیوت الأخری. و وجدته أضخم و أوسع بنایة فی قریة قباب. و هو البناء الوحید المبنی علی الیابسة لأنه یشغل أرضا فی اللسان الخارج من المیاه. و یرتفع مقداره (۵- ۶) أقدام عن المیاه المحیطة به.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۶۵

و من الواضح، أن هناک الجزیرة، کانت موجودة منذ عهد بعید، لأن الطابوق ظهر بالقرب من مستوی الماء. و هناک فسحة واسعة تکفی لبناء آخر أصغر منه.

شیّد داره علی هذه القطعة لیسکن فیه مع أسرته. و لما اقتربنا خرج صدام من الدار و بدأ ینادی أحد الصبیة و یؤشر له بیده بأن یسرع و یجلب الزوالی ثم توجه نحونا و قال: «مرحبا. مرحبا بکم». ثم ساعدنی علی النزول من المشحوف.

رأیته رجلا طویل القامة، نحیف الجسم، فی وجهه آثار خفیفة للجدری، یحلق ذقنه و له شارب رفیع. کان یرتدی الدشداشة البیضاء و علی رأسه الکوفیة و العقال، و معه ابنه (عوده) و هو صبی هادیء عمره ما یقارب الست سنوات.

نظّفت حذائی فی المدخل ثم دخلت المضیف. و کان هذا المضیف الوحید فی القریة إذ لا یوجد غیره. وجدت بناءه خشنا، له سبعة أقواس، بابه مفتوح نحو القبلة، یشرف علی القریة بسبب موقعه المرتفع. أرضیته مغطاة ببعض القطع الممزقة من الحصران، فیه فانوس قد اسوّد زجاجه معلق علی عود من القصب علی الجدار.

«وین راح هذا الصبی. اللّه یلعنه» قال صدام و هو ضجر. ثم ظهر الصبی و تبدو علیه علائم البلادة، یحمل سجادتین کبیرتین و عددا من المخادید.

«تعال یا ولد بالعجل. ما تشوف عندنا ضیوف؟. ناولنی هیذج اللی بیدک. بعدین روح و جیب و یاک السجادة الأخری. هیذج السجادة الزینة».

عاد الصبی و هو یحمل سجادة من النوع الذی یستعمل للصلاة و لکنها من النوع الجید.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۶۶

فرش صدام هذه السجادة مقابل الجدار البعید ثم وضع مخدة مغطاة بقطعة من القماش المصنوع من السلک، أحمر اللون بجانبها ثم طلب منی أن أجلس علیها. سمعته و هو یهمس فی أذن الخادم و یقول له، «خبرهم خلی یسون الغداء. روح بعدین إشتری سمکة. أذکرک لازم تکون زینة.

جیب بعدین و یاک ست علب سیکایر و اشتری لنا السکر و الشای. خذ المشحوف الصغیر».

دخل المضیف رجل ضخم الجسم، سمین، له وجه عنقودی الشکل یثیر الفضول. ربما کان وجهه من قبل جمیلا عندما کان صبیا، أما الآن فإنه یبدو مترهلا و إنثوی الشکل. و کان یصحب معه ابنه البالغ من العمر (۱۵) سنة.

حیّانا حینما دخل ثم جلس، «تفضل، عجرم. مد إیدک» قال صدام للصبی و هو ذو مظهر بهیج. «إغلی المای للقهوة. هاهی القهوة فی الإبریق الکبیر. أشعل النار. القصب موجود هناک فی الزاویة، خذ عدد من عود الکبریت و یاک».

و عندما عاد خادمه کان صدام یضع علبة سکائره أمامی، و علبة أمام کل فرد من أصحابی. ثم فتح علبة أخری و بدأ یوزع منها سیکارة واحدة لکل فرد من الجالسین فی المضیف.

دخل المضیف فی هذه الأثناء، عدد من الرجال بینما کان القهواتی یقدم لنا القهوة ثم ازداد عدد القادمین إلی المضیف حتی أصبح (۲۰- ۳۰) شخصا و هیأتهم تشبه هیئة أصحاب القری الذین جاؤوا معنا لصید الخنازیر.

و الشیء الذی جذب انتباهی هو عرض وجوههم، تبدو هیئة عدد منهم، و بالأخص هیئة شاب طویل القامة کهیئة المنغولیین.

كل الرجال المسنين لهم شوارب و لبعض الرجال المسنين لحى يغلب

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۷

فيها بياض الشعر على سواده. شعورهم قصيرة، يضعون على رؤوسهم الكوفية و العقال الأسود و الدشداشة و يلبس معظمهم العباءة الخشنة.

خرج صدام ثم عاد و يتبعه عوده و عجرم و خادمه و هم يحملون معهم إناءين واسعين فيهما المرق و دجاجتان مسلوقتان و صينية واسعة مستديرة مملوءة بالأرز. وضعت الصحون على حصيرة مستديرة أمامى ثم جاء عجرم و خادمه و هما يحملان سمكة مشوية، طولها قدمان، و ستة أرغفة من الخبز الأسمر.

و حسب العادة المتبعة، دعا جحيش صدام بأن يشاركهم فى الأكل إلا أنه رفض و قال: «كلوا، كلوا» ثم صب المرق فوق الأرز و بدأ بتجزئة الدجاجة واضعا اللحم أمامنا. حينما كنت مع البدو، كنت ألاحظهم يكورون الأرز بيدهم على شكل كرة ثم يدفعونها إلى أفواههم، لكن، هنا كانوا يستخدمون أصابع اليد فقط. لا حظتهم و هم يأكلون الأرز مع الدجاج و الخبز مع السمك. و عند الانتهاء، ينهض كل فرد بصورة مستقلة و يغسل يديه ثم يتمضمض بالماء. و بعد أن إنتهينا، دعا صدام الآخرين لتناول الطعام و لكن كان كل فرد منهم يدّعى أنه قد تناول طعامه و تظاهر بعدم الأكل و هو يقول «أشكرك. تغدينا قبل ما نجى» رد عليهم صدام قائلا بإلحاح: «ما معقول، تعالوا، تعالوا اكلوا».

«لا. أبدا. لا. لا» كان جوابهم مع شىء من علائم السخط الظاهرة.

و أخيرا. أمسك صدام بذراع أحدهم كما لو أنه يجره بالقوة مما حدا به إلى أن ينهض و يتوجه للأكل. و بعد ممانعات كثيرة، قام عدد منهم و اشترك فى الأكل و قال عدد قليل منهم «لا. حقيقة، يا صدام. قسما باللّه أكلت قبل ما إجى. بحليب أمك أكلت».

قسم غريب و لكنه قسم خاص بالنسبة إلى عشيرة البو محمد.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۸

شارك فى الأكل بعد إلحاح كل الذين امتنعوا فى البداية و قالوا بأنهم قد أكلوا قبل مجيئهم. كما لا حظت أيضا بأنهم يطردون الكلاب إذا ما دخلت الغرفة لكنهم يسمحون للقطط بأن تجلس بجانبهم. و قد رأيتهم يفركون شعرها.

و بعد تناول الشاى و القهوة، نهض أصحابى الثلاثة الذين جاءوا معى فى الزورق و قال جحيش «ابقوا بحفظ اللّه و رعايته يا صدام».

«شنوا؟ أنتو رايحين؟. مو معقول. إمضوا الليل معنا». قال صدام.

«لا. عندنا شغل لازم نسويه، لازم نرجع».

«أرجوكم أبقوا ويانا».

«لا. صدق عندنا شغل» ثم كرروا قولهم «إبقوا بحفظ اللّه و رعايته».

ثم قال صدام «زين. روحوا اللّه و ياكم» و أنا أضفت قائلا- «سلموا لى على فالح». «اللّه يسلمك» أجابوا، ثم أخذوا المجاذيف و مراديهم التى كانوا قد وضعوها فى الزاوية فى المضيف ثم خرجوا و ركبوا زورقهم.

و لما غادر البقية الغرفة، نهض رجل عجوز و قال إلى صدام «جيب الإنكليزى و ياك و تعالوا إلى دارى لنشرب الشاى عصر هذا اليوم» و لا حظت، عندما قبل صدام الدعوة يخاطبه بكلمة (زائر) و هى تسمية دينية يستعملها الشيعة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۶۹

۵- الصورة الأولى المطبوعة فى ذهن المعدان

و حّد النبى محمد صلى اللّه عليه و سلم القبائل العربية فى الجزيرة العربية التى كانت فى حرب مستمرة فيما بينها و ذلك لأول مرة فى تاريخهم. و فى خلال عشر سنوات من وفاته فى سنة ۶۳۲ للميلاد، اندفع رجال القبائل الفقيرة و ذوو الآراء الفردية المتشددة من الصحراء فدمروا الجيوش التى تتحلى بالضبط و التى قاومتهم.

انتزعوا سوريا و مصر من الإمبراطورية البيزنطية و العراق من الإمبراطورية الفارسية، و امتدت إمبراطوريتهم فى أقل من مائة سنة من جبال البرنيز إلى حدود الصين و شملت مناطق شاسعة جدا تفوق فى مساحتها المناطق التى كانت تحكمها روما فى يوم ما.

كانت إنجازاتهم بارزة جدا حينما أسسوا دولتهم، لكن المنافسات و العداوات أخذت تمزق دولتهم منذ السنوات الأولى.

بدأت المشاكل عند مقتل عمر فى سنة ۶۴۴ للميلاد. و الذى خلف أبا بكر الخليفة الأول، ثم خلفه عثمان بن عفان و كان شخصا ضعيفا، لكنه كان من أسرة ذات قوة فى مكة المكرمة فقتل سنة ۶۵۶ للميلاد. و جاء من بعده على. فاندلعت الحرب الأهلية، و التحق

معاويـة و هو ابن أخت عثمان و والى سوريا مع المتمردين فحدثت حروب منقطعة ثم أعقبتها مفاوضات غير حاسـمة إلى أن قتل على أيضا فى سنة ۶۶۱ للميلاد، فى عاصمته الجديدة الكوفة و الواقعة فى القسم الجنوبى من العراق و دفن فى الصحراء.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۰

و كـان ابنه الأـكبر الحسن ضـعيفا و كان بحاجـة إلى حث قليل حتى يتخلى عن مطاليبه. فأصـبح معاويـة، والى سوريا القوى، خليفـة و أسـس الخلافـة الأمويـة المشـهورة فى دمشق. و سـرعان ما أصـبح النظام الجديد غير محبوب فى العراق لأن معظم السـكان ليسوا عربا فاسـتاءوا من عجرفـة حكامهم العرب و من اضـطهادهم لهم على الرغم من أنهم قـد اهتـدوا للإسـلام. و عنـدما توفى معاوية ثار أهالى الكوفة. فأرسلوا رسلا إلى الحسين الابن الثانى للإمام على يناشدونه بالمجىء إلى العراق ليترأس الثورة و وعدوه بالدعم الشامل.

و افق الحسـين و انطلق عبر الصحراء، من مكة مع جماعة صغيرة بضمنهم النساء و الأطفال. و فى الطريق، علم بأن المؤامرة قد انكشفت و أن زعماء الثورة العشرة قد أوقفوا و نفّذ فيهم حكم الإعدام.

لم يثنه هـذا عن مرامه، فواصل مسيرته حتى وصل كربلاء الواقعـة على نهر الفرات، و هنا واجه قوة تتألف من أربعة آلاف مقاتل و قد اتخذوا مواقعهم على طول النهر و هؤلاء هم الذين أرسلهم الخليفة الجديد يزيد ليعترضوا سبيله.

و بالتأكيد، لم يأمر يزيد بقتله و لم يرغب فعلا فى ذلك. و كان بإمكان الحسين الانسحاب بأمان و إلّا فإنه سيطوق.

اختار الحسـين القتال و بعمله هذا تغير تاريخ الإسـلام. و لم يتحرك أى فرد من الذين أدخل مساعدتهم فى حسابه. و تقول الأحاديث بأنه بقى وحيدا مع زمرته الصغيرة معتمدا على شجاعتهم و بسالتهم.

و فى اليوم العاشـر من الشـهر العربى، شـهر محرم الموافق سنة ۶۸۰ للميلاد، تقـدّم الحسـين مع جماعته نحو أعدائهم. «لم تدم المعركة وقتـا طويلا» قـال أحـد شـهود العيان ليزيـد «عبارة عن وقت يكفى لذبـح بعير، و وقت يأخـذ فيه المرء سـنة من النوم» ثم أخـذوا رأس الحسين المذبوح إلى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۱

الكوفة حتى يراه والى الكوفة التابع ليزيد و الذى ضرب الرأس بعصاه على فمه.

و فى ذلك السـكون المروّع الـذى أعقب هذا الحادث، رفع أحد الرجال المسـنين صوته و قال: «و اأسـفاه! ما كنت أتمنى أن يمتد بى عمرى حتى أرى مثل هذا اليوم- أنا الذى رأيت نبى اللّه يقبّل تلك الشفاه».

فبـدأت منـذ ذلـك الوقت الشـيعية كحركـة سياسـية بين العرب تروّج مطاليب الإمام على و أحفاده فى الخلافـة، و لكن بعـد استشـهاد الحسين أعلنت نفسها كحركة دينية جديدة و سرعان ما أصبحت قوة فى العراق و إيران بشكل خاص.

و بينما يميّز السنّة عليا بأنه رابع خليفة أو الخلف الرابع لمحمد صلى اللّه عليه و سلم، يعتبر الشيعة الخلفاء الراشدين الأول مغتصبين.

إنهم يعتقدون بتعاقب الأئمة فى الرسالة، ظانين أنهم يسيرون بذلك على نهج النبى. و يعتقد معظم الشيعة باثنى عشر إماما و منهم على و الحسن و الحسين الثلاثة الأوائل و الآخرون هم من سلالة الحسين.

و حسـبما يقول الشيعة فإن الإمام الأخير هو المهدى الذى اختفى بشكل غامض فى سامراء. و هم ينتظرون ظهوره فى تمام الوقت باسم المهدى أو المهدى المنتظر.

توسـعت المدينـة المقدسة النجف الأشـرف فى الصـحراء حول قبر على الذى بنى فوقه المؤمنون جامعا كبيرا فيه قباب ذهبية، لا يدخله أى كافر حتى هذا اليوم.

و يجلب الناس فى أماكن بعيـدة جـدا كبعـد الهنـد، موتاهم لدفنها فى هذه الأرض المقدسة. و بالنسـبة إلى الكثيرين، يعتبر الإمام على شخصية شبه سماوية.

دفن الحسين فى كربلاء، فى المكان الذى سقط فيه صريعا. و بدأ

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۲

الناس فيما بعد يأتون لزيارة هذا المكان للتضرع و سرعان ما ظهرت المدنية ثم ظهر جامع فخم يضم رفاة شهيد الشيعة الأعظم.

و أصبحت كربلاء و النجف قبلة الحجاج من أنحاء العالم.

و عنـدما زرت سـكان الأهوار لأـول مرة وجـدتهم متطرفين فى شـكوكهم للعـالم الخارجى. و فى قريـة قباب يـذهبون إلى السوق فى المجر، و يذهب العدد القليل منهم إلى العمارة و التى تبعد مقدار (۲۰) ميلا عنهم. و أنّ شخصا واحدا أو شخصين منهم قد زار البصرة أو بغداد.

و الكل، على أية حال، يتمنى زيارة كربلاء و النجف الأشرف كما يتمنى كل فرد منهم أن يدفن فى مدينة النجف الأشرف.

و فی طریقنا إلی الزائر، اقترح صدام بأن نزور الدکان. رکبنا فی مشحوف صدام و جذف عجرم. فتوجه نحو أقرب مجموعة من البیوت، و وجدت بینهن منها قد بنیا علی إحدی الجزر، و شاهدت قطعة من القماش الأبیض، أشبه بالعلم، یرفرف علی سقف أکبر البیوت. فقال لی صدام «یؤشرون دائما علی الدکان بهذا الشکل حتی یراه الشخص الغریب». کما شاهدت عجلین صغیرین، أسمری اللون، و ثلاث نعاج تأکل القصب الأخضر المکدس علی شکل کومة. و جاء صاحب الدکان إلی حافة الجزیرة لیسلّم علینا و أمسک المشحوف. و لا حظت أن الأسل المقطوع الذی یقف علیه قد غاص تحت أقدامه بمقدار بضع أنجات فی الماء.

و وجدت الماء قذرا بسبب ما یطفو فوقه من قطع من البعرور و غیره من الأشیاء. و وجدت بالقرب من الدکان مرحاضا بنی علی الماء و هو مغطی بقطع من الحصیر الممزق حتی یحجب النظر. و کان هذا هو الشکل المحسّن من المدینة. أما سکان الأهوار العادیون فإنهم یجذفون قواربهم إلی أقرب منابت القصب ثم یجلس الواحد منهم القرفصاء علی جانب القارب و یقضی حاجته. و هذه عملیة لا تتم بسهولة.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۷۳

و لما نزلنا إلی البر، بذل ابن صاحب الدکان جهدا فی إسکات الکلب حتی یکف عن النباح و یخلد إلی السکوت و ذلک بتحریک المجذاف فوق رأسه. و رأیت دجاجتین تطیران علی السقف. کان باب الدکان مصنوعا من خشب الصنادیق و القفل معلقا علی سلسلة. و أما فی الداخل، فقد سحب صاحب الدکان إحدی صنادیق الشای الفارغة إلی الأمام لأجلس علیها و أمر ابنه بأن یهییء لنا الشای.

لم أجد فی الدکان أشیاء کثیرة. وجدت کیسا من السکر و آخر من الدقیق، و خصافة من التمر و صندوقا من الشای الهندی الرخیص الثمن، و تنکة نفط أبیض، و علب سیکایر عراقیة و شخاطا و عددا من قوالب الصابون و عقالا علیه غبار کثیر.

تذکرت بأننی قد شاهدت صاحب الدکان فی مضیف صدام و کانت إحدی عینیه ملتهبة و بدأ الآن یمسحها بحاشیة کوفیته.

و من خلال الباب، لاـ حظت حسبما أظن، أنه لفتاة تملؤ الکتلی بالماء من جانب مشحوفنا بعد أن أزاحت بعض القطع الصلبة من الروث و مع ذلک کان طعم الشای کغیره من الأنواع الأخری. و بینما کنا ننتظر تقدیم الشای، سألت صدام قائلا له بأن له یبین لی المؤهلات التی تتطلب فی أن یسمی المرء نفسه باسم زائر. فشرح لی بأن الزائر یجب أن یزور ضریح علی الرضا الإمام الثانی و مرقده فی مدینة مشهد الرضا فی خراسان الواقعة فی القسم الشمالی الشرقی من إیران.

و کثیرا ما کنت أزور مشهد فی الشتاء الماضی و حالفنی الحظ لأری الجامع و أدور حول الضریح.

کان هذا البناء أحد الأبنیة الأکثر جمالا حسبما یراه روبرت بایرونRobert Byron فی إیران حینما دخل إلیه و هو متنکر فی سنة ۱۹۳۳.

و حتی فی سنة ۱۹۵۰ من الصعب جدا أن یدخله شخص غیر مسلم،

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۷۴

و تجد فی الجامع نفسه قبر الخلیفة المشهور هارون الرشید.

و فی القسم الجنوبی من العراق یزور عدد کبیر من الناس مدینة مشهد کما یزورون مکة المکرمة.

و لو أن الشیعة یعتبرون کربلاء و النجف أکثر قدسیة من مشهد إلّا أنهم لا یمنحون لقب زائر لمن لا یزور هاتین المدینتین من الناس فی جنوب العراق. و بعد بضع سنوات، حینما کنت فی القسم الأوسط من أفغانستان بین الهزاراس، و هم أیضا من الشیعة، وجدت أنهم یطلقون کلمة کربلائی علی کل شخص زار کربلاء بینما لا یطلقون أی نعت علی من یزور مدینة المشهد. و یظهر أن المسألة هی مسألة مسافة.

کان بیت الزائر واحدا من عدة بیوت مفصولة بسواقی فیها میاه قذرة، عرضها بضعة أقدام، و أمام الطرف المفتوح فی کل بیت ساحة ندّیة واسعة أکثر سعة من البیت نفسه. أما أرضیة البیت فإنها عبارة عن مزیج من نباتات متفسخة و سماد، یرتفع بعض أنجات عن مستوی الماء ثم یحصر بحاجز من القصب ارتفاعه أقل من قدم.

و رأیت علی الجدران الخارجیة للبیت صفوفا من أقراص البعرور و هی معرضة للشمس حتی تجف. و شاهدت امرأة عجوزا مرتدیة الثیاب السوداء و فتاتین صغیرتین مرتدیتین ملابس ذات ألوان، جلسنا تحت أشعة الشمس فی المدخل. نزلنا من المشحوف، و عبرنا السیاج ثم دخلنا البیت و نحن نبعد عن طریقنا الجواميس التی کانت تهزّ رؤوسها، و ما وجدت شیئا آخر یجذب الانتباه.

وجدت إحدی العجول واقفة فی الداخل و مجموعة من فراخ الدجاج تعدو تحت أقدامنا. قالت إحدی النسوة، و هی ترتدی الملابس السوداء کغیرها من النساء العجائز فی القریة «مرحبا یا صدام» و رفعت أحد الأطفال الصغار فی الأرض و هو عار تماما حتی تفسح لنا

مجالا للدخول.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۵

و البيت من الداخل بطول ست ياردات و عرض ياردتين و بارتفاع تسعة أقدام. و فيها سبعة أقواس، و عرفت فيما بعد أن جميع البيوت و المضائق تحتوى حسب التقاليد على عدد فردى من الأقواس.

كانت الغرفة مقسمة إلى قسمين بواسطة سرير منام واطىء أشبه بسيقان القصب، وضع إزاء الحائط الأيسر و كدّست فوقه أكياس مصنوعة من شعر الماعز تحتوى على الحبوب و مجموعة مشكّلة من اللحف و غيرها من الملابس و أشياء أخرى من السجاد. و وجدت عددا من المجاذيف معلقة على القمة.

خصص نصف الغرفة للنساء. اللواتى يعددن الطبخ. مشينا فرأينا هاونا خشبيا و قربة معلقة على ركائز خشبية ذات ثلاثة أذرع و مجرشة حجرية دائرية الشكل و فيها ذراع خشبى.

رأيت عددا من الصحون و الصوانى و الأباريق مبعثرة بجانب موقد صغير. و فى الطرف البعيد يؤدى الزائر صلاته فيها. ينشر عباءته أمامه كسجادة للصلاة و يصلى صلاة العصر. أما النصف الثانى من الغرفة فهو مخصص للرجال يستقبلون فيها الضيوف و يقيمون فيها الولائم.

كانت الغرفة مفروشة بقطعتين من السجاد الممزق فوق الحصير المصنوع من القصب. كما وجدت عدة و سائد من الصوف ذات أوجه لماعة، فيها نقوش هندسية الشكل و كانت محشوة تماما حتى يرتاح عليها الجالس.

و قال صدام و هو يقوم بواجب المضيّف «إجلس. خذ راحتك. كأنك فى بيتك». و أخيرا، انتهى الزائر من صلاته ثم جلس و تمتم بأدعية و تسبيحات و مسح أخيرا لحيته بيده ثم نظر إلى اليمين و بعدها إلى اليسار ثم نهض و رفع عباءته و قال: «مرحبا بكم». وجدته رجلا عجوزا لكنه شخص له مكانته، طويل القامة، محدودب الجسم، بوجه نحيف ينم عن الزهد،

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۶

و أنف مقوس و لحية بيضاء. لا يرتدى أى شيء سوى الكوفية و الدشداشة البيضاء الرقيقة و الشفافة.

أخذ و سادة أخرى و وضعها فوق الوسادة التى هى بجانبى و قال «هسه إستند عليها و ترتاح أكثر» ثم أشعل النار فى فجوة كائنة فى الحصيرة المفروشة على الأرضية المتكونة من أشجار الأسل. و لما اشتعلت النار أضاف إليها أقراص البعرور بحيث وضع الواحدة فوق الأخرى و سرعان ما امتلأت الغرفة بدخان أبيض مؤذ جدا بحيث بدأت عيونى تدمع. و قال صدام: «هذيج الوصلة بعدها نديئة» فأخرجها من النار غير أن الدخان بقى على حاله.

جلب الزائر مستلزمات الشاى و جلس بجانب النار و بدأ يغسل الأقداح و الأطباق و الملاعق فى وعاء لماع.

كان الشاى موضوعا فى ورقة ملفوفة و السكر فى علبة من التنك.

و بينما كان الزائر و صدام يتناقشان حول الضريبة المفروضة على القصب الذى طلبه الشيخ فالح إلى مضيف والده الجديد، وصل ابن الزائر.

بدأ يفرغ الحشيش من المشحوف ثم ألقى شيئا منه أمام الجاموس ثم كوّم الباقى فى داخل الغرفة. كان يبدو فى العشرين من عمره، حاسر الرأس، حليقه، عاريا إلا من عباءة لف بها خصره، ثم وضع رمح الصيد فى الزاوية و لبس الدشداشة قبل أن يجلس معنا. و قال صدام:

«باچر راح أروح إلى أبو مفيفات و التقى مع صحين. لازم يحضّر قاربين مليانه بالقصب من قريته».

«نعم! و اللّه يا صدام. هذا كل ما جمعناه» قال الزائر.

و أضاف ابنه قائلا: «قوم صحين يسببون دائما مشاكل».

«مع كل عشيرة الفريجات مثل هيج حالة. كل همهم هو إحداث المشاكل».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۷

و فى مساء ذلك اليوم عدنا إلى مضيف صدام. بقيت واقفا فى الخارج أراقب مغيب الشمس وراء شتلات القصب الممتدة إلى مسافات شاسعة و هى عالية تصل إلى فوق الرؤوس. و أراقب أيضا الركام من الغيوم المستديرة، منفوخة على شكل قطع متناثرة تتسلسل ألوانها من لون خشب الأبنوس إلى الذهب اللماع ثم إلى العاج القديم، مقابل خلفية من اللون القرمزى أو البرتقالى و البنفسجى و الجنازى و الأخضر الباهت.

و أنت فى مثل هذه الوقفة تسمع من جميع الجهات نقيق الضفادع الهائل العدد و أصوات أخرى كثيرة لا يستسيغها المرء و لا يستطيع

أن يدوّن ملاحظاته عنها. كل ذلك كما لو أن الأهوار تتنفس.

إنك تسمع هذه الأصوات أكثر من أى صوت آخر، حتى من أصوات صياح الوز و هى تسبح فى الماء.

فالأصوات التى تسمعها فى الأهوار هى عبارة عن صوت نباح كلب و صوت جاموس يريد أن يقبع فى محل ما فيحدث صوتا كصوت الجمل و صوت رجل يغنى أغانى الشوق ثم يتوقف حتى يردّ عليه شخص آخر.

و ترى فى الأهوار جواميس كثيرة، تسبح عبر المياه المفتوحة، متجهة إلى القرية لا ترى منها غير رؤوسها ثم يترك كل واحد منها أثرا حين الخروج من الماء.

كما ترى أعمدة الدخان تتصاعد من بين البيوت و هى كثيفة. يشعلونها حتى يطردوا البعوض عن مواشيهم.

و ترى صبيا يجذف مشحوفه فى الطريق المائى، فى طريق عودته إلى بيته، يغنى بصوت رخيم.

الصوت باق لا يزول فى طبقات الهواء.

و فى هذه الأثناء نادانى صدام فدخلت إلى المضيف.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۷۹

۶- فى دار ضيافة صدام

قرأت خلال السنة الماضية ما بوسعى قراءته عن المعدان. و كل ما قرأته لا يعدّ إلّا شيئا قليلا. أما الكتاب الوحيد الذى عنوانه الحاج راكان- عرب الأهوار- بقلم فولانين Fulanian (إس. إى Hedge Cocha) فهو عبارة عن كتاب يصف سكان الأهوار وصفا يلائم مزاج المرء. كتبه فى نهاية الحرب العالمية الأولى.

و ما عدا هذا الكتاب لم أجد أى مرجع سوى بعض الإشارات العرضية التى تشير إلى عرب الأهوار فى ما كتب عن معركة بلاد الرافدين، كلها بدون تملق و بروايات مختلفة.

إسم المعدان، بالتأكيد، إسم سيىء لدى العرب ولدى الإنكليز على حد سواء.

فالكلمة تعنى باللغة العربية الساكن فى عدك أو السهل. أما بدو الصحراء فإنهم يستعملون هذا الاسم لينعتوا به كل عشيرة عراقية تسكن الأنهار. بينما يستعمل المزارعون الذين يسكنون فى قرى على امتداد النهر هذا الاسم بشكل متفاوت، لينعتوا به سكان الأهوار.

العرب كلهم أناس متعالون على من يعتبرونهم أدنى منهم. فكلما كانت ادعاءات العشيرة من أنها تنحدر من سلالات العرب الأقحاح كلما أزداد احتقارها لسكان الأهوار و ذلك بسبب سلالتهم المشكوك فيها.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۰

و العشائر الآنفة الذكر كثيرا ما تلصق التهم بهم كالتى تتعلق بالخيانة و الأعمال الشريرة.

يخشى أبناء المدن الذين يسافرون على طول نهر دجلة و الفرات صعودا و نزولا بأس المعدان فيتجنبونهم و يصدقون كل ما يسمعونه عنهم من الأعمال. كما أن سمعتهم بين الإنكليز فى العراق سيئة- تلك السمعة التى ورثوها على ما أظن فى زمن الحرب العالمية الأولى، عندما كانوا فى مساكنهم فى الأهوار يقتلون و يسلبون كلا الطرفين المتحاربين بدون تمييز.

و فى خلال السنوات القليلة التى كان البريطانيون يديرون فيها شؤون العراق، كان الضباط السياسيون يشغلون أنفسهم كثيرا فى مسائل عاجلة جدا، يورطون فيها أنفسهم كثيرا مع المعدان.

فقد تنقل عدد منهم فى طول الأهوار و عرضها غير أن زياراتهم ما كانت تدوم أكثر من بضعة أيام بأى حال من الأحوال. أما فى السنوات الأخيرة فقد كان يؤمها عدد من الأوروبيين من البصرة و بغداد حتى يصطادوا البط و ما كانوا يمكثون إلّا مع الشيوخ الأثرياء الساكنين فى أطراف الأهوار.

أما بالنسبة للموظفين العراقيين فإننى أشعر بكل تأكيد بأنه لم يتغلغل أى فرد منهم فى الأهوار ما لم تكن المهمة المكلف بها ضرورية تماما.

و ربما أكون أنا على أكثر احتمال الشخص الأجنبى الأول الذى عاش بين المعدان فردا منهم حسب رغبتى و حسب الظروف المواتية لى.

بى شعور عاطفى غريزى لمعرفة الحياة التقليدية لدى الآخرين مثلما لكثير من الإنكليز ممن هم فى جيلى و تنشئتى.

أمضيت طفولتى فى الحبشة حيث لم تكن توجد فيها أية عجلة فى ذلك الوقت أو أية طرق معبدة ثم عشت بعدئذ بعد مغادرتى جامعة أو كسفورد مدة ثمانية عشر عاما فى أجزاء بعيدة و نائية فى أفريقيا و الشرق

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۱

الأوسط، فجعلتنى أنسجم بطريقة الحياة مع سكان العشائر بسهولة، و أكيف نفسى وفق أساليب عيشهم و أجد متعة فى طريقة حياتهم. و لكن يصعب علىّ أن أجد فى الوطن أولئك الناس الذين ينبذون عاداتهم الخاصة و يحاولون أن يكيفوا أنفسهم مع الحياة على طريقة المدنية الغربية.

و فى العراق، كأى مكان آخر، هذا التبدل هو أمر محتوم. و إننى أعرف من أن الآخرين الذين هم أوسع أفقا و تفكيرا منى وجدوا هذا التبدل شيئا ممتعا و آمنوا بأهمية نتائجه. أما أنا فسيّان لدىّ، فضّلت أن أرى أقل ما يمكن من النتائج. فمثلا، كنت أشعر بالضجر بشكل عام و بهمة مثبطة حينما يتطلب منى أن أمضى ليلة مع الموظفين العراقيين- و أنا اليوم ألوم نفسى لتصرفى هذا طالما أجد مضيفىّ أناسا أصدقاء و كرماء للغاية- و ما سبب ضجرى إلا انهماك مثل هؤلاء الموظفين فى الأمور السياسية العراقية و أنا لا أملك عن الأمور السياسية إلا- النذر و لا- أهتم بها إلّا اهتماما قليلا بينما ينصب اهتمامى على أحوال العشائر و التى يرونها أمورا لا يسبر غورها أحد أو أنها أمور مشؤومة. فبإمكاننا أن نتحدث ساعات عن الأمم المتحدة و عن كل ما يفتن المرء فى تمضية العطلة فى باريس و عن أنواع صناعة السيارات أو عن تطوير بلدهم. و اضطر فى سبيل مجاراتهم أن أنافق و أكون مرائيا. بيوتهم مريحة إذا ما قارنتها بالأماكن العديدة التى نمت فيها، فهى بيوت ذات طابق واحد، بناؤها رخيص، تعوزها المتانة و الذوق، لكنهم يقيسون المدنية بأسرها بتقدم المادة لأن تعليمهم كان قد علمهم ذلك.

و لهذا السبب تراهم يخجلون من ماضيهم و يريدون نسيانه، كما أنهم يحلمون بأن يعيشوا فى بيوت حديثة كتلك البيوت المشيدة فى ضواحى المدن و يعتبرونها الحياة المفضلة.

أما ذوقى أنا، فربما يذهب إلى أبعد من ذلك، إلى الطرف الآخر.

إننى أكره السيارات و الطائرات و الراديو و التلفزيون و هى فى الحقيقة مظهر مدينتنا فى السنوات الخمسين الماضية و أكون دائما سعيدا إن قاسمت فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۲

العراق أو فى أى مكان آخر راعى الغنم و هو يعيش فى كوخ مليء بالدخان مع أسرته و حيواناته. لأننى أجد كل شيء فى مثل هكذا بيت غريبا و مختلفا. و إن اعتمادهم على أنفسهم شيء يريحنى و الشعور بالاستمرارية مع الماضى يسحرنى. فإننى أحسدهم لأنهم قنوعون. و القناعة نادرة فى العالم فى هذا الوقت، و البراعة و المهارة فى المهنة بسيطة، على أية حال، بحيث لا آمل أنا شخصيا من بلوغها مطلقا.

أمضيت سنوات كثيرة فى الاستكشافات و الريادة فلم يبق أى مكان لحد الآن لم أستكشفه من البلدان التى تسحرنى و تفتننى. لذلك، أشعر بأننى أميل إلى العيش بين الناس الذين اختار العيش معهم. ففى الجزيرة العربية كنت على صلة وثيقة مع رفاقى، غير أن رحلتى المستمرة حالت دون أن أتعرف إلى أى مجتمع خاص، على الرغم من أننى كنت أرغب فى ذلك، و الشيء القليل الذى وجدته لحد الآن فيما يخص سكان الأهوار راق لى. فهم أناس مرحون و أصدقاء يروق لى مظهرهم.

إنّ طريقة حياتهم، التى لم تتأثر بالعالم الخارجى إلا قليلا كانت فريدة لحد الآن، و أن الأهوار. نفسها أماكن جميلة. فهنا و الحمد للّه، لا توجد أية علامة من تلك المدنية الرتيبة و التى تنتشر على شكل ملابس أوروبية فى بقية أنحاء العراق كانتشار الآفة أو الوباء. وصلنا دار صدام فوجدته لوحده فى البيت، يخمّر القهوة. و لما جلست، ناولنى فنجانا منها ثم دفع الطرف الملتهب من النار فى الحزمة الطويلة من القصب تحت إبريق القهوة.

«ما هى خططك. صاحب؟» كلمة صاحب تعنى فى اللغة العربية صديقا «بعث لى الشيخ فالح رسالة يقول فيها بأنك ترغب أن تزور الأهوار. فهل تعمل من أجل الحكومة؟».

«كلا. إننى أتنقل لأننى أجد لذة فى رؤية أماكن و أشكال مختلفة من الناس».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۳

«من يدفع لك تكاليف سفرك؟. ما هو مقدار راتبك؟».

«ليس لى راتب. و أنا أدفع تكاليف سفرى».

«شيء غريب!» ثم سكت صدام دقيقة أو دقيقتين.

و بإمكانى أن أقول أنه لم يصدقنى لذلك استطردت قائلا: «تنقّلت فى بلدان كثيرة، فى أراضى الحبشة و فى السودان و فى الجزيرة العربية. و جئت الآن من كردستان. إننى أبحث عن المعلومات».

ربما أثّر كلامى هذا فيه، و لكن بالتأكيد لم يصدقنى حتى إن قلت بأننى أتنقل من أجل اللهو أو التسلية.

«هل تبحث عن معلومات عن المعدان؟» سألنى و نظر إلى نظرة شك.

«يمكن العثور على المعلومات فى كل الأماكن» أجبته باختصار.

و بعد وقفة أخرى قال: «هل تعرف كرميلى Grimley . كان صديقى فى العمارة».

«نعم، كنا سوية فى الحرب».

«إنه صديقى، كان يستمتع بالحفلات، أين هو الآن؟».

«لا أدرى».

«هل تعرف ديجبورن فى بغداد؟DiGhburn ».

«التقيت به مرة فى سوريا».

«هل تعرف إدموندز؟».

«نعم، فى إنكلترا».

«إدموندز رجل طيب. إنه صديقنا. فهو رجل عاقل جدا. هل هو فى صحة جيدة؟».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۴

«نعم، الحمد للّه، إنه فى صحة جيدة، و هو يبعث بتحياته». رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس ؛ ص۸۴

تزال للبريطانيين سمعة حسنة واسعة فى العراق فى ذلك الوقت.

و هى نتيجة للتعاون الوثيق مع البلد بين الحربين العالميتين حينما عمل الضباط البريطانيون إداريين و مستشارين. و لا يزال كثير من السكان المسنين يشعرون بالاحترام و الود و المحبة للأفراد الإنكليز.

و العشائر بوجه عام، دمثة الأخلاق، لا يعترضون سبيل الضيف على العكس من سكان المدينة أو موظفى الحكومة إذ كانوا يهاجموننى بمرارة بسبب السياسة البريطانية إزاء فلسطين أو قناة السويس مثلا.

ففى مثل تلك الحالة قد ينقلب ذكر الإنكليزى الذى يعرفونه إلى مرارة و يتغلب على ذكرى الصداقة.

«شكو عندك بهاى الصناديق؟» قال صدام.

«أدوية».

«أنت طبيب إذا!».

«أعرف عن استعمالات الأدوية».

«هل عندك دواء لرأسى، عندى وجع رأس».

فتحت الصندوق و أعطيته قرصين من الأسبيرين.

«أعطنى أكثر. صاحب، هذا قليل».

أعطيته ستة أقراص و لكن حذرته بأن يتناول قرصين منها فى كل مرة.

«و لمعدتى؟. أشعر بوجع هنا أيضا».

أعطيته بعض الأقراص من الصودا.

«ما هذه؟» أشار إلى القنينة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۵

«هذا يود».

«و هذه؟».

«هذا دواء للحروق» ثم قفلت الصندوق بقوة.

ساد صمت آخر، ناولنى خلالها فنجانا من القهوة ثم سأل:

«وين تريد تروح؟».

«أريد أن أعبر الأهوار حتى أصل إلى نهر الفرات ثم أعود من خلال أراضى عشيرة الفرطوس. تنقلت من أراضيهم فى السنة الماضية مع القنصل».

«هل إلتقيت مع جاسم الفارس؟».

«لا. لم يكن موجودا لما زرنا قريته. ابنه الصغير فالح ضيّفنا».

«ما أعرفه. إبق هنا. ترتاح أكثر بهل المكان. راح نروح للصيد سويۀ. نصطاد البط و الخنزير و كل شيء تريده».

«أشكرك يا صدام. سأعود إليك بالتأكيد. و لكن، قبل كل شيء أريد أن أرى الأهوار».

«الأهوار واسعۀ. صاحب. تمتد خلف نهر دجلۀ إلى مساحات شاسعۀ إلى إيران. ما تكدر تشوفها فى سنۀ واحدۀ».

«ما يخالف، لكن أريد أشوف أكثر ما يمكن».

«كلش زين! باجر راح نروح إلى قريۀ بومفيفات. عندى شغل لازم أخلصه هناك. راح نتغدى عند صحين. راح نروح فى اليوم التالى إلى نهر الفرات عن طريق زكرى، و هاى بحيرۀ واسعۀ، و مكان غير مريح عند هبوب الرياح، غرق كثير من المعدان هناك».

و عند تناول طعام العشاء، حيث أكلنا وحدنا، قدّم لى صدام قدحا

رحلۀ إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۶

من حليب الجاموس و لم أكن قد تذوقته من قبل. و لكننى فضلته على حليب البقر، ثم تقاطر الناس إلى المضيف. أخذت مكانى، مسندا ظهرى على الجدار، مصغيا إلى أحاديثهم التى لم أكن أفهمها. كانوا يتناقشون حول زراعۀ الشلب و كانوا يستعملون عبارات لا أفهمها.

فسألت: «هل تزرعون الشلب فى قباب؟».

«كنا نزرع فى الماضى. لكن. الفيضانات كانت تجرف الطمى معها، قباب انتهى أمرها فى زراعۀ الشلب، ما تكدر تزرع الشلب إلا فى طمى حديثۀ، و هذه السنۀ، راح نطلب من الشيخ مجيد أن يخصص لنا أرضا حتى نزرعها بالقرب من فتحۀ النهر».

«يعنى راح تتركون هذه المنطقۀ؟».

«طبعا لا! هذه المنطقۀ هى بيوتنا، نحن معدان. هذولاك اللى يرغبون فى زراعۀ الشلب على حافۀ الأهوار راح يروحون ثم يرجعون هنا مرۀ أخرى».

بدأ رجلان من الجالسين يتحاوران و يتناقشان بشكل حاد حول دفع مهر العروس لأنه لا يزال غير مثبوت فيه. و اشترك الجميع فى هذا النقاش. و أرادوا عجرم أن يضع أساسا لهذا الشيء غير أن صدام التفت إليه و قال له «حسين! باجر راح نجى أنا و الإنكليزى نتغدى عندك و أتوقع راح يكون الغداء زين».

مضت فترۀ سكون ثم نظر الجميع إلى حسين الذى كان يتململ و هو ساخط ثم قال: «أهلا و سهلا بكم» بلهجۀ غير مقنعۀ ثم أسرع فى الخروج و هو يقول: «بحليب أمك. صدام. باجر عندى شغل لازم أروح إلى المجر».

ابتسم عدد من الرجال و شعرت أن حسين قد تضايق. و علمت فيما بعد بأنه مشهور بخبثه و دناءته.

رحلۀ إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۷

«روح للمجر بعد باجر. باجر الإنكليزى يشرّف بيتك».

«تشرفت» رد حسين و هو كئيب.

و قال صدام: «إذا الظهر. لحم و لبن و أرز».

لجأ حسين إلى الآخرين و قال: «كلكم تعرفون عندى شغل و لازم أروح باجر إلى المجر، لى موعد مع ابن عم زوجتى».

«هذاك اللى مات فى العام الماضى!» قال صدام.

«لا. صدك صدام. و حياتك، بالعباس يا صدام».

«و اللّه حسين. اليوم اللى تضيف فيه الضيف يكون يوم عيد، عليك العار».

شعرت بأسى بالنسبۀ إلى عجرم.

و لما غادر الضيوف أخيرا أوعز صدام إلى عجرم و شخص آخر بالبقاء فى المضيف لتمضيۀ الليل.

«ضع أمتعۀ الانكليزى بينكما. وضع الفانوس فوقها، يبقى أحدكم يقظا. أقتلكم إذا سرقوا أى شيء منه. راح آخذ البندقيۀ إلى دارى للأمان» ثم قال لى: «راح ترتاح هنا. و المعدان هم حراميۀ، فى الأسبوع الماضى سرق بعضهم زورقى، اللّه يحرقهم! و لا تزال مفقودۀ، و قبل شهر، دخلوا الدكان بالليل و سرقوا كل ما فيه. عندما تكون فى الأهوار نم على سلاحك و إلّا راح يسرقوه. ما يسرقك أهل الدار بل يسرقك الآخرون. ربما من قريۀ أخرى. و قبل بضع سنوات، جاء الوصى بنفسه إلى المجر. حضر جميع الشيوخ هناك مع رجالهم و كوّنوا حشدا كبيرا. و كان أحد رجال الشيخ مجيد يملك بندقيۀ (برنو) جديدۀ، دفع الشيخ ثمنها و مقدارها مائۀ دينار و أخذ يتباهى و يتفاخر بها و يريها إلى الجميع، طلب أحد المعدان منه أن يراها. ناوله البندقيۀ و سرعان ما غاص المعيدى بين الجمهور

المحتشد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۸

و لم يره أحد أبدا مرة أخرى. و البندقية لم تعد إليه أبدا و عندها غضب الشيخ مجيد لهذا العمل».

جلب خادم صدام فراشا و لحافا فقال له صدام «ضعها هناك، لا، ضعها هناك أيها الغبى، ضع المخدة».

قلت له بأن لدىّ بطانيات.

«لا تحتاجها هنا. هذا بيتك». رتّب المخدة ثم تمنى لى ليلة سعيدة و حذّر عجرم قائلا: «إذا نمت أسلخ جلدك». يظهر أن هذا تهديد و من الممكن تنفيذه.

أما أنا فخرجت خارج البيت قبل أن آوى إلى فراشى. كانت ليلة ظلماء، لا أثر للقمر. فصاح عجرم قائلا: «دير بالك من الكلب».

كانت النجوم تلمع و ترسل أشعتها الماسية و قد انعكست على سطح الماء بين قدمىّ. و كان الهواء باردا جدا، فيه شىء من لمسات الشتاء.

و هنالك، فى بيوت عديدة، تتأجج نيران المواقد، و يمكن مشاهدتها من مدخل الباب.

حطّ البط على الماء بالقرب منى، و تطاير رذاذ الماء، و سمعت مرة أخرى نقيق الضفادع الموزون.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۸۹

۷- بومفيفات إحدى قرى الأهوار

أيقظنى عجرم و الشمس لم تشرق بعد ثم بدأ بإشعال النار مستعملا روث الجاموس، و سرعان ما إمتلأت الغرفة بالدخان. فقال لى عجرم:

«صباح الخير. صاحب. نمت زين؟».

«صباح الخير. عجرم. نعم. نمت نوم مريح فعلا. و أنت؟».

«ما نمت. حرست أمتعتك».

قرية بومفيفات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۰

طوى الفراش ثم أخذ الكتلى و انتحينا فى إحدى زوايا المضيف و بدأ يصب الماء الفاتر على يدىّ و أنا أملؤها بالماء ثم أغسل وجهى و أمضمض فمى. و لما انتهيت ناداه صدام حتى يحلب الجواميس. خرجت حتى أرى كيف يحلب عجرم الجواميس، فرأيت وعاء الحليب مصنوعا من كتلة خشبية، له قاعدة مستدقة حتى لا يمكن وضعه على شكل قائم، أخذه عجرم من يد الخادم ثم جلس القرفصاء فى جانب من جوانب الجاموس واضعا الوعاء بين ركبتيه. و كانوا قد جلبوا أربعة جواميس و عجلا واحدا.

و تعجبت لماذا استدعى صدام عجرم بدلا من الإيعاز إلى خادمه ليحلب الجاموس. ثم عرفت بعدئذ بأن هناك عددا قليلا من الفتيان فقط يعرفون كيف يحلبون الجاموس. فهنا يكمن موطن ضعف غريب بين الناس الذين تتركز حياتهم حول جواميسهم. فبعض الأسر فى قرية قباب تملك مقدار خمسة عشر جاموسا، غير أن العدد الاعتيادى كما يبدو هو ما بين (۶- ۸) جواميس. تبقى واحدة منها على الأقل أمام كل بيت.

كانت المياه فى البحيرة الضحلة كالزجاج، لونها خافت، و الهواء بارد و رطب أيضا.

لم أستغرب حينما رأيتهم لا يسمحون للنساء بحلب الجواميس لأننى رأيت أيضا فى القسم الجنوبى من الجزيرة العربية أنهم لا يسمحون للنساء بحلب الإبل مطلقا. و وجدت، من جهة أخرى، الرجال فى القبائل التى تربى الأغنام خارج الأهوار لا يحلبون الغنم و الماعز كما لا يحلب الرجال الأكراد أغنامهم أيضا بل إنما تحلبها نساؤهم لكنهم يساعدونهن فى مسكها فقط.

و الرجال فى الأهوار لا يدقون الحبوب و لا يجرشونها و لا يصنعون أقراصا من الروث لاستعمالها كوقود بل إنما يقومون بطبخ الطعام و جلب المياه إن لم تتواجد النساء للقيام بهذا العمل لهم. فالمحرمات شائعة بين

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۱

الناس البدائيين جميعا. ففى إحدى المرات فقدت البعثة الكاثوليكية أتباعها فى أراضى شيلوكShiluk الواقعة فى جنوب السودان لأن القساوسة لم يعيروا اهتمامهم إلى احتجاجات الصبيان الذين كانوا يطالبون بأن النساء وحدهنّ تلصقن الطين على جدران الدور.

و بعدما انتهى عجرم من هذا العمل، تناولنا فطورنا المتكون من أرغفة الخبز المصنوعة من الأرز و حليب الجاموس بعد غليه و تحليته

بالسكر. ثم أرسل صدام ثلاثة رجال ليجلبوا المشحوف و يوصلونى إلى قرية بومفيفات.

و هنا فى قباب يعتبر صدام الأساس، فهو المستبد فيها، يعدم القرويين أو يجلدهم حسبما يشاء و يستوفى الضرائب فى التجارة التى تعبر من هنا، فهو ممثل الشيخ مجيد، و الحكومة لا تمانع بأن تترك السلطة بيد الشيوخ فى الأهوار.

و الشيخ مجيد هو أحد الشيخين البارزين فى عشيرة البو محمد، و هى عشيرة مستوطنة، يبلغ تعدادها (۰۰۰، ۱۲۰) نسمة و تسكن على امتداد المجرى الرئيسى لنهر دجلة و الفروع الكثيرة التى تصب فى الأهوار ابتداء من العمارة و حتى جنوب العزير.

و الشيخ الآخر هو محمد العريبى، و هو رجل عجوز، مقاطعته فى الجانب الشرقى من نهر دجلة. و فى العهد التركى، كانت العشائر تعتمد فى زراعتها على زراعة الشلب. و تبذر الأرض التى تغمرها مياه الفيضانات فى فصل الربيع.

و فى الوقت الحاضر، و مع دخول المضخات الميكانيكية، يزرع الكثيرون منهم المحاصيل الشتوية كالقمح و الشعير. و مع أنّ كل أسرة تقريبا تربى عددا من الجواميس، فإن العشيرة محسوبة على الفلاحين و ليس على المعدان ما عدا بعض الأفخاذ التى تسكن داخل الأهوار.

تسكن أسرة واحدة أو اثنتان فقط من عشيرة البو محمد فى قرية قباب

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۲

نفسها. و أما السكان الآخرون فى القرية منهم من ينتمى إلى عشيرة الفريجات و الشغانبا أو عشيرة الفرطوس.

تعيش هذه العشائر الثلاثة كما تعيش عشيرة البو محمد فى كل مكان من الأهوار و هى محسوبة على المعدان، على الرغم من أنّ الكثيرين منهم يزرعون الشلب.

ففى لواء العمارة، للشيوخ الذين تحادد أراضيهم الأهوار، الحق على القرى الكائنة فى الداخل حتى و إن كانت تسكنها عشائر أخرى، فيأخذ الشيخ حصته من محاصيل الشلب.

و عندما يمتنع أحدهم عن دفع الحصة المستحقة عليه لا يسمح له ببيع محاصيله. كما أنهم يلحون على القرويين على بيع السمك للأشخاص المخولين بالشراء فقط، و لهذا السبب يتذمر القرويون من هذا الأسلوب و لكنهم يرضخون للأمر.

و بالمقابل، يحافظ الشيخ أو ممثله على الأمن فى هذه الربوع و يحكم العشيرة بالعدل حسبما يفهمه. و العشائر تخشى التورط فى المحاكم لأنه يتطلب من الأشخاص عند ذلك دفع أجور المحاماة الباهظة و دفع الرشاوى فضلا عن أنهم سوف يبتعدون عن بيوتهم لفترة طويلة من الزمن، فإذا أدينوا فسوف يتم وضعهم فى سجن المدينة و بذلك يصبحون بعيدين جدا عن أهاليهم و أقاربهم الذين يسكنون فى الأهوار. أما الشيخ فإنه قد يفرض عليهم الغرامات عند المقاضاة أو يجلدهم أو يحكم عليهم بالسجن فى قريته.

ينظر الشيخ فى دعاوى أتباعه فى المضيف، يحيطه رجال بارزون و بحضور أتباعه، و لقد أدين عدد قليل من الناس و هم فى الحقيقة لا يستحقون مثل هذه الإدانة. و صدام هو ابن عم الشيخ مجيد الخليفة.

و يعطى الشيخ مثل هذا المركز إلى أحد عبيده الذى يعتمد عليه و يثق بنه.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۳

و العبيد فى العراق كلهم أحرار من الناحية القانونية، غير أن العشائر لا تزال تعتبر الشخص عبدا إن كان ينحدر من سلالة من آباء و أجداد عبيد.

و هذا لا يعنى أنهم يعاملونهم معاملة سيئة أو يحتقرونهم علما بأن كثيرا من العبيد قد أصبحوا من أتباع الشيخ. و إن لعدد قليل منهم السلطة و المقام العالى، و أسمعهم فى كثير من الأحيان يتحدثون عنهم و يحسدونهم على مراكزهم الرفيعة. كما أن قسما منهم قد أصبح أخا للشيخ بالرضاعة أو أخوة لأبنائهم بالرضاعة. و لا يمكن تمييز الكثيرين من العبد عن رجال العشائر الآخرين من حيث اللون و المظهر لأن الدماء العربية تجرى فى عروقهم.

و من الأمور الشائعة أن يتزوج العرب فتيات من العبيد إلّا أنه لا يحق للعبد أن يتزوج امرأة حرّة و إلّا فالموت هو المصير الذى ينتظره إن مسّ المرأة الحرّة بسوء.

و إذا ما حصل شىء من هذا القبيل، يثور أحد أقارب المرأة الحرّة و يقتل هذا العبد الذى تجاسر على مسّ المرأة أو تزوجها حتى يمحو آثار هذا العار.

و سرعان ما أدركت من أنّ صدام شخص غير محبوب للغاية، لأنه مستبد و ظالم. و عندما يثور غاضبا لا يكبح له جماح.

و يتهمه القرويون من أنه استفاد كثيرا من مركزه حتى أصبح ثريا، و لكن لا بدّ لكل واحد منهم أن ينهج النهج نفسه إذا واتته الفرصة.

غير أنهم جميعا اعترفوا بأنه شخص سخى و كريم، يعجبون من قوة أخلاقه و يسرّهم كثيرا حسن تقديره و فهمه للأمور إلى حد

الإفراط. و فی إحدی المناسبات، روّع الجیران بقیام رجال زورقه بالغناء الثنائی العاطفی أثناء مرورهم من قریهٔ کان صدام یکره أخ أحد الأشخاص و قد توفی حدیثا و لا یزال أهله یقیمون له مراسیم التعزیهٔ- الأغنیهٔ هی «اللّه یشعل أخوک اللّی مات البارحهٔ، أنت ابن الکلب».

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۹۴

و أخیرا تجاوز حدود صلاحیاته، ففی إحدی المرات، کان أحد القوارب محملا بخصافات من التمر یمرّ فی قریهٔ قباب فی طریقه من القرنهٔ إلی العمارهٔ، خرج صدام من بیته و أمر صاحب القارب بشکل جازم أن یتوقف عن السیر و یناوله ثلاث خصافات من التمر قبل مواصلهٔ سفره. فردّ علیه قائلا بأنه کان یسرّه أن یقدم لصدام شیئا من التمر کهدیهٔ، لکنه، لعن نفسه إن قدّم له منها شیئا بعد هذا الطلب. فما کان من صدام إلّا و أن دخل بیته ثم خرج حاملا معه بندقیته فأطلق النار من فوق رأس صاحب القارب.

اشتکی هذا الرجل لدی الشیخ مجید الخلیفهٔ فنحّی صدام عن منصبه هذا لعمله المشین. التقیت به مرات عدیدهٔ من بعد هذا الحادث فوجدته فی فقر مدقع، لکنه بقی علی عادته فی الکرم و السخاء، یرحب بالضیوف مثلما کان یرحب بهم حینما کان یحکم قباب.

تبعد قریهٔ بومفیفات مقدار میلین عن قباب. انطلقنا إلیها من مضیف صدام و نحن نسلک فی مسیرنا ممرا مائیا یجری کالنهر الرئیسی بین القریتین. و سألت صدام عما إذا کانت هذه الممرات بین منابت القصب هی طبیعیهٔ أم من صنع الإنسان. فأجاب، بأن المعدان یسوقون الجوامیس حینما ینخفض منسوب المیاه من خلال القصب حتی یحدثوا أثرا لطریق یسلکونه، ثم یبقی هذا الأثر فیما بعد مفتوحا بسبب ذهاب و إیاب المشاحیف منه.

شاهدنا أثناء سیرنا عددا من الجوامیس و هی غاطسهٔ فی وسط مجری النهر، و کان الشخص الجالس فی مقدمهٔ المشحوف یربت علی رؤوسها بعصاه حتی یبعدها عن الطریق، لکنها ما کانت تبالی أو تتحرک من أماکنها حتی و لو سار المشحوف علی أجسادها لمنع ظهورها.

سألت: «هل بإمکان الجوامیس أن تلامس مقر الماء فی کل مکان من هنا؟».

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۹۵

«لیس فی کل مکان، و لکن لازم تقف علی قعر الماء حتی تکدر تأکل، هذا من جهه، و من جهه أخری فهی تحب أن تبقی داخل الماء مثل هیذج الجوامیس اللی شفتها لما عبرناها. و أحیانا یکون الماء عالی جدا بسبب الفیضان فی مثل هذه الحالهٔ علی «الحافات أمام البیوت. لکن، الذباب یزعجها و ما تکدر تأکل. و إذا أکلت یصعب علی صاحبها تأمین الطعام لها. و المعدان یمضون النهار کله فی قطع النباتات حتی یؤمنوا العلف إلی الجوامیس فی اللیل. های هی حالهٔ المعدان، یقطعون القصب إلی جوامیسهم حتی تأکلها».

عرفت بأنه عندما ترعی الجوامیس فإنها تقتات علی النباتات المائیهٔ و علی القصب و البردی و علی لسان الثور و السجال و غیرها من أنواع النباتات المائیهٔ و أنواع من الحشائش التی تنمو فی الأراضی الواطئهٔ الممتدهٔ علی حافهٔ مجری الماء.

وجدت ثمانیهٔ عشر دارا فی قریهٔ بومفیفات فی مکان مجتمع و منابث القصب تزدحم علیها. نزلنا من المشحوف علی ساحل کبیر جدا و منحدر، أسود اللون، دخلنا الدار عن طریق حفرهٔ ضیقهٔ و وجدنا فیها عددا من الأشخاص، و انهمک الجمیع فی إعداد الغرفهٔ بوضع الفرش علی الأرض و جلب المخدات. ثم قال صحین مضیفنا: «مرحبا یا صدام، مرحبا یا صاحب» ثم تقدم الجمیع للسلام علینا و مصافحتنا. فرأیتهم لا- یختلفون عن المعدان الآخرین یرتدون الدشداشات البیضاء أو الغامقهٔ. أما الأطفال فکانوا یرتدون الملابس الزاهیهٔ. و أما داخل الغرفهٔ فهو لا یختلف فی شیء عن الغرفهٔ التی کنت فیها یوم أمس مع فارق واحد مهمّ أوضح لی صدام مغزاه.

کان المدخل علی الجدار الشمالی یدلّ علی أن البیت (ربعه). و هو مکان قسم منه للسکن و قسمه الآخر للضیافهٔ.

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۹۶

صحین- مختار من عشیرهٔ الفغریجات من بومفیفات بوسع الشخص الغریب حینما یکون بین المعدان أن یتوقف فی أی مکان یشاء حتی یتناول الطعام مجانا کما هو الحال حینما یکون بین العشائر الأخری و یقضی لیلته و لا یردّ أحد طلبه.

أما إذا کان هناک مضیف فإنه یذهب إلیه، ما لم یکن له صدیق فی القریهٔ، و فی القریهٔ لیس فیها مضیف فمن المتوقع أن یذهب الغریب إلی (الربعهٔ).

و بإمکان کل شخص أن یحوّل بیته إلی (ربعه) أو یبین مضیفا حقیقهٔ. و لکن، لکی یفعل ذلک علیه أن یلجأ إلی السیّد لکی یبارک له عمله هذا و إلّا سیلاقی ما لا یسرّه و یرضیه. فقیل لی فیما بعد بأن أحد الشباب کان قد ادخّر شیئا من المال فی البصرهٔ ثم عاد إلی قریته الواقعهٔ علی البر الرئیسی فبنی له مضیفا، و لما مات والده خلال سنهٔ من بنائه المضیف ثم ماتت زوجته لم یستغرب القرویون ذلک فقالوا «ما کان أبوه فی یوم من الأیام یملک مضیفا و لا حتی ربعهٔ، لو یرید یبنی مضیف أو ربعه، لازم یروح للسیّد حتی یبارک

له و إلّا فإن هذا العمل ينقلب عليه و يصير شؤم».

علّقت على كرم العرب، فقال لنا صحين بأنه قبل عدة سنوات، زار ثلاثة أشخاص من المعدان من قرية القبور مدينة البصرة و هى لا تبعد عنها كثيرا. كانوا شبابا يا فعين، أصحّاء، لم يتسن لأى فرد منهم الخروج من

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۷

الأهوار و الإبتعاد عنها. و لما وصلوا البصرة شعروا بالجوع و التعب فأخذوا يبحثون عن مضيف حتى يتناولوا الطعام لأنهم لا يعرفون أحدا فى المدينة.

احتاروا فى أمرهم و أعياهم التعب فأوجسوا خيفة. و بينما هم فى هذه الحالة إذ بشخص مرح، له كرش كبير، يخرج من بيت يقع على الطريق و قال لهم: «مرحبا! ألف مرحبا، تفضلوا».

ثم مشى أمامهم و قادهم إلى غرفة واسعة وجدوا فيها عددا كبيرا من الناس و هم يجلسون على الكراسى و يتناولون الطعام على منضدة صغيرة.

و لما جلسوا قال لهم «تفضلوا. اعتبروا أنفسكم فى بيتكم. شتريدون أكل حتى أجيبلكم؟. تريدون شوربه، خضراوات، سمك، لحم غنم، حلويات؟. تشربون شربت؟. بس انطقوا و أنا أجيب كل شىء اللى تريدوه.

أهلا و سهلا- أهلا و سهلا».

ظن الصبية الثلاثة بأن هذه الطريقة تصرف غريب من نوعه. فمن سمع بأن مضيفا يسأل ضيوفه عما يريدونه. و على كل حال، إنه صادق جدا و لا يتصرف مثله إلّا الناس المتمدنون فقط.

فقالوا له «نريد كل ما ذكرته لنا».

«زين. راح أجيب لكم شوربه و سمك و خضراوات و دجاج. ما تريدون شىء آخر؟. و بعدين أجيب حلويات و شربت حتى تشربون- إسمحوا لى لحظة من فضلكم».

و التفت أحد الصبية نحو الآخر و أخذ يحاوره فقال له «و اللّه. هذوله ولد المدينة ناس طيبين. وين نشوف مثل هل الكرم فى الأهوار؟. أشجان أبّهاتنا يقصدون لما يحذرونا من ولد المدن و يقولون بأنهم ناس زينين».

عاد مضيّفهم و هو يحمل صحونا كثيرة من الطعام بحيث غطيت المنضدة ثم جلب لهم الماء ليغسلوا أيديهم، لكنهم رفضوا بأن يصب الماء على أيديهم ثم قال لهم:

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۸

«كلوا. خذوا راحتكم. كأنكم فى بيوتكم». فبدأوا يأكلون بنهم لأنهم لا يتذوقوا مثل هذا الطعام من قبل. ثم جاء مرة أخرى و قال لهم: «أجيب لكم مرق و دجاج؟».

«نشكرك. نشكرك». ثم تحدثوا فيما بينهم و قالوا بعد أن جلب لهم الطعام:

«شلون رجال هذا!» و لما أكلوا و شبعوا قالوا له بأننا اكتفينا الآن ثم بدأوا يغسلون أيديهم، و لما انتهوا جلب لهم الشاى و القهوة. و لما انتهوا من هذا نهضوا و همّوا بالخروج و هم يقولون لصاحب الدار:

«جزاك اللّه خير». إلّا أن صاحب الدار صاح بهم قائلا:

«هاى وين. أوكفوا. انتظروا شويه. اللّه يجازيكم بالفعل!. وين فلوسى؟. أعطونى دينارين. حسابى وياكم دينارين».

«شتكول!. تطلب منا فلوس؟. هذا مضيفك. نحن كنا عابرين و أنت اللى صحت علينا و لحّيت علينا بالدخول».

«كلاب! أعطونى فلوسى، معيديه، كلاب، حرامية! أبقوا راح أخبر الشرطة».

و فى النهاية. أجبروا على دفع دينار و نصف، و لم يبق لديهم أية نقود ثمنا لأجرة الحافلة لذلك يجب أن يعودوا إلى القرنة مشيا على الأقدام.

«نحن المعدان» قال أحد المستمعين إلى حديث صحين «إش لازم نعرف عن المدنية؟».

قال صحين: «زرت البصرة، الناس فى كل مكان، السيارات، ألوف الناس، كل واحد ملتصق وراء الآخر».

«صحيح لا يوجد مضيف؟. كيف يعيش الغرباء؟».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۹۹

«أنت تدفع عن كل شىء. مثل ما تفعل لما تجلس فى المقهى فى البحر».

و فى هذا الوقت قدموا لنا الشاى، و دخل عدد آخر من القرويين فى الغرفة و أصبح الطرف البعيد مكتظا بالجالسين. أما الطرف الآخر

من الغرفة فهو للنساء، يطبخن فيه و يقمن بالأعمال البيتية. وجّه صدام كلامه إلى صحين و قال له: «يجب أن تساهم قرية بومفيفات بحمل قاربين من القصب لبناء مضيف الشيخ مجيد الجديد».

و سبّب هذا الكلام فى حدوث صخب فارتفعت أصوات الحاضرين و هم يحتجون حول المساهمين فى جلب القصب كما كان الفتيان أيضا يحدثون الصخب كالكبار، فتدخل صدام بلطف و هو يعبث بحبات مسبحته الكهرمان فقال: «و أريدها بعد غد» و أدّى هذا الطلب إلى حدوث مشادة كلامية بين الحاضرين ثم خفتت الأصوات بوصول طعام الغداء المتكون من ماعونين كبيرين من الأرز و دجاجتين.

بومفيفات قرية من قرى عشيرة الفريجات، و صحين هو رئيس فخذ الناس من هذه العشيرة التى تسكن هنا. و هذا مركز يتوارثونه، عمره أربعون سنة تقريبا، يتميز بمظهر خارجى ذى نفوذ، هادىء، و هو أصغر سنا من معظم الأشخاص الآخرين لكنه ذو بنية قوية، و كان الشخص الوحيد الذى لم يبتهج خلال الجدال و النقاش الذى جرى قبل وصول الطعام. له لحية صغيرة على ذقنه و شارب قصير اعتيادى، و أخوه حافظ الذى يبلغ من العمر (۱۸) سنة هو الذى جلب الطعام مع صبيين آخرين.

و فى السنة الماضية، بينما كان حافظ يحرس محصول الشلب، سمع صوتا ظن أنه صوت خنزير، فأطلق النار ثم توجه ليستجلى الأمر فرأى أنه قد أصاب امرأة فى رأسها. و هذه المرأة من إحدى القرى القريبة و من عشيرة الفريجات.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۰

وافق أهل هذه المرأة فى النهاية على قبول الدّية. و عرفت الآن أنهم يحسمون مثل هذه القضية بالنساء. فالثمن بين عشيرة الفريجات هو ست فتيات على أن تكون الأولى منهن حسبما هو معروف غجرية و عذراء و فى سن الزواج يعنى بين عمر (۱۴- ۱۶) سنة. و الأخريات يعرفن باسم (طلاوى).

و الغجرية يجب أن تكون من أسرة القاتل أو من أقرب أقربائه إن لم يكن للقاتل أخت أو بنت ملائمة لسن الزواج فتتزوج أخا القتيل أو ابن عمه.

و بإمكان العائلة المفجوعة بفقيدها أن تختار العدد الذى تريده من (الطلاوى) أو تختار المال بدلا من ذلك. و المال هذا مقدّر بخمسين دينارا عن كل من الفتاة الأولى و الثانية و (۲۰) دينارا عن كل فتاة من الفتيات الثلاثة. و يؤمن فخذ العشيرة الذى ينتمى إليها القاتل المال أو النساء.

و عندما أبديت رأيا قلت فيه بأن ست نساء مقابل حياة شخص واحد هو ثمن غير متناسب. قال صدام:

«التعويض بين عشيرة البو محمد لشخص واحد من أسرة الشيخ هو (۵۰) إمرأة مع نفى القاتل لمدة سبع سنوات».

و يسمى العرب الدم المأخوذ عن الدم بالفصل، غير أن التعويض أفضل تسمية.

لا تؤثر درجة الذنب أو الجرم على مبلغ الفصل، فقد سمعت أنهم طلبوا مالا عن مقتل شخص مضى على قتله عشرون عاما من بعد حادثة جرح فيها و دفع له المال. و يرفض أقارب القتيل بالتأكيد تقريبا قبول المال، و يطلبون فى هذه الحالة الدم مقابل الدم. و الفصل على درجات مختلفة بالنسبة للضرر الناجم. فالعين تعادل نصف الحياة و السن يعادل امرأة واحدة و هلم جرا. و يتم الدفع عن كل الأصابع إلّا، لبعض الأسباب. عن الإصبع الوسطى. فيتم الدفع على شكل صفقة على الوجه علنا. و حتى أن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۱

صدام قال لى بأنه إذا ما قتل شخص ما كلب آخر عمدا فإنه يجب أن يدفع ثمن الدم و يمكن تسويتها بثلاث نساء فقط.

انتبانى شعور حب الاستطلاع عن أصل عشيرة البو محمد. فأوضح لى صدام كيف أن شخصا من عشيرة زبيد عزة المسمى (محمد) قتل ابن عمه قبل أربعة عشر جيلا و أخذ إبنته المسماة (باشا) معه و بدأ يبحث له عن ملجأ حتى يلتجىء إليه.

لجأ إلى عشيرة الفريجات و عاش معهم مدة (۱۵) سنة ثم وقع فى غرام فتاة اسمها (مهينة) ابنة شيخ الفريجات الجميلة.

و أخيرا وافق الشيخ بأن يزوج إبنته له على شرط أن يسمح له محمد بأن يتزوج (باشا). فوافق محمد على هذا الشرط. غير أنه فى ليلة الزفاف استبدل الشيخ ابنته القبيحة المنظر و المسماة (كوشه) بابنته الجميلة (مهينه).

و بدأت جماعة الزفّة تغنّى و ترقص كما هى العادة الجارية حتى أوصلوا الفتاة إلى بيت محمد الذى تسلمها منهم. و عندما رفع الحجاب عن وجهها اكتشف الخدعة. و بدلا من أن يطلقها رضى بها كزوجة له و قال «الحمد للّه. هاى هى البنت اللّى هى من نصيبى». ولدت له كوشه ولدين سعد و عبود. و منهما انحدر الفخذان من عشيرة البو محمد الكبيرة، و هما العمله و البوعبود. و أضاف صدام قائلا: «نحن عشيرة البو محمد نقول فى صيحة المعركة [أنا أخو الباشا]».

و هذه العادة كغيرها من العادات الأخرى العديدة ولدت بشكل واضح مع البدو فى الجزيرة العربية حينما يصيح الرجل صيحة المعركة

فيذكر إسم أخته أو إسم جمله المفضل. و قبل أن نغادر المكان، دخل الغرفة سيّد.

و هو رجل متوسط العمر، على ذقنه قش إذ كان يقطع الحشيش علفا لحيواناته، يرتدى دشداشة عتيقة و ممزقة. نهض الجميع حينما دخل تقدمت جماعة صدام التى معه فى المشحوف لتقبل يديه. هنالك عدد لا يحصى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۲

عائلة من الفريجات من قرية بومفيفات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۳

من السادّة فى القسم الجنوبى من العراق كما هو الأمر فى معظم أقطار العالم العربى، و هنالك عدد من القرى فى الأهوار تفتخر بسبب وجود أسر كثير تنحدر من سلالة النبى محمد صلى اللّه عليه و سلم.

مكثت مدة بين عشيرة الفرطوس مع أسرة تسمى بالسادة. و قد أخبرنى عدد من الناس فى القرية قائلين «هذولاك موسادة أبدا. نحن نعرف منين أجو. قبل أيام صبغ العجوز كوفية بلون أخضر». و على الرغم من ذلك فإنهم ينادونهم بكلمة (مولانا) و هى الصيغة المستعملة عند مخاطبة السيّد.

و من المحتمل أن لا يسأل أى أحد، بعد بضع سنوات، عن ادعاء هذه الأسرة بأنها سادة.

كان بيت صحين مشيدا فوق جزيرة قد تكون طبيعية أو مكانا لقرى قديمة العهد. و لكن لا حظت حينما غادرناه من أنه مؤلف من طبقات متتالية من التراب و القصب المتفسخ.

وجدتها، فى الحقيقة، أرصفة متقنة الصنع من أشجار الأسل من النوع نفسه و هى التى كونت أساس بيت الزائر فى قرية قباب.

و تتلخص طريقة تشييد البيت فى القيام بإحاطة المنطقة المائية بقدر ما يكفى لبناء البيت و الساحة مع السياج أولا بحاجز من القصب يبلغ ارتفاعه مقدار (۲۰) قدما.

و الخطوة الثانية هى عبارة عن تكديس القصب الموجود داخل السياج و توضع فوق هذه الأكوام. ثم يكوّم المعدان أشجار الأسل بكثرة فوقها ثم يدوسونها بأقدامهم بأكثر ما يمكن من الشدة.

و عندما يتأكدون من متانة الأساس، يبدأون عندئذ ببناء الدار و يسحبون القصب حتى تشكل أقواسا فردية داخل الأرض قبل أن يحاولوا ربطها سوية على شكل حزمة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۴

فإذا طفح الماء على أرضية الدار، لكونها قد غاصت، أو لأن مستوى الماء قد ارتفع، فما على صاحب الدار إلّا أن يضع مقدارا من القصب المقطوع حديثا على الأرضية. و تسمى مثل هذه الأرض (كباشه).

و للحصول على أرض تدوم طويلا يغطى المعدان الأسس بالطين المستخرج من تحت المياه. و يقومون بهذا العمل عندما يكون الماء فى أوطأ حده، فى فصل الخريف، ثم يستخرجون الطين من المكان الذى لا يكون عميقا جدا. و يغطون الطين بطبقات كثيرة من الأسل. و بعد هذه العملية تصبح (الكباشه) (دبنا). و إذا لم تشغل الأسرة (الدبن) لأكثر من سنة واحدة فإنها تصادر و بإمكان كل فرد استخدامها.

و تشكّل هذه الطبقات المتعاقبة من القصب و الطين بمرور السنين جزيرة مثل تلك الجزيرة التى نرى فيها بيت صحين شامخا.

و عند عودتنا إلى قرية قباب، طار عدد من البط البرى من بين صفوف القصب القريبة منا. و من سوء الحظ، ما كنت أتوقع أن أصيد إذ كانت بندقيتى فارغة من العتاد. و يظهر أن صدام قد أصيب بخيبة أمل. و لهذا السبب طلبت بأن أقوم بالبحث عن البط عندما وصلنا إلى مكاننا الذى نقصده فى ذلك المساء، فقال صدام: «زين! راح أدز عجرم وياك. هو يعرف وين يروح .... دير بالك من الإنكليزى حتى لا يقلب الزورق الصغير!» ثم صاح عندما بدأنا بالجذف و أخذ يبتعد عنه «هو ما متعود على ركوبها».

هكذا علّق، و أرى أنه لا لزوم لمثل هذا التعليق طالما تبين لعجرم قلة مهارتى، و صادفنا أثناء سيرنا عددا من المشاحيف و هى عائدة إلى القرية و محملة بالحشيش: «وين رايحين يا عجرم؟».

«رايحين نصطاد البط».

«جرّبوا حافة البحيرة. تكون البط فيها بكثرة».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۵

و بعد فترة قال عجرم: «هل بندقيتك جاهزة؟ هذا هو المكان اللى نقصده».

و فى الحقيقة وجدنا عددا كبيرا من البط فى المداخل المخيفة و كلها بط وحشى للغاية. سرنا بمحاذاة حافة القصب ببطء كبير، و

حالفنا الحظ، و عثرنا على مجموعة من البط البرى. أطلقت النار فسقطت بطتان فوق الماء ثم أطلقت الطلقة الثانية فلم أصب شيئا.

بدأ عجرم يجذف باتجاه مكان سقوط البطتين حتى يلتقطهما من الماء. فقال:

«دير بالك هناك عدد من البط جايات علينا».

و بعد أن هاج البط من صوت الإطلاقات و طار، أخذ عدد منه يحوم فوق رؤوسنا على شكل دائرة فأطلقت النار على إحداها فسقطت على مسافة بعيدة فى داخل القصب. و ما كان من عجرم إلّا و نزع ملابسه و ألقى بنفسه فى الماء ثم اندفع بين القصب يبحث عن البطة. و لم أندهش حينما عاد و هو خالى الوفاض، و كان يخوض فى الماء الذى يصل عمقه إلى حد الصدر حينما عاد إلى المشحوف و بدأ يتسلق على ظهره. و لو جرّبت أنا مثل هذا التسلق لا نقلب المشحوف بالتأكيد و لكنه قد اعتاد على مثل هذا العمل فلم ينقلب المشحوف بل إنما بالكاد أراه يهتز. ثم ارتدى ثيابه و التقط المجذاف و بدأ يجذف متجها صوب مجرى ماء آخر. وفاتنى أن أذكر بأننى رأيت جلد جسمه حينما نزع ثيابه أبيض لم تلفحه الشمس كبياض جسمى تقريبا.

صدنا بطتين آخريين قبل عودتنا إلى قرية قباب حيث وجدنا مجموعة صغيرة من الرجال و النساء بانتظارنا خارج المضيف. فشاهدت فتاة ذات بشرة سوداء تحمل على ذراعيها طفلا غطته بشالها و قال لى صدام:

«هذه الطفلة المسكينة احترقت و أصيبت بحروق. يريدون دواء منك.

هل تكدر تساعدهم؟».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۶

كشفت المرأة الغطاء عن الطفل و وضعته أمامى، رأيته طفلا لا يتجاوز عمره سنة واحدة. وجدت صدره و بطنه و ساقه الأيسر و ذراعه مغطاة بطبقة من روث الجاموس.

«متى حدث هذا الشيء؟».

«هسه. قبل شويه» قالت الفتاة «كنت أطبخ أسوى العشاء و كان الماء على النار. أنداريت شوية و الطفل جر القدر و انچب الماء الحار عليه.

صاحب، هذا ابننا الوحيد. اللّه يحفظك، صاحب. أنقذه. صاحب أنقذه.

أنقذه اللّه يحفظك».

و أخبرنى صدام بأن هذه الفتاة قد تزوجت قبل سنة. فرقّ قلبى على حالها لذلك ذهبت و جلبت صندوق الأدوية من المضيف و بدأت أعالج الطفل فى العراء حتى أرى الجرح بشكل أفضل.

طلبت من أم الطفل أن تجلس على الأرض و تمسكه. رأيته يئن بصوت خافت. فبدأت أمسح الجرح بعناية فائقة جدا بقدر المستطاع و هو يرفس برجليه و يصرخ بصوت عال. و الأب الشاب كان جالسا القرفصاء بجانبى و ماسكا أقدام طفله. كانت حروقه شديدة للغاية، إذ كان الجلد ينسلخ من بعض الأماكن كما وجدت ثبورا كثيرة فى أماكن أخرى.

بدأت أرش الدواء على كل أجزاء الجرح ثم قلت لهما:

«لا- تضعوا أى ثوب على هذه الجروح إلى أن تجف تماما ثم غطوا الجرح بهذا الشاش الطبى». ناولتهم قطعة كبيرة من الشاش و أعطيتهم حبوب أسبيرين قائلا لهما بأن يذوباها بالماء و يسقيا الطفل منها.

ركبوا مشحوفهم و عادوا إلى بيتهم. ثم طلب منى آخرون بأن أعطيهم الدواء. و رأيت أحدهم مصابا بجرح عفن فى قدمه. و رأيت شخصين آخرين و هما يشكوان من الصداع و الآخر يشكو من البواسير. كما طلب منى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۷

البقال الذى كنت قد زرته الدواء لمعالجة عينه التى تدمع. و بقيت على هذه الحالة إلى أن ذهب آخر فرد منهم و حل الظلام تقريبا.

وجدت لحم البط حينما تعشينا لذيذا جدا. و بعد الانتهاء من تناول العشاء بدأنا نلعب لعبة (المحيبس) إذ انقسمنا إلى مجموعتين، كل مجموعة مؤلفة من خمسة أشخاص.

جلست المجموعة التى معها المحبس فى صف واحد و أيديهم تحت العباءة حتى يخفوا هذا المحبس بيد أحدهم، ثم ينهض واحد من المجموعة الثانية و يحاول أن يعثر على الشخص الذى يحمل المحبس و عليه أن يعرف فى أية يد هو. فتراه يروح و يغدو على عجل و يمر من أمام كل فرد منهم و هو يصيح بصوت عال «أشوف المحبس بيد فلان بن فلان.

أشوف المحبس بيد فلان بن فلان». و يستمر على هذا المنوال و هو يصيح «أنت فلان إفتح إيد اليمين. أنت فلان إفتح إيد اليسار. أنت فلان ذب المحبس فى يد اليسار». فإن عثر عليها، تبدأ الجماعة الأخرى بإخفاء المحبس و إلّا تحسب لهم نقطة.

و بما أننى لا أفهم إلا الشيء القليل مما يقولونه لذلك وجدت هذه اللعبة مملة تماما، غير أن الآخرين يستمتعون بها جدا.

و كنت ألعب لعبة المحيبس فى مناسبات كثيرة و فى قرى كثيرة و تنتهى اللعبة تقريبا مثلما تنتهى عندنا حينما نلعب بتراشق التهم و فقدان الصبر.

و أخيرا صرفهم صدام قائلا لهم- و هو محق فى قوله- هذا الشخص الإنكليزى تعبان و يريد أن ينام. روحوا إلى بيوتكم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۰۹

۸- عبور الأهوار الوسطية

فى اليوم التالى، بدأنا أنا و صدام بعبور الأهوار، كما وعدنى، قاصدين نهر الفرات. الوقت لا يزال مبكرا، فأمضينا ساعة و الشمس لم ترتفع كثيرا. رأينا صفا من المشاحيف التى يقودها الرجال الذين يتركون لجلب الحشيش، و رأيناهم قد وضعوا رماح صيد السمك مطروحة فى مقدمة المشاحيف.

كنت أنا و صدام فى مشحوف واحد، و صحين فى مشحوف آخر.

و فى كل مشحوف ثلاثة جذافين. كلهم مسلحون بالبنادق. لأنهم لا يتنقلون مشاحيف من قرية العكار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۰

حياكة الحصران

فى الأهوار إلا و معهم السلاح، يحملونه بشغف و خاصة حينما يمرون من بين أراضى عشيرة أخرى.

و لما وصلنا إلى نهر الفرات تركونى وحيدا و عادوا من حيث أتوا.

و لم أجد أحدا يعتنى بى و بأشيائى كما لم أجد أحدا يقدمنى للآخرين للتعريف و ذلك حينما أصل إلى قرية جديدة. و كنت قد حاولت إقناع عجرم بأن يأتى معى و يرافقنى كزميل، و وعدته بأننا سنعود إلى قرية قباب بعد ستة أسابيع تقريبا. لكنه رفض دعوتى، و قال لى صدام «يخاف يجى وياك.

محمد يجى وياك هسه .... المعدان هم جهلة و يعيشون هنا فى الأهوار مثل ما تعيش جواميسهم. يخافون من الحكومة. صادفت شخص إنكليزى و عرفت أنهم أناس طيبون. لكن المعدان هم قوم شكوكين من كل الغرباء، لعل السبب يعتقد عجرم أنك ستأخذه و تجنده فى الجيش».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۱

ما كنت أتوقع أن أجد أية صعوبة فى العثور على رفيق و بدأت أشعر الآن بخيبة الأمل. رأيت بجانبى صبيا يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، يجذف المشحوف فقال لى: «خذنى وياك صاحب. أعطنى النقود و خذنى وياك. إذا جيت وياك ما راح أتعّب نفسى بحصد الحشيش طول النهار داخل مثل هل الماى البارد».

و صاح آخر قائلا: «لا. لا تأخذه معك. هذا شخص ما به فائدة، كسلان، خذنى أنا وياك».

و قال صبى آخر قدّرت عمره بثلاثة عشر سنة، يجذف فى الجانب الآخر، أفطس الأنف، فمه واسع، عيونه ضاحكة و جسمه هزيل: «إثنينكم ما تنفعون شيء و ما بيكم خير. خذنى أنا معك. أقدر أغنى و أقدر أرقص.

راح أسلّيك».

حصيرة من القصب محاكة من شرائح من سيقان القصب

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۲

مقدم الزورق

ثم التفت صدام نحوى و قال: «تره كلهم يمزحون» ثم وجه كلامه إلى الصغير و قال «داوم يا حلو و غنى».

«ما أعرف أشلون أغنى يا صدام».

«داوم غنى يا حلو، أطربنا حتى نصل إلى منابت القصب».

و صاح صحين أيضا من مشحوفه قائلا «غنى يا حلو».

و قال صدام بأن لهذا الصبى صوتا عذبا و حلوا. «إسم على مسمى تماما».

ابتسم الصبى بوجهنا ابتسامه عريضة وراقه هذا المديح ثم بدأ يغنى بصوت عال «العرب كالوا لى عنك أنك من الأول ظالم». كان صوته رخيما جدا و ذا إيقاع جيد و نغمة حزينة. و شرح لى صدام هذه الأغنية و قال بسرعة أيضا أظن بأن هذه الأبيات إنما نظمت

حول شيء لم يقطن وراء نهر دجلة. نظمتها زوجته لأنه عاملها معاملة قاسية ثم طلقها. و أحسب أنه كان يظن من أنني أفترض بأن الأغنية تعنيه هو- و هي بالفعل موجهة إليه.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۳

و يدوم مثل هذا الغناء في الأهوار و يبقى شائعا طوال ستة أشهر أو طوال سنة بأكملها. ثم يغنون أغنية أخرى بعدما يملون سماع الأغنية الأولى. و تسمع بنفس الوقت أغاني كثيرة رائجة في ذلك الوقت. و ربما هذا هو الشيء المفضل لديهم و السهل.

سمعت هذه الأغنية طوال السنتين التاليتين في كل مكان. في حفلات الأعراس، في أمسيات الرقص المرتجلة مثلما أسمعها الآن و هم يغنونها و هم سائرون نحو منابت القصب.

«داوم يا حلو. غنى أغنية أخرى». و يغنى حلو أغنية أخرى استجابة لطلبهم. لم نكن لوحدنا في هذا المكان بل إنما كان هناك عدد من المشاحيف تنتظر حتى نلحق بها. فرأيت ما بين (۱۲- ۱۵) مشحوفا يمر الواحد بعد الآخر و هم يدفعوها بجانبنا في هذا الطريق المائي.

رأيت صبيّين يجذفان في مؤخرة المشحوف أولا ثم لا حظت بعدئذ من أن المعدان يفعلون هذا الشيء حينما يكونون بمفردهم في المشحوف.

و كلما توقف حلو عن الغناء تعلو الأصوات من كل مكان صائحة «داوم يا حلو، غنى بعد».

الخروج إلى جمع العلف صباحا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۴

و رأيت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها الأربع عشرة سنة و هي جالسة بمفردها في أحد المشاحيف، واضعة عباءتها السوداء على رأسها و على أكتافها. و لما دفع أحد الصبيان مقدمة مشحوفها بعيدا عنه بيديه موجها المشحوف نحو القصب، التفتت إليه بغضب و صاحت بوجهه و عنّفته. و لم أستطع سماع ما كانت تقوله غير أنني لا حظت الآخرين يضحكون و يحثون الفتاة بأن لا تتوقف بدون لزوم.

و في مشحوف آخر، كانت فتاة أخرى صغيرة تجذف مع أخيها في مشحوف صغير، تجلس بجانبه كما يجب أن تقوم به النساء على الدوام، فسألت عما إذا كانت النساء تساعد في قطع الحشيش. فأجابني صدام قائلا: «نعم، فقط لما تكون الأسرة في عوز للأيدي العاملة».

العودة عند المساء مع جلب العلف إلى الجواميس

و أخيرا، اتجهت المشاحيف الواحدة وراء الأخرى إلى داخل القصب، و نادى حلو و هو يمزح حينما غادرنا قائلا: «ما تريد أجي وياك يا صاحب؟».

تمتد أمامنا مياه شاسعة، مقدارها ميلان تقريبا، و رأيت سطح الماء يتحرك بفعل نسيم الصباح، و هو بلون قاتم إلا أنه يلمع و يبدو أزرق اللون.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۵

قال لي صدام بأن المعدان يسمون هذا (دما). و يطلقون على كل قطعة مكشوفة من المياه اسما خاصا بها حتى و إن لم تكن أكبر من بركة كما يطلقون على كل مجرى ماء أو على كل قطعة من منابت القصب اسما خاصا أيضا. و لكن، معلوماتهم و معرفتهم محدودة بالنسبة إلى ما يجاور بيوتهم.

ثم سأل صدام قائلا «حول البحيرة أو عبر البحيرة؟» فأجاب صحين بعد مراقبة البحيرة و السماء لفترة و جيزة ثم قال «عبر البحيرة. راح نسير مع الريح. و كل شيء على ما يرام». و الآن رأيت ثلاثة نسور تحوم فوق رؤوسنا في السماء الصافية. و رأيت عددا كبيرا من البط و هو يطير حولنا على مسافة بعيدة، في الطرف البعيد من البحيرة، بعضها كان يحوم دائريا و على ارتفاع شاهق، فميزت الطيور التي اقتربت منا و عرفت أنها بط نهري صغير و كبير، لونه أزرق مائل إلى الخضرة، يغوص حينا في الماء و أحيانا في تشكيل متقارب فوق رؤوس أغصان القصب، و رأيت باطن أجنحتها بيضاء حينما استدارت كلها بحركة واحدة، فعجبت من الذي هيجها و نغّص عليها حياتها.

عائلة من المعدان في طريقها إلى السوق

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۶

خروج المعدان لصيد السمك بالرماح

رأيت مشحوفين على بعد قريبين من القصب. و سألت عما إذا كانا يطلقان النار على تلك الطيور أم لا. فأجابني صحين بعد أن نظر

نظرة خاطفة نحوهما و قال «لا، هذوله يسممون السمك، هذوله من قرية القبور، القرية اللى راح نأكل فيها طعام الغداء. أجذف بقوة نريد نعبر قبل ما يشتد الريح». كنا فى منتصف المسافة حينما نادى قائلا «هيئوا بنادقكم صاحب».

ثم أشار إلى يسارنا فرأيت مجموعة كبيرة من الطيور المائية و هى متقاربة من بعضها البعض.

و بينما أنا أراقب إذا بنسر يطير فوقها بانخفاض ثم ينقضّ عليها.

و لكن هذه الطيور المائية طردته. و ذلك بضرب أجنحتها على سطح الماء فتطاير الرذاذ من الأمواج المتكسرة. ثم بدأت الريح تزداد قوة. و لما استدرنا نحو هذه الطيور المائية، بدأ الماء يطفح من على جوانب المشحوف. و أما النسر فإنه انقضّ مرتين أو ثلاثا قبل أن نصل إلى مدى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۷

رمى هذه الطيور بحيث لم تعر أية أهمية لقدومنا حتى بعدما أصبحنا على بعد (۴۰) ياردا منها.

أطلقت النار من كلتا السبطانتين مرة واحدة فتفرقت هذه الطيور ثم طارت باتجاه الريح تاركة وراءها خطأ من الأجساد السوداء طافية فوق سطح الماء.

و بينما كنا نلتقط الطيور المقتولة كان الآخرون يصطادون الطيور المشلولة عن الحركة و التى كانت تغطس فى الماء حينما كان المشحوف يقترب منها.

كان صحين الذى يجلس فى مقدمة المشحوف يجمع هذه الطيور المشلولة عن الحركة الواحدة بعد الأخرى بواسطة رمح صيد السمك.

فيمسك الطير حالما يطفو على سطح الماء حينما يكون قريبا منه و يرمى الرمح على مثل تلك الطيور البعيدة عنه.

و عندما يلتقط الطير يقوم أحد الرجال بحز عنقه و هو متجه نحو القبلة و يقول: «بسم اللّه و اللّه أكبر». و بذكر هذا الاسم عند الذبح يصبح أكله حلالا من الناحية الشرعية من قبل المسلمين و بخلاف ذلك يعتبر، حتى عند المعدان أنفسهم، جيفة و لا يصح أكله فيرمونه. و من الناحية الشرعية، يجب أن تكون الطيور كلها حيّة حينما يحزون عنقها حتى تنزف منها الدماء. و لكن رأيتهم لا يدققون كفاية فى مثل هذه الأمور.

سأل أحدهم و هو يصيد الطير و رأسه غاطس داخل الماء لمدة عشر دقائق.

«هذا ميت لولا؟».

«لا. بالطبع موش ميت. داوم. أسرع و أقطع رقبته».

فالميتة و الدم و لحم الخنزير كلها محرمة لدى جميع المسلمين، كما

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۱۸

أن هناك محرمات كثيرة تختلف من مكان لآخر و من عشيرة إلى أخرى.

فمثلا. لا يأكل بعض المسلمين الطيور التى لها أقدام على شكل شبكة.

و فى العراق لا يأكل الشيعة الأرانب البرية بينما يأكلها السنّة. و يأكل المعدان الغاق و الزقّة (نوع من الطيور المائية) و لكن لا يأكلون البجع و أبو منجل و مالك الحزين و الكركى و لكن ليس اللقلق، و يأكلون الغطاس إلا الصغير منه، و لا يأكلون أيضا سمك السلّور.

و عندما جمعنا جميع الطيور المائية التى اصطدناها، إلتفت صدام إلى الجذافين و قال لهم بأن يسرعوا لأن فى مشحوفنا ماء و شخصين و صناديق.

شكرت اللّه عندما وصلنا إلى ملجأ فى منابت القصب.

التحق بنا فى هذا المكان صحين و هو على مشحوفه ثم بدأنا نعدّ ما صدناه. وجدت عندنا (۱۸) طيرا. فقال صدام بعد إن إقتنع و رضى عن هذا الصيد: «راح يكون غدانا دسم هل المرة».

وصلنا قرية القبور بعد فترة من الزمن، وجدنا الضباب الرمادى اللون ينتشر فى السماء، و سمعنا صفير الرياح بين القصب ثم انقلب الجو إلى بارد مزعج.

و هذه القرية تشبه قرية قباب. و هى بنفس الحجم تقريبا. فذهبنا إلى أحد البيوت الكبيرة.

كان مدخل البيت ضيقا، فى قمة منحدرة، أسود اللون، ملوثا بالشحم، يعلو مقدار خمسة أقدام. أما فى الداخل، فوجدنا صبيين يتدفّئان حول موقد صغير. فقال صدام لهما: «أبوكم موجود فى البيت؟».

أجاب الأكبر «نعم. بس هسه راح إلى الدكان». ثم إلتفت نحو أخيه و قال له «اركض بسرعة و قل لعلوان بأنه عندنا ضيوف».

و فی هـذا الوقت، کنت أشـعر بالبرد الشدیـد علی الرغم من أننی کنت أرتـدی السترة و القمیص و البلوز و بنطلون فانیلة رمادیة اللون فجلست بجانب

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۱۹

النار و أحسست بشیء من السرور.

و إبن علوان هذا صبی، طویل القامة، نحیف الجسم، عمره ستّ عشرة سنة، یرتدی دشداشة قطنیة مهلهلة فقط.

ذهب إلی الطرف الآـخر من البیت و جلب معه بعض الفرش و المخـدات التی نـاولته إیّاهـا إحـدی الفتیـات. و قال صـدام لی: «خلّینی أجیب أمتعتک».

«لا، راح نروح إلی أبو شجر بعد الأکل».

«هذا غیر ممکن، إبق هنا هذه اللیلة، الجو مو زین ما یصلح للسفر.

و علی کل حال، فات وقت طویل من یوم اللی شرفتنا».

بعث صدام أحد رجاله فجلب (۱۲) طیرا من التی اصطدناها و ناولها إلی الصبی حتی یعدّ الغداء منها.

کان علوان نفسه رجلا متوسط العمر و من الأصـدقاء، وصل بعـد فترة وجیزة جـدا و ألحّ أیضا بأن نأتی بأمتعتنا و نمضـی اللیل هنا، غیر أن صدام أصرّ بضرورة مواصلة السفر، و سأل «المعدان بعدهم ساکنین فی أبو شجر؟».

«نعم» أجاب علوان. «الفیضان تأخر هذه السنة و لم یرحلوا بعد».

ثم أتی بمستلزمات الشای و هو یقول «اصطدتم کثیرا من الطیور».

و عندما أخبره صـحین عن النسر قال: «أحد النسور سوّت عش من القصب هل السنة. کان یهاجم کل شخص یروح و یجی فی مجری الماء.

الفتیان یروحون هناک لقطع الحشیش، شعلوا فد یوم النار فی القصب و احترق العش. و لعل السبب أن النسر کان یحوم هناک».

و أثناء حدیثه کان یعبث بأصابعه بمسبحة طویلة فیها (۹۹) حبة، صغیرة، لونها أسود.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۲۰

یسبّح بهذه المسبحة حینما یؤدی الطقوس الدینیة، بینما کانت مسبحة صدام من نوع الکهرمان، فیها (۳۳) حبة، یستعملها للتسلیة، یعبث بأصابعه بحباتها لتمضیة الوقت.

یحمل معظم الناس مثل هذه المسابح فی جیوبهم ثم یخرجونها حینما یجلسون للراحة و یعبثون بحباتها للتسلیة.

و لما رآنی صـدام أنظر إلی المسابـح ألقی مسبحته إلیّ حتی أجرّب مثلهم. و لما أردت أن أعیدها له قال: «لا. إحتفظ بها. فهی لک. عندی الکثیر منها فی قریة قباب». و اعتدت علی استعمال المسبحة منذ ذلک الوقت.

و فی هـذه الأثناء جیء بالغداء فأکلنا (۹) طیور و أعتقـد أن لحمها لذیـذ. طعمه کلحم الأوز، و لکن، ربما شـعرت بذلک لأننی کنت أشعر بالبرد و الجوع.

کان صدام و صـحین یناولانی دائما قطعا من اللحم علی الرغم من اعتراضـی و عدم قبولی. أما الأرز فقد صبّوا فوقه المرق حتی تشبّع ثم أضافوا شیئا من الزبدة علیه أیضا و بدأنا نأکل.

وجدتهم یأکلون الطعام بأیدیهم و قد اعتادوا علی ذلک. أما أنا فوجدت من الصعب تناول طعامی بأصابعی. و لما انتهینا وجب تنظیف الأـرز المنتشـر علی المائـدة، فبـدأ علوان یجمع الأـرز المتبقی مع عظـام الطیور فی صـحن واحـد ثم یضـعها أمام أولاده بعـد أن جلب أحدهم قطعة من الزبدة و وضعها فوق الأرز.

بـدأنا بشـرب الشای، و لما اکتفینا توجهنا نحو مشاحیفنا بعـد أن ودعنا علوان و لم نشـکره علی وجبـة الطعام التی قـدمها لنا، و ربما لا یفعلون مثـل هـذا الشـیء. انطلقنا فی سـیرنا علی طول ممر طویل یمکن تمییزه من خلال تمایل أغصان القصب بسـبب هبوب الریـح و کانت عناقید رؤوس القصب

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۲۱

الباهتة اللون تموج کالعلم فی یوم ذات ریح عاصف و سماء غائمة.

غنی أحد أتباع صدام العاملین فی المشحوف بتشجیع منه أغنیة ریفیة.

کان صوته قویا و أجشا و کانت أوتار حنجرته تبرز و وجهه یحتقن.

کانت الأغنیـة ذات مقطع طویل بحیث تبعث علی السأم و الملل و لیس لها وزن. و لکی أقـدّر هـذه الأغنیة مثلما یقدرها الآخرون علیّ

أن أفهم معنى كلمات الأغنية. غير أننى وجدتها فوق طاقتى. و بعد مضى ساعة و نصف من الوقت وصلنا إلى قرية أبو شجر. وجدت القرية عبارة عن جزيرة ذات تربة سوداء و جرداء، تمتد على مسافة (۳۰۰) ياردا، و ارتفاع أعلى نقطة فيها عن سطح الماء هو بمقدار (۱۰) أقدام. و ساحلها محاط بمنابت القصب. فيها (۳۰- ۴۰) بيتا، متقاربة من بعضها البعض بشكل غير منتظم و على امتداد حافة المياه.

تقف الجواميس أينما تجد لها فسحة مناسبة. و البيوت محاطة بسواقى متعاقبة حتى تمنع الجواميس من حك أجسامها على جدران البيت، و الأهالى هنا هم شغانباShaghanba . و توصلنا إلى تحديد البيت الذى يبدو أكثر ثراء حتى نقترب منه. و لما اقتربنا منه خرج رجل و صبى و رحّبا بنا ثم ساعدانا على نقل أمتعتى إلى الساحل لأن رفيقىّ لم يجلبا معهما أى شىء سوى البندقية. و أدخلنا معنا أيضا المرادى و المجاذيف، لأنه إذا ما تركت، تبقى عرضة للسرقة من قبل المارين من هناك.

و المرادى هى عبارة عن سيقان القصب، لكنها من النوع الجيد و لا يمكن العثور على هذا النوع بسهولة.

أما المجاذيف فهى معمولة من ألواح خشبية على شكل مجرفة، تثبت بمسامير حتى يبلغ طولها بقدر طول الخزيران، و من النادر إمكان استبدالها محليا.

و كالعادة، تقاطر الرجال إلى هذا البيت فازدحم بهم. و بدأ مضيفنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۲

يوجه بعض الأسئلة و الآخرون جالسون لا ينبسون ببنت شفة، لكنهم كانوا يراقبوننى بحذر و عيونهم مركزة نحوى. فعرفت أنهم قد أوجسوا منى خيفة، لأنهم كانوا يكثرون السؤال فيقولون: «منو هل الشخص؟ و منين جاى؟.

لوين جاى عندنا، لويش جابه صدام إلى قريتنا؟». و إننى على يقين من أن القوم كانوا يتحدثون عنى كثيرا حينما أخذنى صدام و مضيّفى فى الوقت المناسب لأتجول حول الجزيرة.

عشيرة آل عيسى تحتفل بمناسبة عيد الفطر

وجدت التربة مليئة بالأملاح لذلك لا ينبت أى شىء فيها. لم أجد أية صخرة أو حجارة و فعلا لم أجد أى شىء من هذا القبيل فى الأهوار.

تبدّى لى أن قرية «أبو شجر» كانت موقعا لمدينة ماضية عفا عليها الدهر و بنيت تخمينى على وجود الطابوق و قطع الفخار المتواجدة على الأرض. و قال صدام:

«يكولون، أكو ذهب مدفون بهل الجزيرة، المعدان يفتشون عنها.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۳

باوع شوف وين حفروا؟» و أشار بيده إلى عدد صغير من الحفر الضحلة ثم أضاف قائلا «بس ماكو أى شىء». قاطعه مضيفنا فقال: «فى السنة الماضية، كانت عائلة من الشغانبا تحفر عددا من الحفر لبناء بيتها فى قرية العكار و عثروا على جرتين مملوءتين بعملة معدنية».

و سألت عن مكان قرية العكار فقال لى:

«هناك إلى الغرب. و هى جزيرة مثل جزيرتنا هذه. يسكن فيها كثير من الشغانبا».

«ماذا فعلتم بالعملة المعدنية؟».

«لا أدرى. أظن أنهم أخفوها حتى لا يأخذها الشيوخ منهم».

ثم تكلم صدام و قال: «قبل عدة سنوات، عندما كنت أبنى مضيفى فى قباب عثرنا على تمثال حجرى- هيكل امرأة. يمكنك ترى ثدييها، و كان التمثال بهذا الطول» و أشار بيديه مباعدا الواحدة عن الأخرى مقدار (۹) عقدة.

«هل التمثال لا يزال عندك؟».

«لا، أخذه الشيخ مجيد».

و أما أنا فلم أحاول طوال مدة بقائى فى الأهوار، إن أبدا بجمع أشياء تخص الفن المعمارى و لكن أعطونى فى إحدى المرات ختما يعود إلى عهد الحيثيين، و فى مرة أخرى، أعطونى جزءا من قطعة كبيرة نوعا ما من الرصاص مغطاة بخدوش بحيث تبيّن أنها شخوص فينيقية. و قال لى الشخص الذى أعطانى إيّاها، إنها كانت جزءا من بكرة كبيرة أذابوها حتى يصفوا منها رصاص البندقية.

و فى مناسبة ثالثة، أخذونى فى غاية السريّة إلى أحد الدور و أرونى تمثالا صغيرا على شكل قلب، و فى أسفلها العبارة التالية «مصنوع فى اليابان».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۴

بدأت الشمس تميل نحو المغيب، و أخذت حدة الرياح تهدأ، و أصبح منظر القصب اللامتناهى منظرا يقبض النفس فى ذلك الضياء الرمادى اللون. و ظهرت فى أماكن عديدة شمال المكان و شرقه سحب كثيفة من الدخان حيث أشعل المعدان القصب حتى يؤمنوا لهم مراعى جديدة ينمو فيها القصب لترعى فيها جواميسهم.

«هل سمعت فى يوم ما عن الحفيض؟» سألنى مضيفى.

«نعم، و لكن زدنى بما عندك عنها».

ثم إتجه نحو الجنوب الغربى و قال «حفيض هى جزيرة تقع فى مكان ما هناك. فيها قصور مشيدة، و أشجار نخيل و بستان رمان. و الجواميس هى أكبر من جواميسنا، و لكن لا يعرف أحد أين هى بالضبط».

«ما شافها أحد من الناس؟».

«شافوها، لكن، كل من يشوف حفيض يصاب بسحر و تصبح أقواله غير مفهومة عند الناس. و العباس، أقسم أنه صحيح. واحد من عشيرة الفرطوس شافها قبل سنوات لمّا كنت طفلا. كان يبحث عن جاموس مفقود، و لما عاد إلينا كان كلامه كلّه غير مترابط و عرفنا عند ذاك من أنه شاف حفيض».

فقال صدام: «صيهود، الشيخ العظيم من عشيرة البو محمد بحث عن حفيض و معه أسطول من المشاحيف و ذلك فى العهد التركى، لكنه، لم يعثر على شىء. و يقولون بأن الجن تتمكن من إخفاء الجزيرة عن أنظار كل شخص يقترب منها».

أبديت بعض التعليقات، و أظهرت فيها شكوكى، غير أن صدام قال و هو يؤكد ما يقول «لا، صاحب. حفيض موجود تماما. سل كل من تريد أن تسأله. سل الشيوخ أو الحكومة، تجد كل فرد يعرف عن الحفيض».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۵

عدنا إلى القرية و نحن نمشى على امتداد حافة المياه فوق أصداف هشة بيضاء مغروسة كأنها زولية يبلغ طول كل واحدة منها مقدار نصف عقدة إلى عقدة واحدة. و نظرت فى بعضها فوجدتها فارغة. و لا أدرى ما إذا كانت تعود إلى عقدة واحدة. و نظرت فى بعضها فوجدتها فارغة. و لا أدرى ما إذا كانت تعود إلى مواقع نهرية، فإن كانت كذلك فإنها تحمل معها فى فصل الصيف ذى الطقس الحار الطفيليات التى تسبب مرض البلهارزيا. و تعيش هذه الديدان المسطحة و الصغيرة جدا فى المياه خلال الطقس الحار. فإذا سنحت لها الفرصة فإنها تخترق جلد البشر و نأخذ طريقها إلى المثانة حيث تتضاعف هناك و تسبب فقدان الدم و ألما شديدا على الغالب.

و بالأخير تخرج البيوض من الجسم عن طريق البول و هى على أتم استعداد لبدء الدورة الجديدة فى الحياة. و البلهارزيا و باء الأهوار، يعانى منها جميع المعدان كنتيجة حتمية لطريقة عيشهم.

شاهدت عددا من الفتيات يذهبن لجلب المياه، يحملن الجرار فوق رؤوسهن. فكنّ يخضن فى الماء و يسرن بضع خطوات قبل أن يملأن جرارهن.

يستعمل المعدان الساحل الأمامى كمرحاض عام. و لا بدّ أن تحتوى كل جرّة على عينات من الجراثم المحلية. و نظريا، يجب أن يصاب كل شخص فى الأهوار بعدوى الديزانطريا و بعدد آخر من الأمراض المستوطنة.

و لكن، فى الحقيقة، اكتسب معظم المعدان شيئا من المناعة. و على أية حال، ربما تقتل الشمس المحرقة عددا من الجراثيم. و أنا شخصيا وجدت أنه ليس بالأمر العملى أخذ الاحتياطات ما عدا تجنب خوض المياه القريبة من القرى فى وقت الصيف.

أكلت من طعامهم، و شربت من المياه نفسها، و كثيرا ما كنت أمكث

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۶

طوال السنة هناك و أصبت مرة بالجيوب الأنفية و مرة أخرى بالديزانطريا الخفيف و شفيت منها بعد أربعة أيام. و بخلاف ذلك، لم أعان من أى مرض ما عدا الصداع.

لا فائدة من أن أقلق نفسى بالأمراض التى قد تصيبنى، و لكن، أحيانا من الصعب جدا أن يشعر المرء بالوساوس حول الطعام و الماء.

و لقد أقلقنى حدثان بصورة خاصة. كلاهما فى وسط فصل الصيف عندما كنت أتنقل على ظهر الحصان بين الفلاحين فى شمال الأهوار.

الحدث الأول: كنت أسلك ساقية ماء ضحلة تمتد مسافة عدة أميال باتجاه القرية التى كنت أقصدها، و كانت الساقية تحتوى على المياه بعمق قدم أو قدمين و هى تجرى بشكل بطىء بالاتجاه الذى أسير فيه. و صادفت خلال مسيرى كلبا ميتا مرميا فى الساقية، و بعد مسير مسافة أخرى وجدت عجل جاموس ميتا. و رأيت الجلد قد انسلخ من الأضلاع، و الروائح تنبعث من كليهما بشكل مزعج جدا،

و المياه تكون قذرة يالقرب من القرية حيث تجد حافة الساقية مليئة بالقاذورات، لأن العرب دائما يتغوطون بالقرب من المياه حتى يستجمروا من بعد قضاء حاجتهم. و كان المضيف يقع على حافة الساقية و المياه هناك تكون دوما راكدة تقريبا و فوقها طبقة من مادة لزجة خضراء. و أعتقد أنهم لا يشربون مثل تلك المياه.

وصلت القرية عند منتصف النهار الفائض، فجيء لى بالماء لأشربه من كوز يقع فى نهاية المضيف فوجدته باردا جدا و حديث العهد، و لما علم الناس بوجودى تقاطروا إلى المضيف. و وجدت بعضهم يحب المخالطة و البعض الآخر يريد الدواء و العلاج.

و بعد الترحيب الاعتيادى، خرجت قاصدا ظل البناء حيث بدأت هناك عملى فحقنت الإبر و وزعت الأدوية.

كان هناك النسيم خفيفا، و لكن الطقس لا يزال حارا لا يحتمل حيث

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۷

ترتفع الحرارة فى الصيف فى هذه السهول إلى (۱۲۰) فهرنهايت فى الظل، و فى هذا الوقت شعرت بالعطش، لذلك، أعطيت القدح إلى أحد الصبية ليجلب لى الماء.

أسرع هذا الطفل إلى الساقية ليملأ القدح منها فصرخت به و نهرته قائلا:

«لا. ليس من هذا المكان. الماء قذر هنا بل من الكوز فى المضيف حيث الماء نقى».

إمتثل الصبى للأمر و جلب لى الماء و نظر إلىّ نظرة استغراب.

و بعدئذ، لا حظت أنهم يملأون الكوز من هذه الساقية. ففكرت و أنا فى غاية الكآبة كيف أننى وافقت على البقاء ليلة أخرى فى هذه القرية.

و الحدث الثانى: كنت أمكث مع أحد الشيوخ و هو من أصدقائى.

و كنت قد وصلت إلى قريته قبل ليلة و حضر جمع حاشد من المرضى فى الصباح الباكر، و كان الجو رطبا، يشعر فيه المرء بالدبق، و الهواء ساكن، و كان العرق يتصبب من وجهى و كل جسمى حتى عندما كنت جالسا من غير عمل.

كان صديقى الشيخ كبير السن و كريما للغاية. ذبح شاة حتى يطعم ضيوفه الذين بلغوا الآن ما يزيد على المئة شخص.

زيما دخل أربعة رجال إلى المضيف و هم يترنحون فى سيرهم.

كان أحدهم عبدا أسود

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۸

اللون، ذا جسم ضخم، و كلهم قد أحنوا ظهورهم من نقل ما يحملونه.

رأيتهم يحملون صينية كبيرة، نحاسية، قطرها أربعة أقدام، عليها كومة من الأرز كالتل و فوقها شاة مسلوقة، يتدلى اللسان منها، و العينان مشبعتان بالماء. و كان العرق يتصبب من أنوفهم و أفواههم فوق الأرز عندما كانوا يحملون الصينية. عرفت أنهم كانوا ينقلون الطعام من مسافة (۱۰۰) يارد أو أكثر و هم على هذه الحالة، و بعد أن سكبوا قدحا من الزبد فوق الأرز إلتفت الشيخ نحونا و قال: «أهلا و سهلا بضيوفى. اليوم يوم بركة».

و لما جلست أمام الصينية قال لى: «الآن يا صاحب. إذا تحبنى كتير لازم تأكل كثير!».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۲۹

۹- فى قلب الأهوار

عدنا إلى بيت مضيّفنا أنا و صدام بعد مغيب الشمس بقليل. وجدنا صحين يؤدى صلاة المغرب. و الشيء الذى لا حظته هو أن الذين يصلّون بانتظام بين المعدان بعض المسنين و يطلق عليهم إسم الزائر. و وجدت عددا قليلا من المعدان مثل صحين من يصلى صلاة الفجر و المغرب غير أن الأكثرية من الرجال لا يصلون مطلقا.

و لا حظت أيضا أنهم يضعون أمامهم حين إقامة الصلاة قطعة مستطيلة الشكل من تربة مقدسة يأتون بها من كربلاء حتى تلامس جباههم عند حصران للتصدير بين عشيرة بنى أسد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۰

السجود. و وجدتهم يحتفظون دوما بمثل هذه التربة فى سلة صغيرة معلقة على الحائط.

بعد أن انتهى صحين من أداء صلاته، أعاد التربة إلى السلة ثم أشعل النار من الروث اليابس و طلب منى أن أقترب منها لأتدفأ.

جلب أحد الصبية فانوسا و هو عبارة عن قنينة نصف ملآنة بالنفط الأبيض و فى داخلها فتيلة، أو قطعة من القماش الممزق، تبرز من

عنق القنينة و مثبتة بواسطة قطعة من التمر.

كنت أسمع و أنا فى مكانى صوت رجلين يتحدثان فيما بينهما فى بيت مجاور و كنت أسمع بوضوح كل كلمة يقولانها لأن الجدار الذى يفصل البيتين قطعة من الحصير و لا تبعد عن جدار البيت الآخر أكثر من قدمين.

وجدت أنّ السرّية معدومة بين هؤلاء القوم فى حياتهم، و لا يتوقعون أبدا السرّية لدى غيرهم. و هم يعتبرون أنّ ما يهمّ أحدهم إنما يهم جميعهم. فإذا كانت العائلة الواحدة تتشاجر فيما بينها، ترى الجيران يهرعون بسرعة و يتدخلون منحازين إلى الطرفين و بعملهم هذا يحولون الضجيج و الصياح إلى ضجيج فعلى.

لا حظت أن الطريقة الوحيدة لإجراء حديث خاص هو الابتعاد بالمشحوف مع الشخص الذى تريد التحدث معه. و حتى فى مثل هذه الحالة، سرعان ما يصبح الحديث معروفا بشكل عام، لأنهم جميعا يتصفون بحب الفضول و لا يتحملون حفظ السر.

و بعد العشاء، بدأ الناس يتوافدون إلى المضيف حتى اكتظت بهم الغرفة و لم يبق أى مجال يتسع للآخرين. و لكن، حتى فى مثل هذه الحالة، يفسح الجالسون فى المجال إذا ما دخل رجال آخرون إلى المضيف فيجدون لهم المكان المناسب بين هذا الحشد الكبير.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۱

دكان فى دلتا نهر الكحلا

ترى الجدران المصنوعة من الحصران ناتئة قليلا و هذا من شأنه أن يفسح فى المجال لجلوس الآخرين. و هنالك فسحة متروكة فقط بالقرب من الموقد.

بدأ مضيفنا بتوزيع السيكاير على الجالسين و وجدته يعطى السيكاره حتى إلى الطفل الصغير بينهما كان صاحبنا الجذاف يغنى و الآخرون يصغون إليه و لكنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم أحيانا. ثم بدأوا بتوزيع الشاى، و بتأجيج النار بصب النفط فوقها و بدأ الدخان يتصاعد إلى عنان المضيف و ينجرف إزاء الحصران فى السقف. كل شىء بدائى و مزعج، لكننى كنت أشعر بالارتياح و الرضا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۲

و بعد أن نهض الجميع ليغادروا المضيف، حشرت نفسى فى الزاوية و كان النعاس يداعب جفونى، لكن الرجال تجمهروا خارج المضيف مروا بإمرأة كانت جالسة بالقرب من جمرة نار آخذة بالخمود و هى ترضع طفلها.

جلب مضيّفنا الفرش من الطرف الآخر من الغرفة ثم قمنا بترتيب الحصران و فرشنا الزوالى الممزقة على الأرض ثم سحبت البطانية من الخرج و اضطجع كل منا فى مكانه لننام و التصق بعضنا ببعض بينما جلس مضيفنا بجانبنا ليحرسنا.

سقطت قطعة صلبة من الطين بجانبى، و حاول البعوض أن يجد له مكانا على وجهى، و دخلت براغيث عديدة داخل قميصى.

نبحت الكلاب، و تحركت الجواميس عن بعد بضع ياردات من رأسى ثم أخذتنى سنة من النوم و لم أستيقظ إلى أن نهض رفاقى وقت الفجر.

سكن الريح خلال الليل و أصبح النهار صافيا و مشمسا فى ذلك الصباح. و بدأت الجواميس تغادر إلى مراعيها دون أن يرعاها أحد.

و إذا قارنا بين المعدان المستوطنين و البدو نجد المعدان لا يخصصون لقطعانهم بل يتركونها لوحدها طليقة، تروح و تغدو حسبما تشاء.

و فى داخل الغرفة، كان صدام و صحين يتجادلان حول طريق السفر.

و ينصبّ جدالهم على وجوب التوجه إلى (زكرى) أو تجنبه. و الحث عليهم بوجوب الذهاب إلى (زكرى) حيث كنت أرغب أن أزورها. فقال صدام:

«لن تحصل على أمنيتك إذا صادفتنا الرياح هناك. هذه البحيرات الكبيرة هى خطرة جدا. ففى العام الماضى، بينما كانت جماعة العرس عائدة إلى قرية القبور، باغتتها الزوبعة عند مكان يسمى الدما. فغرق فى هذا المكان زورقان مع ثمانية أشخاص. و أنا شاهدت الدما. إنها صغيرة لا تشبه زكرى».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۳

و اشترك صحين بالحديث فقال: «نعم. صاحب. هى خطرة جدا.

نحن نسكن هنا و نعرف كل شىء. و قبل أربع سنوات، و فى هذا الوقت من السنة، غرق شخصان أما الثالث فقد زحف نحو جزيرة صغيرة من القصب عائمة. بقى عليها مدة خمسة أيام قبل أن يعثروا عليه. و شاهد مرتين الزوارق و هى تمخر فى عباب الماء، لكنهم ما كانوا يسمعون صوته. كاد يموت من الجوع و من البرد».

رجل من عشيرة البو دارج

و بعد أن تناولنا الفطور، راقبنا مضيفنا و إبنه فرآنا نحمل أمتعتنا إلى المشحوف و لم ينهضا من مكانهما لإبداء المساعدة.

و علقت على هذا العمل فيما بعد لأنني حسبته عملا غير مناسب. غير أن صدام قال بأنّ المضيف يساعد دوما الضيوف و يحمل أمتعتهم و يدخلها إلى البيت و لكن لا يساعدهم عند إخراجها حيث تبدو كأنما نسرّع فى التخلص منه. و قال:

«سنتوجه إلى زكرى طالما تريد أن تراها. و سوف نمضى الليل مع بنى عمير فى الرملة. و لكن إذا ازداد هبوب الرياح شدة فإننا سوف نسلك الطريق الأطول».

و بعد مسيرة ساعتين وصلنا البحيرة بعد أن سرنا على امتداد قنوات صغيرة عديدة غير واضحة المجرى من خلال القصب العالى.

و عندما شاهدت المياه المفتوحة أمامنا و هى تلمع تحت أشعة الشمس

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۴

الوهاجة أثبطت همتى أولا لأن البحيرة بدت لعينى بأنها ليست أكبر من (الدما) و التى عبرناها قبل يوم.

و شاهدت خلف المياه المفتوحة جدارا من القصب. و أدركت و نحن فى منتصف الطريق بأن القصب ينمو فوق عدة جزر صغيرة عائمة و الكثير منها على مسافة غير بعيدة عنا.

و وراء هذه الحافة من الجزر تقع بحيرة زكرى نفسها. و لم أستطع و أنا واقف على لوح المشحوف أن أقدّر بعدها عنّا و لست أدرى هل أنها على بعد ثلاثة أميال أم ستة أميال.

كان النسيم يهب خفيفا جدا و توقف الجذافون عن الجذف، و يبدو أنهم كانوا قلقين. و أما أنا فقد تضايقت لأننى لا أدرك مقدار خدعة ذلك الهدوء.

و بعد أربع سنوات، و حينما كان الفيضان فى أقصى ذروته، صادف أن كنت أعبر مسافة كبيرة من مياه الفيضان عرضها (۱۲) ميلا و عمقها ستة أقدام، تلك المياه التى غطت الصحراء الممتدة على الحافة الغربية من الأهوار.

بدأنا العبور وقت الفجر. كانت البحيرة ساكنة و لا أثر للنسيم. و عند ذاك ركبت الطرادة الخاصة بى. و عندما وصلنا منتصف الطريق عبر العمارة، صاح أحد الجذافين الأربعة فجأة فى صوت دينى: «اللّه! هل تسمع ذلك؟».

أصغيت و سمعت صوت الرياح و هى قادمة نحونا من الشمال عبر المياه التى ما زالت ساكنة.

رأيت أمامى صفا من أشجار النخيل الباسقة، ربما تبعد عنى مقدار ستة أميال. إنها تشير إلى وجود قرية، تلك القرية التى نتجه إليها. أما

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۵

وراءنا فكنا لا نزال نرى منابت القصب.

و فى هذه الأثناء صاح أحد الصبية و هو فى حالة من الهياج:

«أنظروا. هناك قارب شراعى. الحمد للّه!. أسرعوا- صاحب، أطلق النار حتى ينتبهوا».

وجدت مشحوفنا قد غطس إلى النصف حينما وصل القارب إلى جلب حمولة من القصب اليابس إلى البيت

المكان الذى نحن فيه. فحمل الرجال الذين معى صناديقى من المشحوف إلى القارب و ربطنا مشحوفى الفارغ بالقارب حتى نسحبه إلى أن وصلنا القرية فى الوقت المناسب.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۶

شاهدت الأمواج الكبيرة تضرب الساحل و أشجار النخيل قد مالت بسبب الرياح الشديدة.

و الآن، بينما كنت أنظر إلى المياه التى ما زالت ساكنة فى بحيرة زكرى، ألححت على الآخرين بعبور هذه البحيرة. و قال أخيرا صدام:

«زين. لكن راح أنروح من حول الحافة. نكدر ندخل داخل القصب إذا بدأت الرياح بالهبوب و لو راح يصير الطريق بعيد لكن أسلم لنا».

كنت أظن بأن زكرى هى مثل (دما) لها جوانب محدودة تماما من منابت القصب القائمة. و لكن لما جذفنا من إحدى المجموعات من الجزر العائمة إلى الأخرى أدركت بأن ما كان يبدو لنا بأنه حدود إنما هو فى الحقيقة سلسلة أخرى من الجزر تخفى وراءها مياها كثيرة متصلة بجزر أخرى كثيرة.

المياه هى بعمق (۸- ۱۰) أقدام، صافية تماما، تغطى قصرها نباتات مطاطية زاهية فتجعلها تظهر داكنة مثل أعشاب البحر و تتمايل باتجاه التيار.

هذه هى حورية الماء و التى يسميها المعدان ب (سويكة)، و يقولون بأن مثل هذه الطبقات هى الأماكن المفضلة لتفقيس بيوض

السمک.

رأينا مقدار (۲۰) طيرا من طيور البجع، بيضاء، زاهية، نظيفة تحت أشعة الشمس و هی تبتعد عنّا عمدا، و تدير مناقيرها الكبيرة الصفراء عندما كانت تراقبنا. و طلب منی صدام بأن أصيد إحداها طالما يستعمل المعدان جرابها كجلد لطبولهم. غير أننی وجدتها كأنها ساخطة علينا و هذا أمر مثير للضحک لذلک رأيت أن نصرف النظر عنها. و قلت له بأن البط سيخاف من الطلقة لأننی لا حظت عددا منها قابعا فی الظلام فوق سطح الماء فی الخلف.

و فی هذه الأثناء طار مالک الحزين و أحدث ضجيجا بين القصب البعيد و أخذ يرفرف بأجنحته على شكل ضربات بطيئة ثقيلة و هو يجر ساقيه الطيولتين خلفه.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۷

فقال أحدهم: «لو كنت قد أطلقت النار على ذلک لكنا نأكله جميعنا. له لحم كثير كالشاة و طعمه جيد أيضا».

كانت النسور تحوم فوقنا و هی لا تحرک أجنحتها. و فی الأهوار تجد دائما النسور، تحوم فی السماء كما تحوم النسور فی أفريقيا.

و فی الطرف البعيد من بحيرة زكرى، و فی خليج صغير، وصلنا مكانا وجدنا فيه ثلاثة مشاحيف يجذف كل واحد منه صبی و بالقرب منهم رأينا بوضوح سربا من السمک الميت يطفو فوق سطح الماء. و اقترح أحد رجال صحين أن نلتقطها، غير أن صحين أجابهم بغضب «لا تصيرون أغبياء، ما نعرف هذوله الناس. ما نريد أنزعلهم. خلّی نسألهم. و أنا متأكد راح يعطونا عدد من السمک». فأخبرنا هؤلاء الصبية بأنهم من المرملة و هی واقعة على نهر الفرات و قريبة منّا و أعطونا ست سمكات، تزن الواحدة منها ابنة شيخ البو محمد رطلين. و يسمّون هذه الأسماک (بنّی)، لونها ذهبی و لا تشبه الأسماک الأخرى هنا و ليس لها مجسّات. و المعدان يسممون السمک فی فصل الشتاء و تظهر فی المياه قبل دخولها إلى الأهوار و ذلک فی فصل الربيع. و هم يستعملون نبات الداثورا و التی يشترونها من الحوانيت المحلية ثم يخلطونها بالطحين و فضلات الدجاج على شكل كرات صغيرة أو يدخلونها فی الروبيان فی المياه العذبة. فالداثورا يخدر السمک فتظهر طافية على سطح المياه فيتم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۸

جمعها بسهولة. و كان هؤلاء الصبية يستعملون الروبيان. و عندما سألت صدام عما إذا كان المعدان يصطادون السمک بواسطة الشبكات قال لی:

«لا. أبدا. البربر فقط يستعملون الشبكات فی الصيد أمّا رجال العشائر فيستعملون الرمح فی الصيد».

«من هم البربر؟».

«أف لهم. إنهم مجرد بربر. طبقة واطئة من الناس الذين يصطادون السمک بالشبكات. و هم يعيشون بين القبائل. و هناک الكثير منهم بين البو محمد». و أسمعنا بيتين من الشعر بصدد البربر و هم أمثال الحائكين و الباعة المتجولين و الحدادين و زراع الخضراوات و الصابئة و كلهم خارج نطاق العشائر غير لائقين لينضموا إلى رجال العشائر لأنهم مشغولون بالتجارة. و الثراء الذی يأتی عن هذا الطريق ليس له وزن بين المعدان كما ليس له وزن أيضا بين القبائل العربية. و التجارة بنظرهم فی الأساس عمل يحتقرونه.

و تتوقف حالة الإنسان كلية على مزاياه و على خلقه و فضائله و سلالته.

و بعدما غادرنا بحيرة زكرى أصبحنا ثانية بين منابت القصب الكثيفة.

و كانت المياه قبل وصولنا إلى الرملة بمسافة طويلة ضحلة، فكنا نلاقی صعوبة فی الجذف، و كانت المرادى قابلة للكسر، لأننی حاولت استخدام إحداها لدفع المشحوف فانكسرت عند أول دفعة. و يبدو أن المعدان يتبعون أسلوبا معينا فی دفع المشحوف فتراهم يحنون أجسامهم و يضعون كل ثقلهم عليها حينما يدفعون المشحوف إلى الأمام مقدار قدم واحد فی كل مرة.

و المرادى هی عبارة عن عصیّ بطول (۲۵) قدما و هی من القصب.

أی من نفس القصب الذی يستخدمه الشيخ فی بناء مضيفه. و يمكن العثور على القصب فی بعض الأجزاء من الأهوار فقط. و يحمل المعدان دوما عددا قليلا من المرادى كاحتياط. و لكن بإمكان المرء الاحتفاظ بنفس المرادى لمدة عدة أشهر.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۳۹

و فی إحدى المرات، خطوت داخل المشحوف دون أن أعلم بوجود المرادى فی بطنه فكسرت ثلاثة مرادى منها بدون قصد.

وصلنا الرملة أخيرا فوجدنا أشجار النخيل تنتشر بين البيوت كما وجدنا سهلا مفتوحا خلف القرية و رأينا القصب و الأعشاب المائية تنمو فی أماكن قريبة من القرية و الناس يروحون و يغدون فی مشاحيفهم فی مياه الأهوار.

توقفنا فی المضيف. و أخذنی مضيفی لنتمشى حول القرية التی كانت محاطة بسواقی عميقة مملوءة بالمياه و عليها قناطر من جذوع

النخيل.

مررنا بالدكان الذى كان مخفيا وراء أكوام من الحصران المصنوعة من القصب ثم توقفنا لنراقب إحدى العوائل و هى تصنع الحصران. رأيت رجلا عجوزا جالسا على الأرض و بجانبه كوم من القصب اليابس. و كل قصبة بطول ثمانية أقدام تقريبا و بسمك يساوى طول إصبعى الوسطى. رأيته يقسم هذه القصبة إلى نصفين بسكين مقوسة قبل أن يقذفها إلى إمرأة حتى تدقها بمدقة خشبية لتجعلها ليّنة مطواعة مستخدمة الطرف الثقيل مع قطعتها القصيرة المتعارضة و الثقيلة. تدق القصبة مقدار عشرين مرة ثم نضعها جانبا، ثم يقوم صبى بحياكتها بواسطة عظم سمك.

و الحصران هى بمساحة ۸ ۴ أقدام تقريبا ثم قال لى مضيفى بأن كل قطعة تأخذ مقدار ساعتين من الوقت و يتقاضى مقدار خمسين فلسا عن كل قطعة حصيرة و هذا يعادل شلنا إنكليزيا.

ثم سرنا عبر أرض منبسطة. و الحقيقة، أن الأرض هنا مغطاة بالبردى المتساقط مثل القش من محصول متروك. و يظهر أنها كانت مغمورة بالمياه.

و أما الآن فإنها صلبة كالحديد و عليها آثار حوافر الخيل كأنها أشكال قوالب. و فى هذه الأثناء طارت طيور الزرازير محدثة صخبا فى الجو ثم استدارت و حطّت مرة أخرى. و لما اقتربنا أكثر طارت طيور مالك الحزين

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۰

و عدد كثير من البلشون الأبيض (طائر مائى يشبه اللقلق) و اندفع كلب باهت اللون و هو ينبح و يثب أثناء عدوه و يرتفع مقدار بضعة أقدام فوق سطح الأرض.

و رأينا من بعيد أشجار النخيل الداكنة مما يشير إلى وجود قرى على امتداد نهر الفرات. و أشار رفيقى إلى رابية صغيرة بعيدة عنا و قال: «كان للأتراك مدفع هناك حينما كانوا يقاتلوننا. رموا قريتنا بوابل من قنابل المدفعية و قتلوا عددا كبيرا من الناس».

ربما حدث ما قاله رفيقى خلال الحملة التأديبية التى تحركت من البصرة لأن الأتراك كانوا على الدوام يلاقون القلاقل من هذه العشائر.

عدنا إلى المضيف مع غروب الشمس ثم غادر الضيوف بعد فترة و جيزة جدا حيث حسبوا بأنه لا بدّ أننا متعبون من جراء هذه الجولة لذلك آوينا إلى منامنا للراحة.

و بينما نحن فى هذه الحالة إذا بصوت امرأة يصل مسامعنا من مكان بعيد فى القرية و هى تندب فقيدها الطفل. استمرت على هذه الحال دون توقف ساعات طويلة و هى تعيد و تكرر الكلمات «آه يا وليدى. يا وليدى».

كلمات تنم عن الأسى و الحزن تخرج فى جوف الليل من فم هذه الثكلى التى لا تجد ما يريحها.

و فى اليوم التالى سيتركنى رفاقى الذين جاءوا معى إلى هذا المكان و سأبقى وحيدا أدبر أمورى بنفسى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۱

۱۰- الخلفية التاريخية للأهوار

ظهر تاريخ البشر فى العراق على حافات الأهوار. فلو عدنا إلى الوراء كثيرا، إلى قديم الزمان، إلى عصر الظلمات، لوجدنا الناس الذين تقدموا الآن حضاريا و اجتماعيا قد انحدروا من هضبات إيران و استوطنوا فى دلتا نهر الفرات، حيث بنوا لهم فى الألف الخامس قبل الميلاد بيوتا من القصب و صنعوا لهم القوارب و الرماح و شباك الصيد. عاشوا هناك كما يعيش الناس فى الوقت الحاضر، فى محيط لم يتغيّر إلّا قليلا.

و بعد فترة من الزمن، أى بعد ألف و خمسمائة سنة جاء جنس آخر و حلّ محلهم أو امتصهم الجنس الذى جاء إلى العراق من الأناضول.

و جلب هؤلاء الوافدون الجدد معهم الجواميس الأليفة و علوم الصناعات المعدنية و فن الكتابة. و ترك كل جنس فى أدوات فخارية مميزة سجلا عن رحلاتهم.

ثم غمرت مياه الفيضان حوالى سنة (۳۰۰۰) ق. م. سطح الأرض، فبقى عدد قليل من الناس على قيد الحياة.

و أسس السومريون مدنهم على مواقع القرى القديمة المدفونة تحت الطمى و طوروا ما كان يعرف بحضارة العالم الأولى.

مضت القرون، فظهرت حضارة البابليين، و سقط السومريون. و فى سنة ۷۲۸ ق. م. اكتسح الأشوريون العموريين اكتساحا رهيبا بمركباتهم التى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۲

تجرها الخيول و أسلحتهم الحديدية و محوا البابليين من الوجود.

و أنهكت الحروب و الانتصارات هؤلاء القوم فتمكن الميديون من التغلب عليهم و إطاحتهم. و في سنة ۶۰۶ ق. م.، اقتحمت المدينة الآشورية العظيمة نينوى و (أصبحت قفراء و خرائب و مكانا تقبع فيه الحيوانات المتوحشة و البهائم).

صبيان من عشيرة ألبو محمد من بعد اجراء عملية الختان

ثم ظهر البابليون مرة أخرى باسم الكلدان، صمدوا في نينوى مقدار سبعين سنة، إلى أن دمّرت من قبل كورش الذي أحرق جنائن نبوخذ نصر المعلقة.

و غزت أجناس أخرى أيضا العراق خلال الألفي سنة نفسها.

فالكوثيون المتوحشون الخارجون على القانون دمّروا سومر و الكاشيين

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۳

و الحيثيين و الذين سلبوا مرة البابليين. و جلب الحيثيون معهم آلهة غريبة من الهند و سكان عيلام.

و بعد أن احتل كورش بابل في سنة ۵۳۹ ق. م. بقي العراق يرزح تحت الحكم الأجنبي، لمدة ألف سنة تقريبا. فتصبح أحيانا كولاية مهمة من الإمبراطورية و أحيانا أخرى كساحة قتال للدول الكبرى المتنافسة.

سار الإيرانيون و اليونانيون و السلوقيون و البارتيون و الرومان ثم الإيرانيون مرة أخرى بجيوشهم عبر الأرض ينشدون احتلالها أو يغتصبونها من الآخرين.

و عندما اندفع العرب في بداية القرن السابع ميلادي من الصحراء على شكل موجات من الفتوحات و احتلوا العراق أضافوا عندها إسما آخر إلى قائمة الغرباء المنتصرين.

و الباعث لكل هذا هو السلب و النهب، و الرابط الذي شدّ القبائل البدوية بعضها ببعض هو الانضواء تحت راية الإسلام، دينهم الجديد.

و لقد رحّب السكان المحليون بالدولة الجديدة أو استقبلوها بدون مبالاة. إلّا أن الحكومة الجديدة استولت على أراضي الدولة و تركت كل من يعترف بنظامها يتمتع بما في حوزته من الأرض.

ابتعدوا عن التعصب، و عزموا على هدى الناس جميعا، و اعتبر العرب الإسلام كحق مقتصر على جنسهم و لم يسمحوا في البداية لغير العرب بأن يهتدوا للإسلام ما لم يكن ينتسب إلى إحدى العشائر العربية.

و كان يعرف مثل هؤلاء العرب غير الحقيقيين باسم الماولية. و كان غير المسلمين يدفعون الجزية و ما كانوا يشجعون على الاهتداء للدين على شكل جماعات كبيرة. و كان العراق لمدة (۱۱۶) سنة التالية ولاية من ولايات الإمبراطورية العربية. و كانت تحكم أولا من المدينة المنورة الواقعة في الحجاز و من ثم من دمشق، ما عدا في حكم الإمام علي، الخليفة الرابع،

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۴

لفترة قصيرة في الكوفة. شكل العرب خلال هذه السنوات مجموعة صغيرة من المحاربين قاعدتهم في المدن و أستخدم معظمهم كجنود أو موظفين حكوميين.

و لكونهم متعجرفين و ظلاما فقد عاملوا السكان المحليين بازدراء و إحتقار. و عندما ولد المذهب الشيعي من بعد مذبحة الحسين في كربلاء في سنة ۶۸۱ ميلادي، راق هذا المذهب بشكل خاص للماولية في العراق لأنها تعبّر في نصوصها الدينية عن سخطهم على النظام القائم.

و في الوقت الذي أسس فيه العباسيون حكمهم في العراق و بنى الخليفة عاصمته الجديدة في بغداد في سنة ۷۵۰ ميلادي، لم تعد امبراطورية مقتصرة على العرب بكل ما في الكلمة من معنى، على الرغم من أن الإمبراطورية هي إمبراطورية إسلامية.

و إنّ حياة البلاط الفخم الذي أحاط هارون الرشيد نفسه بها، و ارتداءه الرداء الزاهي، و آداب التشريفات المتقنة، و الاحتفالات التي تقام، و استخدام الغلمان المخصيين، و جلادي البلاط كلها لا تشبه تماما البساطة الواضحة للعيان التي عاش فيها الخلفاء الأوائل في الحجاز.

دام حكم الخلافة العباسية مدة (۵۰۰) سنة، و عرفت الاستقرار في بداية حكمها، و من ثم إلى حكم سادته الفوضى و التشويش في الأيام التالية. و لقد أعدم هولاكو بعد أن احتل بغداد آخر الخلفاء العباسيين و ذلك في سنة ۱۲۵۸ ميلادي. و موته أضاف رقما آخر على (۰۰۰، ۸۰۰) شخص ذبحهم المغول حينما اكتسحوا المدينة.

و فی سنهٔ ۱۴۰۱ میلادی، أکتسحت بغداد مرهٔ أخری. هذه المرهٔ من قبل تیمور لنک، آخر الفاتحین العظام من المغول. و إذا کان عدد المذوبحین هذه المرهٔ أقل من سابقتها فسبب ذلک هو وجود العدد القلیل منهم فی المدینهٔ.

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۴۵

ثم جاء من بعدهم الترکمان، دولهٔ الخروف الأبیض أولا ثم دولهٔ الخروف الأسود ثم جاء من بعدهم فی سنهٔ ۱۵۰۹ میلادی الفرس ثم أعقبهم الأتراک فی سنهٔ ۱۵۳۴ میلادی. و بقوا فی البلاد إلی أن طردتهم بریطانیا فی الحرب العالمیهٔ الأولی.

و لکن هبطت مصائر العراق بعدئذ إلی الحضیض. و لقد حاول موظفو الأتراک إدخال ما یشبه السلطهٔ علی العشائر الصعبهٔ المراس فی هذه الولایهٔ المعدمهٔ من الإمبراطوریهٔ المتداعیهٔ.

و کان العراق طوال آلاف السنین، من عهد السومریین أرضا ذات مدن مستقرهٔ و ذات زراعهٔ راسخهٔ. و لکن الفاتحین اکتسحوا المدن و ذبحوا السکان و لکنهم کانوا، حتی مجیء المغول، یجددون دوما بناء مدنهم و یسهمون فی بناء المدینهٔ بأسلوبهم الخاص بهم، تلک المدینهٔ التی کانت قد زالت.

نول للحیاکهٔ من الأهوار

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۴۶

و فوق کل ذلک، إنصبّ اهتمامهم کثیرا علی شق القنوات التی جعلوا المیاه تجری فیها. و جاءت الأقوام الصفراء علی ظهور خیولها تحت قیادهٔ زعیمهم جنیکز خان من صحاری آسیا الخارجیهٔ و انقضّت علی العالم ذبحا و قتلا و هی تستمتع بعملها هذا. و تری نصبها عبارهٔ عن أهرام من الجماجم البشریهٔ.

و عندما هبت هذه الزوبعهٔ من الدمار أخیرا نحو العراق قضت علی الأعمال المنجزهٔ خلال عدهٔ قرون و دمّرت نظام الری الذی یعتمد علیه رخاء البلد و قضت علیه.

و کان معظم هذا التخریب علی شکل متعمد. غیر أن هذا الدمار کان ناجما علی أکثر احتمال عن تأثیر تراکم الإهمال. و ینبغی وجود منظمهٔ و عددها هائل من العمال حتی یقوموا بتنظیف القنوات و تقویهٔ السدود لکی تعود إلی حالتها الأولی. کما ینبغی بناء السدود لتنظیم میاه الفیضانات.

و بعد أن ولّت قبائل المغول، بقی عدد قلیل جدا من الناس علی قید الحیاهٔ، و کانوا محطمین نفسیا، لا یرجی منهم الخیر فی إصلاح الضرر.

فانقلبت الحقول الصالحهٔ للزراعهٔ إلی صحاری، و المیاه الثمینهٔ تبددت فی المستنقعات. و لا یزال الناس یزرعون علی امتداد سواحل النهر و لکن توقفوا عن تسمیهٔ العراق بلدا زراعیا و أصبح بلدا یهتم بتربیهٔ المواشی.

و المدن التی کانت من بین المدن العظمی فی العالم انحلّت و تفسخت حتی أصبحت علی شکل قری صغیرهٔ.

فالعرب البدو، المتواجدون فی الصحراء الکائنهٔ وراء نهر الفرات، اندفعوا إلی البلد و أخذوا یرعون قطعانهم علی سفوح الهضاب التی کانت فی یوم ما قصورا للملوک. و بینما استوطن العرب الأصلیون نری هؤلاء المهاجرین الجدد، مع خیامهم السود و مع قطعانهم المؤلفهٔ من الإبل و الغنم و الماعز تقسّم هذه الأرض إلی أراضی رعی.

رحلهٔ إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۴۷

ثم حل قانون العشائر المطبق علی سکان الخیام محل نظام حکومهٔ تستند علی الحیاهٔ المدنیهٔ. و بموجب هذه الأحوال، یمکن أن نجد الأمان تحت ظل العشائر، و فی النتیجهٔ، ربط المروّعون و الفلاحون غیر المنظمین أنفسهم بما یریده البدو. و بقبولهم حیاتهم الاجتماعیهٔ الدنیا نراهم قد اتّبعوا فی عاداتهم أسالیب و عادات تلک الجماعهٔ القادمهٔ من الصحراء و بحثت عن مضاهاهٔ أعمالهم.

و بمرور الزمن، أصبحت التمییزات القدیمهٔ غیر واضحهٔ، و اختلط الجنسان مع بعضها البعض فاستوطنت بعض القبائل فی الأرض و تخلت الأخری عن إبلها و حملت خیامها علی ظهور الحمیر.

فعرب الصحراء الذین هاجروا إلی العراق هم قلّهٔ مقارنهٔ مع السکان الأصلیین.

غیر أنّ عاداتهم و معاییرهم هی التی سادت. و قد یفتخر سکان العراق بادعائهم أنهم من سلالهٔ السومریین أو البابلیین و من الآشوریین الذین اکتسحت جیوشهم مصر و من الفارسیین الذین جاءوا من بعد کورش أو قاتلوا تحت لواء داریوس أو أکسرکسXerxes أو من البارتیین الذین محوا جیش روما.

و بدلا من ذلک، نراهم یتفاخرون بأنهم من أصل البدو.

و الإسکندر هو الآخر مرّ من هذا الطریق و إسمه السحری لا یزال یتردد فی جبال و ودیان آسیا الوسطی حیث یقسم الرجال بأنهم

ينحدرون من جنوده.

أما فى العراق فقد أصبح الإسكندر على كل حال منسيا.

و عندما سمعت رجلا عجوزا يحكى الحكايات الأسطورية و هو قابع حول النار، عن الشجاعة و الكرم فلم يكن ذلك القول بالتأكيد عن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۸

الإسكندر ذى القرنين و لا عن الخلفاء الذين حكموا، بروعة، فى بغداد لكنه كان يعنى بقوله الرعاة ذوى الثياب الممزقة فى صحارى الجزيرة العربية.

فعرب الصحراء هم أناس خلقوا على الدوام لشظف العيش و قسوته.

و الراحة بالنسبة لهم لا معنى لها بل إنما هنالك على الدوام إنهاك و تعب من جراء المسيرات الطويلة وكد و جهد عظيمان للوصول إلى آبار المياه.

و هم يتفاخرون على الدوام و يقولون «نحن بدو» و ينشدون الحرية التى هى حريتهم. يتحلون بالجلد و الصبر العظيمين و يتحملون الألم و هم شجعان.

يعيش البدو على شن الغزوات و على صدها و التى تجرى وفق قواعد موضوعة و بروح الفروسية عادة. و يتباهون بشراسة عند الخطر و المعاناة و لا ينكر أحد بتفوقهم على أبناء القرى و المدن.

و هم يسمون أنفسهم بالأصيليين، و يستعملون كلمة الأصيل عند وصف أصل دمهم. و هم ينحدرون فى الحقيقة من أنقى جنس فى العالم، و هم طوال قرون عديدة يتزاوجون بحيث يتزوج ابن العم بنت عمه و هذه هى عادتهم. و بعملهم هذا أنقذوا أنفسهم من الانحلال مما يحيطهم، حيث يبقى الأفضل على قيد الحياة و ما سواهم يتم اقتلاعهم من جذورهم بدون رحمة.

و هم يعتادون منذ الطفولة على معاناة الجوع على الدوام. و فعلا يموتون من الجوع إذا انقطع المطر عن الهطول. و هذا ما يحدث على الغالب.

و هم يدخلون فى حساباتهم العطش كقلق اعتيادى من الإزعاجات اليومية. و أحيانا، تكون حساباتهم، على أية حال، مغلوطة فيموتون عند ذاك متحملين الحر الشديد الذى يلفح وجوههم و أجسادهم كأنه تيار هوائى يخرج من باب الفرن طوال أشهر الصيف الطويلة. ثم يلى ذلك وقت يلاقى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۴۹

فيه الرعاة وقتا مقيتا و مروعا و يقاسون الأمرين فى فصل الشتاء لأن الرياح القارصة تهب عبر الرمال الجرداء و الأمطار الغزيرة تبلل ثيابهم و ملابسهم حتى الجلد.

و يقضون ليالى الشتاء الطويلة و هم يرقدون على الأرض و قد لفّوا فرشهم على أجسادهم و يستيقظون من نومهم و هم جامدون لا يستطيعون الحراك.

سيّد شاب من بعد عملية الختان

أما طعامهم هو عبارة عن حليب الإبل صباحا و مساء إذا أسعفهم الحظ و تيسر الحليب. و هم يعيشون دوما فى قلق، يتوقعون دوما حدوث الغزو. كما يتوقعون الخوف من الحزازات و العداوة و من الموت المفاجىء.

و مثل هذه الحياة، حياة البداوة، أتاحت لهم بأن يمتلكوا الشىء القليل لأن كل شىء غير ضرورى هو بمثابة عائق لهم. و كل ما يملكونه هو عبارة عن الملابس التى يرتدونها و أسلحة و سروج و عدد قليل من القدور و قرب الماء و الخيام المصنوعة من شعر الماعز. و هذه المواد مع الحيوانات التى تنظّم كل التنقلات هى التى فى سبيلها يتحملون كل الصعاب ببهجة و فرح. فالتكبّر و الفردية و المباهاة كلها أمور تحول دون قبولهم عن رغبة أن يسود عليهم أى فرد. و هم يفضلون الموت على أن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۰

يصيبهم العيب. إنهم أناس ديموقراطيون جدا، و مع ذلك نجدهم يتمنون جدا النسب. و كانوا طوال عدة قرون يصونون نقاوة دمهم بالخنجر. و تراهم يحترمون شيوخهم غاية الاحترام بسبب أصلهم و لكنهم لا يحترمونهم إذا لم يكونوا أصيلين. فالشيخ هو الشخص الأول بين الأشخاص الذين يساوونه فى المقام. و هو لا يملك الخدم بل إنما يستخدم أتباعه لتنفيذ رغباته أو لتنفيذ الأحكام التى يصدرها.

يتبعه رجال قبيلته و يطيعونه ما دام ينال احترامهم و يحكمهم فقط ما داموا يطيعونه. فإذا أساء إليهم فإنهم يتبعون غيره من أفراد أسرته.

و تبقى خيمته التى يستقبل فيها الضيوف خالية من الأشخاص.

و هم يعيشون مزدحمين سوية فى الصحراء المفتوحة و التى يكون الاختفاء فيها أمرا غير ممكن.

و هم يلاحظون كل عمل و يسترقون السمع لكل كلمة، و القال و القيل متأصلة فيهم و يعرفون كل شىء عن الأحداث التى مضت و ولت. و تراهم دوما يرددون السؤال «شنو الأخبار؟» بعد التحايا.

إذا أبلى أحد الأشخاص بلاء حسنا، يقوم أتباعه بنشر مآثره فى طول المخيم و عرضه و هم على ظهور الإبل، يصيحون بأعلى صوت «اللّه يبيض وجه فلان بن فلان!» و إذا أخزى أحد الأشخاص نفسه من جراء عمل مشين فيدفعونه إلى الأمام و هم يصيحون بأعلى صوتهم «اللّه يسود وجه فلان بن فلان!» و يصبح عند ذلك شخصا منبوذا.

و البدو تواقون إلى التصفيق و يبذلون كل الجهود فى سبيل الحصول على التصفيق و لذلك ترى بأن جميع أعمالهم على شكل مسرحية.

و هم على الرغم من أنهم يغارون من الآخرين إلّا أنهم مخلصون جدا لأتباعهم من رجال القبائل، و إن خيانة الرفيق تعتبر إثما شديدا جدا أكثر من إثم القتل بالنسبة للناس الذين يستخفّون بحياة البشر الذين ساعدوهم فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۱

تسوية عداوة الدم حينما يطعن بالمدية راعى غنم أعزل.

و لكن، فى الوقت الذى لا يبالون فيه بما يصيبهم و يصيب الآخرين من عذاب و آلام فإنهم ليسوا عديمى الشفقه عن عمد أبدا.

من السهل مسّ شرفهم بسوء، غير أنهم يردون على الإساءة بسرعة سواء أكانت حقيقية أو وهمية. و هم يتصفون بروح المرح و الخلو من الهموم. و هناك سجايا عكس هذا الشىء. فهم ثرثارون بالطبيعة، حريصون دائما على عزتهم و كرامتهم. و بإمكانهم الجلوس ساكتين، لا ينبسون ببنت شفه، لمدة ساعة فى المناسبات الرسمية، لا يبالون بالجمال الطبيعى، يحبون الشعر كثيرا.

و هم على الغالب كرماء جدا أكثر من اللزوم، و بإمكانهم إعطاء ثوبهم الوحيد إلى أى فرد يطلبه منهم.

ضيافاتهم أسطورية- لا يبالى الرجل بذبح أثمن ما لديه من الإبل فى سبيل إطعام الغريب الذى يحلّ فى خيمته عن طريق الصدفة. و لكنهم جشعون فى الواقع، يحبون المال حبا جما.

و البدو متدينون جدا، و يرون فضل اللّه عليهم فى كل مكان، و إن إنكار وجود البارى و سبّه أمر لا يمكن تصديقه. و مع ذلك، فإنهم بطبيعة الحال غير متعصبين و لا متشائمين و لا ذلولين.

يكافحون فى الحياة القاسية مهما كانت شديدة و موجعة ثم يرضون بمصيرهم بنفس عزيزة و كبرياء شديد لأنهم يحسبونها من مشيئة اللّه.

و الأهوار نفسها، مع ما فيها من عوائق محيرة من منابت القصب بحيث يتمكن الإنسان أن يتنقل فيها بالقارب فقط فإنها ستكون حتما ملاذا لبقية الناس الهاربين، و تصبح مركزا يتجمع فيه، منذ قديم الزمان، العصاة و المتمردون. فالملك سرجون، ملك الآشوريين العظيم كان قد اندحر إزاء

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۲

الكلدانيين الذين عاشوا هناك.

و بعد عشر سنوات، و من بعد إخضاع مصر و التغلب على الإسرائيليين، عاد ليربح المعركة فى الأهوار فى سنة ۷۱۰ ق. م. تقريبا، و سطّر انتصاراته على طنوف قصره فى خرسباد. و قام بأعمال انتقامية فظيعة و نقل أخيرا الكلدانيين إلى سوريا و استبدلهم بالحيثيين الأسرى من أماكنهم فى الجبال الشمالية. و بعد ستة عشر قرنا من الزمن أصبحت الأهوار معقلا للزنوج الذين هددت ثورتهم الخلافة العباسية القائمة حقيقة. و لقد استخدموا عددا لا يحصى من العبيد، معظمهم من السلالات الإفريقية لتصريف مياه الأهوار المحيطة بالبصرة.

و لما كانوا قد عوملوا معاملة فظة لا يصح ذكرها، لذلك ثاروا و قتلوا حراسهم و أدخلوا الرعب فى قلوب الناس الساكنين بجوارهم.

و كان لا بدّ أن يتم قمعهم بسفك دمائهم لو لم يجدوا لهم قائدا شهيرا، ماهرا. و بقيادة على بن محمد، الإيرانى، سادوا فى الحكم مدة أربع عشرة سنة، من سنة ۸۶۹ ميلادى إلى سنة ۸۸۴ ميلادى و كانوا يدحرون الجيوش الواحدة بعد الأخرى التى كان الخليفة يرسلها لقمعهم.

انقضّوا على البصرة و نهبوها و استولوا على الأهواز الواقعة فى الجنوب الغربى من إيران.

نهبوا المدن الواقعة إلى مسافة (۲۰) ميلا عن بغداد نفسها. و لكن، فى النهاية أصبحت الخلافات كبيرة جدا، و رفض على بن محمد

الاستسلام و اندحر جيشه فى الأخير و قتل ثم حمل المنتصرون رأسه إلى بغداد.

و بحلول القرن السابع عشر بدأت أنماط القبائل فى الأهوار و حولها تأخذ شكلها الحالى. و نشأت هناك المنتفك، ذلك الاتحاد العشائرى العظيم الذى هيمن على منطقة الفرات الأسفل مدة تزيد على (۳۰۰) سنة و ذلك حينما أصبح أحد اللاجئين من مكة المكرمة حكما لفض النزاع و قتل

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۳

كمكافأة له. و هربت عشيرة بنى مالك الذى عرّف نفسه بأنه منها إلى داخل الصحراء و اصطحبت معها ولده الطفل. فنما و ترعرع الطفل فتمكن بعد أن اشتد عوده من قيادتهم فعادوا إلى الفرات لكى يدحروا أعداءهم. و لما انتشر صيته و نفوذه، اعترفت العشائر الأخرى بزعامته. و كان بعضها من البدو الأرستقراطيين من الصحراء و بعضها الآخر من الرعاة من سلالة مجهولة. و تحتقر عشائر كثيرة المعدان، و أصبحت المنتفك فى أقصى قوتها دولة مستقلة فعلا قادرة على مقاتلة الحكومة التركية وفق شروط متساوية.

و فى مكان آخر إلى الأسفل من نهر الفرات، رسّخت عشيرة بنى أسد نفسها فى موطنها الحالى حول الكبيش. و سبّب هؤلاء القلاقل للأتراك فى أوج قوتهم.

و فى نفس الفترة استوطنت عشيرة بنى عميرة فى غرب القرنة و كانت عشيرة بنى كعب مهيمنة من قبل فى القسم الشرقى من الأهوار.

و على نهر دجلة، رسّخ محمد و ولده اللذان يشكل كل واحد منهما نصف عشيرة الفريجات حكمهم على خليط من العشائر التى تسمى نفسها الآن بإسم البو محمد. و إلى الشمال بمسافة أكثر، أسس أحد أحفاد (لام) عشيرة بنى لام أو أولاد لام، و هى عشيرة تربى المواشى و تزاول الرعى.

و هى عشيرة قوية جدا يبلغ تعدادها الآن مقدار (۰۰۰، ۱۰۰) نسمة.

و لقد بقيت دمار أجناس كثيرة ممن احتل العراق لآلاف السنين حيّة بسبب كون الأهوار أماكن نائية. و لكن، كانت قوانين عرب الصحراء المثالية التى سيطرت على حياة المعدان و صاغت نمط سلوكهم الكلى، اعتبارا من حزازات الدماء إلى أساليب طعامهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۵

۱۱- الفوز بكسب الصداقة

تقع قرية كبيش على الجانب الشمالى من نهر الفرات، حيث تكون المياه هنا عميقة، بطيئة الجريان، عرضها مائه يارد. تمتد على نفس الساحل بساتين كثيفة من النخيل، طولها عدة أميال، بينما تتواجد عبر النهر منابت القصب و المستنقعات. و فى الخلف نجد أرضا مبلطة بالإسمنت، عليها أعمدة المصابيح. و على هذه الأرض صف من البيوت المبنية بالآجر لكنه غير جميل.

و الكبيش هى مركز الناحية و فيها مركز للشرطة و مستوصف صغير و مدرسة للأولاد و ناد للموظفين و مساكن الموظفين.

وجدت بعض هذه الأبنية حديثة العهد و لكنها كلها تبدو لعين الناظر كأنها مهجورة. و هذا المظهر غير المناسب قد يبرر عما إذا كان الساكنون فيها ينالون قسطا كبيرا من الراحة و يستعملون فيها مواد منزلية أكثر يسرا مما قد يجدونه فى القرى المجاورة. و لأنها مشيّدة بين المروج باحات الزهور فقد كنت أتوقع أن أجد فيها حماما.

كانت الدور محاطة بحواجز من القصب المهشم و بقنانى محطمة وتنك يعلوه الصدأ، و بقطع من الجرائد، فكانت تبدو كأنها مصدر لروائح كريهة.

و السوق يتألف من صف واحد من الدكاكين، و هو أفضل بقليل من

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۶

الأكشاك، و هى مشيدة على الطرف الآخر من الأرض، و فيها جسر صغير من الإسمنت يزين الطرف الآخر و لكن الغرض منه كما بدا لى غامضا لأنه يؤدى على شكل خط مستقيم إلى بحيرة واسعة و عميقة. و كان مدير الناحية قد أشرف بنفسه على بنائه، و كان قبل أن يصبح موظفا حكوميا يمتهن مهنة النجارة.

و لو تركنا واجهتها المائية جانبا لوجدنا الكبيش مكانا جذابا، فواجهة الأبنية الحكومية تخفى عددا من الجزر الصغيرة، تظللها أشجار النخيل الباسقة، مرتبة بين القنوات المكسوة بطبقة من النباتات المائية، و بزهور صغيرة بيضاء فى وسطها بقعة صفراء شبيهة برائحة العسل. و تحت ظلال النخيل تجد البيوت المصنوعة من القصب و عددا من المضايف حيث مكثت فى إحداها.

زرت مدير ناحية الكبيش بعد بضعة أيام من مغادرة صدام، كما زرت موظفين آخرين فى الرحلة حتى أرى مدير الناحية كتابا من وزير الداخلية يسمح لى فيه بالتنقل حيثما أشاء.

و فى العراق، يـدير المتصـرف (المحافـظ حاليـا) شؤون اللواء (المحافظـة) الـذى يتـألف من قضـاءين أو أكـثر، و يـدير شؤون القضـاء القائمقام. و يتألف القضاء من عدد من النواحى، و يدير شؤون الناحية مدير ناحية.

كانت الكبيش ناحية تابعة لقضاء سوق الشيوخ من لواء المنتفك و مركز اللواء هو مدينة الناصرية.

زرت المـدير حالمـا وصـلت الكبيش، فـدعانى لتنـاول العشـاء معه فى النادى. و بـدا لعينى أن هـذا البناء متكون من آجر ردىء بحيث يكون فى الصيف حارا و فى الشتاء باردا مع رطوبة شديدة.

و النادى قائم خلف حاجز من الحصير، تجد تحته بعض أنواع

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۷

النباتات الزينية التى ذبلت لحاجتها إلى الماء. فيه كراسى حديدية مصبوغة باللون الأخضر و عدد قليل من المناضد الحديدية الدائرية الشكل موضوعة فوق قطعة من الأرض المعشبة المتلوفة.

و حينما دخلت النادى وجـدت فيه شخصين أو ثلاثـة من الموظفين ثم بـدأ الآخرون يتقاطرون على فترات. و كنت قد التقيت أكثرهم فى الصباح.

جلسـنا جميعا حول المناضـد، فجلبوا لنا الشاى. جلبه رجل كبير السن، منهوك القوى، يرتـدى بنطلونا خاكيا ممزقا جـدا و سترة ضـيّقة جدا. رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس ؛ ص۱۵۷

ب أحد المعلمين راديو من داخل البناية ثم ثبت الهوائى و أمضى الساعات الأربعة أو الخمسة التالية و هو يدير أزرار الراديو، فاستمعنا إلى الموسـيقى و الأغانى و الأحاديث المختلفـة من جميع محطات العالم الإذاعيـة، كما كنا نسـمع أصواتا عريضـة تنبعث من حولنا. و كوّن عدد آخر من الموظفين حلقة أخرى بدأوا يتحادثون فيما بينهم بالأمور التى تخصـهم كالمخصصات و فى الأمور السياسية العربية و فى الفضيحة التى كانت قد حدثت أخيرا فى الدوائر الرسمية فى الناصرية. و ربما أننى لا أشرب الخمر فقد تناولت أقداحا لا حد لها من الشاى و هو الشراب الوحيد الذى يتواجد ما عدا الخمر.

و مضـيّفى الـذى لم يشـاركنى فى الرأى بـدأ يشـرب العرق باسـتمرار، و بـدأ يتنـاقش بحرارة أكثر. و يظهر أنهم نسوا أنهم قـد دعونى للعشاء.

و رأيت فى مكـان مـا خلف الحـاجز الحصـيرى مولـدا كهربائيا كأنه مصاب بمرض الربو، يجهزنا بمصـباح واحـد معلق فوق رؤوسـنا، فجذب إليه أعدادا كثيرة جدا من الحشرات الضارة و المؤذية فكانت تسقط كالمطر فوق المنضدة.

كنت أجلس على كرسـى حديـدى غير مريـح و بـدأت أشـعر بالضـيق و الكـدر مما أضاف كـدرا و إزعاجا. ثم تذكر المدير، حوالى منتصف الليل،

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۸

بأننى ضيف عليه، فأمر بإعداد العشاء و كان يتألف من الكباب و الأرز و لم يكن لذيذا رغم هذا الانتظار الطويل.

إن معظم هؤلاء الموظفين قـد ولـدوا فى هـذه المنطقة، ضـمن مسافة لا تزيد على مائة ميل عن كبيش. و بما أنهم متعلمون لا يشـعرون بالراحـة إلّا حينما يسـكنون المـدن. لـذلك يرون أنفسـهم فى هـذا المكان غير المريـح و الذى يكتنفه جو عشائرى كأنهم فى المنفى. فكانوا يأملون دوما بأن يتم نقلهم من هـذا المكان و يقضون الساعات الطويلـة فى بحث هـذه القضـية و يخططون لها. كما وجدتهم لا يبرحون هذه المنطقة ليرفهوا عن أنفسهم بل إنما يبقون محصورين ضمن هذه البقعة الضيقة التى تضم بيوتهم و دوائرهم و ناديهم.

و خلال بقـائى فى العراق، لا أتـذكر أننى صادفت موظفا يهتم كثيرا بأمور الناس أو يظهر الود و المحبـة لأبناء العشائر الـذين يـديرون شؤونهم.

و سألنى أكثر من شـخص واحـد، كيف أتحمل هنا الحياة فى هـذا المكان بين المعـدان الـذين هم ليسوا سوى حيوانات مفترسـة. كما أنهم لا- يهتمون بـالريف. ففى كردسـتان، فى الصـيف الماضـى، أمضـيت نهـارا كاملا- مع ضابـط شـرطة عراقى شاب فى إحـدى أهم الأماكن اللطيفة و الجميلة التى شاهدتها.

كان قد تعين فى هذا المكان الذى تقطنه عشيرة كبيرة رحالة قبل شهرين.

فالجبال الشاهقة بعلو ثمانية آلاف قدم أو تسعة آلاف قدم تبرز من بين غابات البلوط شامخة إزاء المنحدرات الخضراء الظاهرة للعيان.

و ينحـدر من الجبال جـدول يجرى فيه الماء الرقراق، بارد كالثلـج، ينساب فى الوادى متجها نحو سـلاسل جبليـة أخرى بعيدة أقحوانية اللون.

هنالك الدببة بين الغابات، و الوعول فى قمم الجبال، و الجو فى هذا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۵۹

المكـان ممتـاز. و عنـدما زرت المعاون الشاب فى خيمته، وجـدته جالسا و بجانبه جهاز راديو و أمامه منفضـة سـيكاير مملوءة بأعقاب السـكاير، قلت له بغاية الحماس «أنت سعيد جدا أيها الشاب لأنك تعيش هنا فى هذا المكان الجميل». و بدلا من أن يسرّه كلامى هذا رأيته ينفجر فى الكلام و يقول:

«سعيد! و اللّه، لولا جهاز الراديو لأصبحت من عداد المجانين. ماذا يفعل رجل متمدن فى هذا المكان الموحش؟، فالشخص الذى كان هنا قبلى لم يبق سوى أسـبوع واحـد. دفع لهم المال فنقلوه. أما أنا فإننى فقير الحال، لا أسـتطيع أن أقدم أى شـىء لأدفع المال، لذلك تجدنى أجلس و أصغى إلى إذاعة بغداد».

يسـكن منطقة الكبيش و القرى المجاورة لها على امتداد نهر الفرات عشيرة بنى أسد و هى عشيرة عربية إنسحبت إلى الأهوار قبل ثلاثة قرون و ذلك من جراء المعارك التى دارت فيما بينها عبر التأريـخ من الغلبـة و الاندحار. و فى أوج أيامها إمتصت هذه العشـيرة كثيرا من الناس الضعفاء و أكثرهم ليسوا عربا فى الأصل، كانوا يلتمسون الحماية منهم و بهذا العمل ازدادت قوة.

و من الأهوار خاضت حروبا متقطعـة و ناجحـة مع الأتراك. و هى لا تزال مصـدر القلاقل بعـد الحرب العالمية الأولى إلى أن دحرهما الإنكليز و أزاح شيوخهما فى سنة ۱۹۲۴ و إنحلّ الكيان العشائرى منذ ذلك الوقت.

الزراعة فى الكبيش أمر لا يمكن التنبؤ به دوما، و فى السـنوات الأخيرة، أخذت العشـيرة التى يبلغ تعدادها الآن مقار (۰۰۰، ۱۰) نسمة، تعتمـد على حياكـة الحصـران اعتمادا متزايدا. و هى مع مضـى ثلاثة قرون من حياتها فى الأهوار تعتبر نفسـها متميزة عن المعدان. فهى تعتنى بتربية الأبقار لكنها تحتقر العناية بتربية الجواميس.

و بإمكان المرء أن يتجول حول الكبيش لذلك سررت حينما غادرتها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۰

فتوجهت شرقا حتى أتيت إلى حافة الصحراء فى الخميسية ثم عدت أدراجى مرة أخرى.

و حينما كنت أصل إلى قرية ما عند الصباح، يقدّم لى الغداء ثم يأخذنى مضيفى من بعد الظهر إلى بيت آخر.

كـانوا يكرمون وفادتى بسـخاء أينما أحلّ حتى و إن كان صاحب البيت فقير الحال، و قـد وجـدت بعضـهم معـدما فعلا و لكنهم كانوا يراقبوننى بهـدوء و يتغرسون فى وجهى و بقيت على هـذه الصورة من التقييدات طوال عدة أشـهر. لا توجد سـرّية فى كل مكان، فكل حركـاتى كـانت مراقبـة حتى حينمـا أذهب إلى مكـان أرتـاح فيه فأشـعر أن أحـد الصبيـة يتعقبنى فيسـير ورائى بحجـة أنه يحمينى من الكلاب.

و بإمكـانى أن أتصور مـا يـدور بينهم من نميمـة حينمـا أغـادر الغرفـة فمثلا يقولون «ماذا يريـد هـذا الشـخص؟ و لماذا قـدم إلى هـذا المكان؟. من الواضح أنه لو لم يكن لديه سـبب معقول لما قدم إلينا لأنه لا يرضـى أى شـخص من سـكان المدن أن يلسعه البعوض و أن يأكل من طعامنا. لا بدّ و أن الحكومة أرسلته حتى يتجسس علينا، و ليحصى عدد شبابنا أو ليفتش عن جواميسنا».

وجدت الأشخاص الذين استضافونى لطفاء و لكنهم كانوا على ما يبدو تواقين للتخلص منى، فعاملونى كشخص نجس.

و الشيعة تعتبر الطهارة الشعائرية واجبا دينيا المتشددون منهم لا يشربون من نفس الكوب الذى أشرب منه لأنهم يعتبروننى كافرا.

و بما أن هؤلاء الناس غير متزمتين حسـبما ألاحظ فى شعائرهم الدينية الأخرى فإن هذا التفاضل الخاص إنما يبدو طفيفا. و لا أدرى ما إذا كنت أستطيع أن أقيم معهم علائق ودّية إلى الأبد كشخص مسيحى أو كشخص أوروبى حيث كنت أتوق إلى ذلك.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۱

حان موعد تكوين مثل هذه العلاقة الودية حينما توقفت عن المسير فى (ربعة) إحدى القرى الكبيرة من منطقة العميره و أنا فى طريقى شمالا قاصدا عشيرة الفرطوس.

لم يكن صاحب الـدار موجودا. غير أن شابا طويل القامـة، ذا هيئـة حسـنة رحّب بنا. ثم عاد الرجال الـذين جاؤوا معى إلى هذا المكان إلى قراهم بعدما تناولوا الشاى مباشرة.

كان إسم مضيّفى «عبد» و هو مختصر (عبد الله) وصل مع غروب الشمس.

سألنى من بعد تناول العشاء: «شكو بهاى صناديقك؟».

«أدوية».

«هل أنت طبيب؟».

«أعرف الشىء الكثير عن الأدوية».

«هل تستطيع أن تقوم بعملية الختان؟».

لم أجر مثل هذه العملية أبدا، لكننى كنت أراقب مثل هذه العمليات فى المستشفى و بين العشائر. لذلك انتهزت الفرصة و أجبته قائلا: «نعم».

«تكدر تسوى عملية ختان لولدى ضريبط؟ مضت سنين طويلة حينما جاء أحد الأشخاص اللى يعرف يسوى عملية ختان و أريد أن تسويها أنت بنفسك حتى أزوجه». و أشار بيده إلى صبى و هو الذى كان قد استقبلنى.

أما الآن فإنه كان منهمكا بصب القهوة.

كنت خائفا و لكن مع ذلك وافقت على إجراء عملية الختان فى الصباح.

و لو أن عملية الختان لم تذكر فى أى مكان من القرآن الكريم إلّا أنه

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۲

يعتبر بشكل عام أمرا ضروريا على جميع المسلمين. و هم فى ذلك يقتفون إثر الرسول الكريم محمد صلى اللّه عليه و سلم نفسه الذى أجريت له عملية الختان طبقا لعادة العرب، و لا يحق لأى شخص لم يختن أن يحج شرعا إلى مكة المكرمة.

تؤجل عملية الختان بين العشائر القاطنة فى جنوب العراق سواء أكانوا معدانا أو رعاة الغنم إلى حين بلوغ الطفل سن الرشد، كما هى فى هذه الحالة مع خريبط. و من النادر أن تتم عملية الختان قبل بلوغ سن الرشد. و تجرى عملية الختان من قبل شخص اختصاصى بهذا العمل، يتنقل من قرية إلى أخرى فى فصل الصيف. و أتعابهم التقليدية هى إعطاؤه ديكا و لكن الغالبية كانت تعطيه ربع دينار (خمس شلنات).

و قد شاهدت نتائج تلك العمليات فرأيتها مرعبة. كانوا يستخدمون أمواس الحلاقة المتصدئة و القذرة و قطعة من الخيط و لا يستعملون المطهرات.

و بعد العمليات ينثرون على الجروح مسحوقا خاصا معمولا من قلفة يابسة لأولئك الذين أجريت لهم عملية الختان فى السابق ثم يلفونه بقوة بقطعة من الخرق.

و الناس الذين يعيشون فى مثل هذه الأحوال يكتسبون من غير شك مناعة ملحوظة بالنسبة إلى العدوى أو التلوث و تراهم لا يستطيعون مقاومة هذه الطريقة. و قد يمضى شهران على العملية حتى يتشافى الصبى بعد أن يعانى طوال هذه المدة من الآلام الشديدة.

جاءنى شاب بعد أن مضت مدة عشرة أيام على عملية ختانه حتى أعالجه. و إننى و إن كنت قد تعودت تماما على رؤية المناظر و الروائح الكريهة إلّا أننى كدت أن أتقيأ من شدة الروائح النتنة المنبعثة من هذا الشاب.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۳

وجدت قضيبه كله متقيحا و ينزّ منه و من خصيتيه أيضا القيح فى مثل هذه الحالة. و وجدت القيح ينز أيضا من بين أفخاذه و اللحم ينسلخ منها و القيح يتساقط على ساقيه. فعالجته بالأدوية و المضادات حتى شفى فى النهاية.

و على الرغم من أن الشخص يصاب بوصمة العار إذا لم يجر عملية الختان فإن بعض الصبية لا يرفضون الختان بشكل غير طبيعى، غير أن آباء بعضهم هم الذين لا يسمحون لأولادهم بالختان لأنهم لا يجدون أحدا يرعى جواميسهم.

يؤكد عدد من الصبية بالدليل القاطع بأنهم يولدون و الملائكة قد ختنتهم و هذه خرافة جارية فى مصر أيضا.

و بعدئذ زرت قرى تقع بين السويد و قولابا Kaulaba بصورة خاصة، لأننى سمعت بأن عملية الختان هى نادرة الوجود هناك- و هذا شىء لا يمكن تصديقه تقريبا بين المسلمين.

و فى الصباح الباكر، حسب الموعد الذى أعطيته، تهيأت لإجراء العملية.

اقترح (عبد) وجوب إجراء العملية خارج البيت حتى لا يتلوث البيت بالدماء. فأجتمع جمع صغير بين الجواميس و هم ينتظرون عملية الختان التى لم تكن عملية جراحية مثالية. و حضر عدد من الناس من معاصرى خريبط حتى يشجعوه و يزيدوا من معنوياته حسبما أعتقد.

اخترت صبيا تظهر عليه علامات الذكاء مساعدا لى. أما خريبط فإنه جاء بهاون خشبى كبير فقلبه رأسا على عقب ثم جلس عليه.

كنت أرغب أن أجرى عمليتى الأولى ببساطة، و أظهرت فحوصاتى الأولية بأنه يملك قرفة متصلة. فهيأت سرنجا مع مخدر محلى، غير أن خريبط قال لى فى الحال:

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۴

«لويش هل شىء؟» فقلت له بأن هذه الحقنة تجعله لا يشعر بالألم.

«لا. لا. ما أريد أنضرب أبره. بس إقطع القرفة». و لا أظن أن أى شيء آخر سيغيّر من فكره. و عندئذ كنت أتعجب بما إذا كان عصبى المزاج مثلى على الرغم من أنه لم يظهر أية علامة من هذا القبيل.

و بينما كنت أقوم بعملية الختان و التى استغرقت فى هذه الحالة بعض الوقت، كان خريبط يجلس بدون حراك تماما ثم قال لى من بعد انتهائى من العملية «أشكرك» ثم نهض.

أما مساعدى الذى كان يمسك بيده أنواعا مختلفة من معدات العملية فإنه ألقاها على الأرض و دفع الآخرين من طريقه و جلس على الهاون و قال: «هسه دورى أنا». و أدركت الآن بأن أصدقاء خريبط التسعة قد جاؤا جميعا حتى أجرى لهم عملية الختان. و كان أصغرهم بعمر (۱۵) سنة و أكبرهم بعمر (۲۴) سنة و علمت فيما بعد بأنهم جميعا قد شفوا بعد عدة أيام. و من الواضح أن مسحوق السلفونمايد والپنسلين هما أكثر تأثيرا و فاعلية من مسحوق القرفة اليابس.

وصلت الأخبار إلى القرية المجاورة عن عملية الختان. فلما وصلت تلك القرية وجدت (۲۰) صبيا بانتظارى.

و فى هذا الوقت كان قد استعدّ عدد قليل من هؤلاء الناس لكى يجرى لهم الختّان المحلى الاختصاصى لكنهم فضّلوا الانتظار إلى أن أزور قريتهم أو يشدوا الرحال إلى القرية التى أنا فيها.

و فى إحدى المناسبات المتعبة و المضنية، حضر (۱۱۵) شخصا، قمت بعمل شاق ابتداء من الفجر حتى منتصف الليل.

و هؤلاء الناس يعتقدون أن رائحة الخبز أو أية رائحة أخرى من بعد الختان سوف تسبب حدوث التهابات فى الجرح. و كنتيجة لذلك، إعتادوا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۵

حينما يصابون بالالتهاب أن يضعوا قطعة من الصوف أو قطعة من القماش فى الأنف أو يعلّقون بصلة حول الرقبة إن أمكنهم العثور على البصل عند البقّال. كما أن هؤلاء لا يأكلون السمك أو اللبن الخاثر أو الرقى أو يشربون الماء بكثرة إلى أن يشفوا من جروحهم.

و يتمسك الختّانون المحليون بهذه الخرافات كعذر على عدم كفاءتهم، و يفسرون حالة بعض الشباب المصابين بالهزال عندما يقاسون الآلام المبرحة و سيقانهم متباعدة لأنهم لم يتمسكوا بتعليماتهم و يتجنبوا تحذيراتهم و يقولون: «طبعا. ما أخذ هذا الصبى الحذر و احتاط لنفسه بحيث يسد ثقوب أنفه. لازم شمّ رائحة الخبز. أو لازم شرب ماى كثير».

لا يزور الأطباء أماكن المعدان أبدا. و إذا ذهب المريض إلى الصيدلية فى الكبيش لشراء الدواء على حسابه الخاص فإنه لا يزال يعتقد بعدم جدواه و أنه لا ينفع.

و أينما أحلّ، يزداد عدد الشباب الذين أقوم بعملية ختانهم يوميا.

و على هذا الأساس، لا يمضى يوم بدون أن أعالج فيه الناس فى الأهوار.

و يتفاوت عدد القادمين فيكون أحيانا قليلا و يزداد أحيانا أخرى بحيث يتجاوز المائة شخص.

و أكون راقدا فى فراشى حينما يصل أول مريض، فأنهض بعد أن ينحنى أحد المسنين الكبار ليقول لى بأنه يشكو من السعال و أسمع صفير صدره حينما يتنفس. و وجدت الأكثرية تعانى من آلام الزكام الشديد و الصداع و الإمساك أو من الجروح الطفيفة أو من الكدمات. و يمكن معالجة مثل هذه الأمراض بسهولة و لو أنها تتطلب وقتا أطول. كما وجدت أشخاصا آخرين هم مرضى فعلا و بشكل خطير أو مميت. فكنت أداوى بعضهم ممن بوسعى إسعافهم و أترك الآخرين الذين لا أستطيع معالجتهم.

و أهتم كثيرا فى مثل هذه الحالات بالمعالجة الطبية الصحيحة.

كما وجدت أناسا يعانون من مرض التراخوما و من بعض أمراض

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۶

العيون الأخرى و من الجرب و البواسير و من وجود الحصى فى الكلية و من أنواع مختلفة من الديدان المعوية و من الديزانطريا من كلا النوعين أميبى و عضوى و من أمراض البلهريزيا و البجل. و سوف أعدد بعض الأمراض التى يشتكون منها.

فمرض البجل هو من أكثر الأمراض شيوعا و ربما من أكثر الأمراض المزعجة، و هو مرض يشبه السفلس و لكنه ليس بمرض تناسلى. إنه نوع من مرض جلدى و معدى جدا. فالقرح الذى يحدث فى مكان ما من الجسم يكون شديدا على الغالب نتنا أحيانا بدرجة مخيفة. و كنت أشعر بألم و أتأثر حينما أجد بعض المرضى من هذا النوع.

كانت بعض الحالات من مثل هذه الأعراض سفلسا من غير شك و كنت أعتقد أنها بجل. و كنت أستعمل حقن الپنسلين فأجدها ذات مفعول جيد لكلا النوعين من المرض.

أما مرض السيلان فإنه غير معروف تقريبا. لكننى عالجت ثلاث حالات فقط كانت مصادرها من العمارة. و أما إزاء البهريزيا فما كنت

أستطيع أن أفعل أى شىء و هو مرض واسع الانتشار فى منطقة الأهوار و السبب هو أن دورة الحقن بالإبر تدوم مدة شهر واحد و ما كنت أمكث هذه المدة فى مكان واحد.

و قد عالجت جماعتى الجذافين و لكنهم كانوا دائما يصابون ثانية.

و هنالك أمراض أخرى و بائية مثل الحصبة و جدرى الماء و النكاف و السعال الديكى.

و فى سنة ۱۹۵۸ انتشر وباء الأنفلونزا الآسيوى حيث أصيب به معظم المعدان. و أنقذت أدويتى كثيرا من المصابين بأمراض ذات الرئة كنتيجة لإصابتهم بمرض الأنفلونزا. و لقد كنت و رفاقى محاطين يوميا بالمرضى الذى يطلبون الدواء لكننا كنا نهرب أحيانا لنروّح عن أنفسنا و نبتعد عن هذا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۷

الزحام. و كثيرا ما كنت أخشى أن أصاب بالمرض فى فصل الصيف فى مثل هذه الظروف.

و من الأمور المذهلة، أننى واجهت عددا قليلا من المصابين بأمراض الملاريا علما بأن هذا المرض قد تقلص كثيرا خارج الأهوار. و من جهة أخرى، كان معظم المعدان يعانون من الحمى الواطئة المتكررة. و يعانى عدد كبير من الأطفال من تضخم الطحال.

البعوض السائد هو من نوع الأنوفيلوس Anopheles Pulcherrimus و هو ناقل الملاريا بشكل ضعيف أما النوع المؤذى جدا فهو الأنوفيلوس إستفينسى Anopheles Stephensi و هو نادر الوجود فى الأهوار نسبيا.

ثم هناك إصابات ناجمة عن الحوادث. فبعض الضحايا يصابون بالحروق المرعبة من جراء احتراق أكواخهم. و هناك الأطفال الذين يصابون بالحروق من جراء انسكاب القدور أو الكتالى و فيها الماء المغلى.

و يراجعنى رجال أصيبوا بجروح من جراء هجمات الخنازير البرية.

و يصاب بعضهم أحيانا حينما يقوم بالصيد فتهاجمه الخنازير و لكن أكثرية الإصابات ناجمة من مهاجمة الخنازير و هم يقطعون القصب أو يحصدون محاصيلهم.

شاهدت مرة شخصا مصابا بالجروح فى ذراعه و فخذيه و جرح عميق بمدار ثلاثة عقد فى معدته بحيث برزت الأمعاء. و من حسن حظه أنها لم تكن مثقبة، فأعدت الأمعاء إلى مكانها ثم خيطت الجرح. و من الأمور التى تبعث على الدهشة هى أنهم يبقون أحياء بعد هذه الحالات. و فى إحدى الحالات استدعيت إلى بيت لأفحص صبيا كانت بندقيته المصنوعة محليا قد انطلقت و فجرت نصف يده. و كل ما استطعت عمله هو بتر ثلاثة أصابع من أصابعه المتطايرة.

و فى حالة أخرى، أيقظنى صبيان من النوم ليلا و ذهبت معهما فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۸

مشحوفهما إلى قريتهما التى وصلناها بعد ثلاث ساعات. وصلنا القرية وقت الفجر، و وجدت أباهم يتلوى على الأرض و قد وضع يديه فوق عينه.

و قالوا لى بأنه فقد إحدى عينيه نتيجة انفجار قبل سنتين. و الآن، يبدو أن نوعا من الضغط الداخلى يؤثر فى العين المفقودة و يدفعها من محجرها.

فكل ما استطعت عمله هو قلع العين حتى يرتاح من الألم. و كنت أعرف شيئا من المعلومات عن تركيب العين من غشية جلود الحيوانات حتى تبقى كتذكار.

حقنت هذا المريض بإبرة من المورفين ثم أجريت عملية قلع العين بينما كان والده يمسكانه بقوة و هو ممدد على الأرض.

و لما استفاق و استرد وعيه قال بأن الأمة الآن هى أحسن بكثير مما كان يعانيه سابقا. مكثت بجانبه يومين حتى أطمئن على صحته. شاهدته بعد ستة أشهر فوجدته قد تشافى.

و هنالك أمراض كثيرة لا أقدر على القيام بأى عمل تجاهها. و كنت كثيرا ما أفشل فى معالجة حالات أخرى.

و لا أزال أحمل فى مخيلتى صورة وجه صبى صغير يكاد يموت مما يعانيه من الديزانطريا. و كثيرا ما كنت أواجه مصاعب كثيرة حتى أقنعهم بأننى لا أستطيع شيئا إزاء بعض الحالات؛ جاءنى مرة رجال من مسافة بعيدة و معهم شيخ عجوز يعانى من آلام شديدة من مرض السرطان. و جاؤا مرة أخرى بفتاة تسعل سعالا شديدا من جراء مرض السل و الكل يثق فى أننى سأشفيهم من أمراضهم. لذلك يواصلون الالتماس و الرجاء إلى درجة يثيرون فيها الشفقة فيقولون:

«أعطنا فقط الأدوية. صاحب! أعطينا أدوية».

و هناك حالات من المرض قد يتشافى منها المرضى إذا ما راجعوا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۶۹

المستشفى فى العمارة أو فى الناصرية و لكنهم كانوا يخشون مراجعة المستشفى. و من النادر أن يقتنعوا بوجوب المراجعة.

كان الأطباء فى المجر و فى الكبيش و العمارة يستاؤون منى لنقص مؤهلاتى، لكنهم لم يكونوا يظهرون استياءهم أبدا، بل على العكس من ذلك، ساعدنى عدد منهم فى إبداء المشورة و الأدوية.

وافق وزير الداخلية فى بغداد على الأعمال التى أقوم بها فيما يتعلق بالطبابة فى الأهوار و لكنه حذرنى قائلا بأنه إذا ما مات أحدهم نتيجة لخطأ فى الإسعاف تسبب له أسرته مشاكل فلن ينقذك أى شىء عن المقاضاة الجرمية.

كانت أعمالى هذه مجازفة منى و أنا راغب فى ذلك. و عالجت كثيرا من الناس الذين كانوا يعانون من سكرات الموت و لم يتفوه أى شخص فيما بعد بما يشير إلى أننى قد قتلت مرضاهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۱

۱۲- بين عشيرة الفرطوس

بعد أن غادرت قرية عبد، مكثت فى بيت صغير فى قرية كباشة.

و كنت أعالج عددا كبيرا من المرضى إلى درجة غاصت فيه أرضية الغرفة فى الماء حتى بلغ ارتفاعه إلى مستوى كعب القدم. و أكّد لى مضيّفى بأن هذا ليس بالأمر المهم و لكننى مع ذلك انتقلت إلى مكان آخر فارتاح لعملى هذا.

و فى قرية أخرى، اسمها مبرد، فيها من (۴۰ إلى ۵۰) بيتا، مشيّدة على امتداد الساقية فوق عدة طبقات من الأرضية الخاصة. و تتخلل البيوت طرق مائية ضحلة، تجمع أيضا جمع كبير من الناس و بدأت أعالجهم حتى حلّ الظلام. و كان مختار القرية يلازمنى طوال عملى هذا.

و المختار رجل عجوز، اسمه محسن، له أولاد، طلبت منهم إبداء المساعدة، لكنهم فضلوا اللعب على الاستجابة لطلبى. و مع ذلك كانوا يضايقوننى من كثرة طلباتهم للأدوية التى لا يحتاجون إليها.

كان الأولاد صغارا، يشبهون أباهم تماما. لهم أنف طويل كأنف أبيهم، و عيون ضيقة و صوتهم أشبه بالعواء. و أخيرا لنت لهم من كثرة الإلحاح فى طلب الدواء، فأعطيت أحدهم حبتى كنين حتى يمضغهما.

فسمعته بعدئذ يحاول التقيؤ خلف الباب. تضايقت كثيرا من طول انتظارى لتناول عشائى. و لما جاؤا به وجدته عبارة عن صحن فيه كومة من الأرز

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۲

البارد و قدح فيه زبد كثير قذر.

و علىّ أن أنتظر مرة أخرى حتى يعدّوا لى الشاى و لكننى لم أجد أية علامة على إعداده.

و فى هذه الأثناء، التفت أحد الأولاد فجأة و إذا به يصيح قائلا: «هلو! ما هذا؟» ثم اندفع نحو الباب و سمعته يصيح «حريق! حريق».

تجمهرنا خلفه و نحن نبعد الجواميس من طريقنا. و شاهدت النيران تلتهم سقف البيت المجاور الذى يقع أسفل البيت الذى نحن فيه و باتجاه الريح و سرعان ما قضى عليه تماما.

رجل من عشيرة الفرطوس

رأيت اللهب البرتقالى اللون يرتفع إلى عنان السماء و الشرارات تتطاير فى الظلام. تجمعنا فى المشاحيف و توجهنا نحو البيت المحترق. و قبل أن نصله، كانت النار قد وصلت إلى بيت آخر يجاوره. و رأيت الشرارات تتطاير من كلا البيتين و تحملها الرياح القوية إلى بيوت أخرى.

شاهدت قوارب عديدة، تروح و تغدو فوق سطح الماء المضاء من وهج النيران. و شاهدت أصحاب البيوت يندفعون إلى داخل بيوتهم ثم يخرجون منها و هم يقذفون ما تحمله أيديهم إلى المشاحيف المنتظرة ثم يسرعون بالدخول مرة أخرى لينقذوا ما بوسعهم إنقاذه. و رأيت النساء يولولن و يصرخن و الرجال يصيحون بأعلى أصواتهم و الكلاب تنبح و الجواميس هائجة لأنها خائفة فتولّى هاربة فى الظلام الدامس.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۳

كنا نسمع عبر هذا الضجيج العام أصوات قرقعة تكسر القصب المشتعل الذى التهمته النيران ثم سرت النار إلى بيت ثالث فى الوقت الذى نزلنا فيه من المشحوف جوار أحد البيوت.

شاهدت امرأة خائفة جدا، تندفع بسرعة و هى تمرّ من جانبنا، تحمل طفلها على ذراعيها تمسكه بقوة و هو متعلق بها يصرخ و يصيح. أخذت الطفل منها و ناولته لفتاة فى المشحوف، فوضعته بجانبها و هو لا يزال يصرخ. ثم اندفعت الأم مرة أخرى إلى البيت حتى تنقذ ما بوسعها إنقاذه من أثاث البيت. فرأيتها تحمل معها البسط.

و فى مجاز البيت، اصطدمت برجل عجوز و صبى و هما يبذلان جهديهما لسحب كيس من الدقيق فساعدتهما فى سحبه إلى القارب ثم بدأنا نخرج الأكياس الواحدة بعد الآخر حتى لم يبق إلّا كيس واحد لم نستطع إخراجه لأن النيران بدأت تلتهم البيت.

و فى هذا الوقت قضت النار على البيت المجاور قضاء تاما.

شاهدت شبح امرأة و هى تنظر نحو اللهب الذى يلتهم السقف و تضرب صدرها بيدها. إنهار السقف و تطايرت الشرارات إلى الأعلى و اندفع الرجال من خلال المياه التى تتخلل البيوت لينقذوا الحاجيات التى فيها.

وصاح أحدهم و هو يقول «البيت يشتعل». فنظرت و رأيت السقف فوقنا آخذا بالاشتعال، و أصبحت الحرارة لا تطاق و اللهب يندفع نحونا و عندها صاح الرجل العجوز «أخرجوا و أنقذوا أنفسكم» فقفزنا إلى داخل الساقية و خضنا الماء و عبرنا إلى بيت آخر.

و لكن نحول دون التهام النار لهذا البيت، بدأنا برش السقف بالماء لكننا لم نستطع إنقاذه.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۴

التهمت النيران فى تلك الليلة (۱۲) بيتا فى قرية مبرد. و شاهدت البيت الأخير و رأيته كأنه محرقة يخرج منها اللهب. و أصبحت المياه المعتمة ترى كأنها ملونة بلون أحمر و ذهبى.

عبرنا إلى الجانب الآخر لنراقب الحريق. و كان الليل شديد الظلام و النجوم تسطع فى السماء الصافية و الهواء باردا من بعد حرارة اللهيب.

و ترى من كل مكان كوما من الرماد المتوهج و الرياح تحركها فيظهر اللهب من جديد.

رأيت الرجال الذين بذلوا جهدا كبيرا فى معركتهم مع النار، يتحدثون فيما بينهم بصخب و يحدثون الضوضاء و الضجيج. أما النساء فكن من بعيد يولولن و يندبن حظهن على فقدهن بيوتهن و ما يملكن من متاع.

و فى هذه الأثناء اقترب منا أحد الغرباء و قال «تعال و اشرب الشاى معنا صاحب». عدت إلى دار محسن و شاهدت فيها أفراد العائلة المنكوبة رقصة الحرب بين عشيرة الفرطوس

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۵

من الدار الأولى. فالأب فقد كوفيته، و الدشداشة تضررت من النيران. كما وجدت رجلا آخر صغير الجسم، عصبى المزاج، ذا وجه متجعد و شعر خطه الشيب، سنّه الأمامى مكسور و هو جالس بجانب الموقد و معه أولاده.

الولد الأكبر الذى عمره (۱۷) سنة مصاب بحروق بليغة فى كتفه.

و شاهدت فى الطرف الآخر من البيت امرأة عجوزا، شمطاء، جالسة تولول و تصرخ بصوت مسموع و ربما هى جدّة الأولاد.

كما شاهدت امرأة أخرى شابة جالسة لا تنبس ببنت شفة و قد احتضنت طفلا بين ذراعيها و طفلين آخرين بجانبها.

قال محسن الذى أعدّ الشاى «من حسن الحظ، ما اشتعلت النيران و نحن نيام مثل ما حدث فى قرية سعده فى الشهر الماضى و ماتت زوجة السيد مع طفلها بسبب الحريق». و أخبرنى الأب بأنه هو و أولاده كانوا فى البيت المجاور حينما بدأ الحريق «أنقذنا الأطفال و أردت أجيب البندقية التى كانت تحت الفراش فما وجدتها. أما ابنى على فاحترق. فقدت كل شىء- البندقية و ثمانية دنانير كانت فى الصندوق و المنام و الملابس و كل شىء آخر داخل البيت. أما هذه الليل فاحترق اثنا عشر بيتا. و مع ذلك نحمد اللّه على سلامتنا». قال ذلك و هو مستسلم للقدر.

كانت الجدّة تنتحب طوال الليل بأسره و لا أحد يهتم بها أو يلتفت إليها. نام الرجل بالقرب من ولديه الصغيرين بجانبى و شاركنى أحدهما بغطائى. نجت جواميسه و مشحوفه من النار، و تلك هى التى تهمه حقيقة.

شيّدت الأسرة لها بيتا جديدا بعدما بردت الأرض و ذلك بتوفر القصب المكدس بالقرب منهم. ساعده الناس من أهل القرية بتزويده بكمية من الدقيق و فرش النوم. و كانوا، كما بينت سابقا، قد أنقذوا بعض القدور و الكتالى. أما الشىء المهم الذى فقده فهى البندقية. و فى الصباح أعطيتهم بعض النقود كمساعدة تعويض عن بندقيته.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۶

غادرت القرية متوجها إلى قرية العويدية و هى قرية صغيرة من قرى عشيرة الفرطوس و التى سبق لى و زميلى دوكالد ستيوارت أن زرناها قبل سنة فوصلتها بعد ساعتين. و إلى أن وصلنا القرية، كنّا نجذف المشحوف عبر بحيرة صغيرة محاطة بقصب عال و من ثم

ندفع المشحوف بالمردى على امتداد مجرى ماء عريض.

و قبل الوصول إلى القرية و مشاهدة أول بيت من بيوتها من فوق القصب، كنا نسمع أصواتا صادرة من قرى الأهوار عبر المياه و هى همهمة أصوات كثيرة، و الضرب الممل لنساء القرية و هن يدققن القمح، و أصوات الجواميس و نباح الكلاب و الشيء الواضح جدا هو صياح الديكة.

و تنتشر بيوت القرية بين منابت القصب. و كان مضيف جاسم الفارس الصغير يقع فى الطرف البعيد منها، و هو يرتفع شامخا فوق الدبن عن سطح الماء، و الهيكل بأسره يميل نحو الباب. و أما جاسم نفسه، فهو رجل طويل القامة، نحيف الجسم، يرتدى دشداشة بيضاء، كان يقف فى المدخل.

أحببته من أول نظرة. وجهه ذو تجاعيد عميقة، و أنف مستقيم و فم ثابت و عينين تنمان عن العطف و الحنان، أسرع فالح، الابن الأصغر، و الذى ضيّفنا قبل سنة، و دخل الغرفة و جلب البسط و الوسائد.

قدّرت عمره بخمسة عشر عاما و هو جميل المحيّا و لكنه ذو طباع رديئة. يعانى من مرض الفطريات فى الرأس. و فروة رأسه كلها عبارة عن قطعة من القشرة اليابسة و هو يخفيها دائما و بعناية بالكوفية التى يضعها على رأسه. و رأيت فروة رأسه مرة حينما طلب منى معالجته.

إن هذا المرض شائع بين الأطفال. و يظهر أنهم يتخلصون منه بالتدريج حينما يبلغ الشاب من العمر (۱۴) سنة. و لكن الأكثرية تفقد شعرها بصورة دائمة نتيجة لهذا المرض.

مكثت عند جاسم الفارس مدة أسبوع، و سرعان ما شعرت كأننى فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۷

شخصان من عشيرة الفرطوس يصيدان السمك من بحيرة أم النبى

بيتى و أنا أعيش بين عشيرة الفرطوس، و عاملونى كفرد من أفرادهم. و هنا فى هذا البيت، كنا نشرب منذ البداية من قدح واحد. و كنا نخرج من الزورق صباحا و مساء و نذهب إلى البحيرة المجاورة و معنا فالح لنصطاد البط. كان البط البرى حذرا جدا لذلك وجب علينا أن نصطاد طائر الغراء، و مالك الحزين و الغاق و كلها طيور مائية يأكلها المعدان.

حاولت مرة أكل الغاق، لأنهم أكدوا لى بأن لحمة لذيذ، يشبه لحم السمك، لكننى لم أستسغه عندما تناولت لقمة واحدة فقط و بقى طعمها فى فمى طوال عدة ساعات.

و فى أحد الأيام، دفع فالح و ابن عمه المدعو داود الزورق و سرنا نحو البر الرئيسى؛ و سرعان ما تركنا القصب و دخلنا فى منطقة يغطيها مساحة أميال مربعة نبات البردى المتساقط. و شاهدنا النبات الجديد ينمو من خلال عشبة البرك للعام الماضى، لكنها لم تكن عالية بحيث تحجب نظرنا حتى و إن كنا فى بطن الزورق. كان المكان مليئا بالطيور، فطائر البكاسين (طائر طويل المنقار) يقفز و يطير من جانبنا و هو يرتفع على شكل خط متعرج. و رأيت عددا كبيرا من الطائر المخوض الصغير الحجم يمر من

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۸

حولنا. و رأيت طيورا كثيرة من الطيور المائية ذات الأطواق من الريش و الطير المخوض (شبيهة بطيور الكروان) و طيور الكروان و الطيور المائية ذات القوائم الحمراء و طيور النكات (طيور مائية طويلة الساقين) من بين الطيور المائية الأخرى التى لم أستطع تمييزها، تقتات من أرض موحلة مكشوفة. و هناك طيور مائية أمثال الطائر أبو ملعقة (طائر مائى منقاره على شكل ملعقة) و طائر الحارس (طائر مائى طويل الساقين و المنقار) و طائر البلشون الأبيض و مالك الحزين. بعضها رمادية اللون، و بعضها الآخر أرجوانية اللون. و لما سمعنا من بعيد صياح الوز، أطلقنا كلاب الصيد، فاصطادت لنا عددا من الوز الذى كان بارتفاع واطىء جدا فوق نباتات الأسل. و رأينا النسور العادية تحوم فوقنا.

بدأ فالح و داود بدفع المشحوف بواسطة المرادى من خلال نباتات الأسل بعد أن نزعا ثيابهما و لفّاها حول خصرهما.

كنا نأمل الوصول إلى البر الرئيسى، غير أن الطين اليابس الممتد لعدة أميال جعلنا ننفصل عن البر الرئيسى الذى يتكون من أرض مفتوحة واسعة يعيش عليها رعاة الأغنام من عشائر المنتفك فى خيامهم السوداء.

و سماهم فالح ب «العرب».

و وعدنى أن يأخذنى إليهم مرّة فى فرصة أخرى فقال «راح نزور محسن بدر، فهو أعظمهم شأنا. و هو صديق والدى. أخفاه والدى لما كان الإنكليز يبحثون عنه. ألم تسمع عن بدر؟».

لا يزال العرب يرددون القول «كريم مثل بدر». و ابنه محسن مثل أبيه، عد إلينا لما يرتفع منسوب المياه، وقت الفيضان. راح نروح

عنده».

و عنـد العودة، أطلقت عدة عيارات نارية على طائر السـحنون (طائر مائى) أرجوانى اللون و الذى أكّد لى فالح بأن لحمها جيد للأكل.

و هذه الطيور تشبه طائر الغاق من حيث الشكل و الحجم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۷۹

جاسم الفارس من عشيرة الفرطوس

طارت هذه الطيور من بين القصب، و كانت سيقانها الطويلة تتأرجح تحتها.

و فى فصل الصيف، تكون هذه الطيور مع طيور البط الرخامية اللون الوحيدة الملائمة للأكل.

و داود، الذى كان قليل الكلام، سألنى باسـتحياء عما إذا يمكن أخذه معى إلى مدينة العمارة حيث يقبع أبوه فى سجنها. قال لى «خدم والدى شيخ آل عيسى فى سيكال. بعثه فى أحد الأيام ليوقف ثلاثة أشخاص من عشيرة الأزيرج من الذين يسببون القلاقل. جاء والدى بهم إلى الشيخ الـذى بـدأ يجلـدهم بالسـياط. و بعـد مدة، هاجم هؤلاء الناس والدى فأصابوه حيث ضـربه أحدهم على رأسه بالهراوة فسقط على الأرض مغمى عليه.

و لما تشافى والدى حمل بندقيته و أخذ يبحث عنهم. فلما لقى الشـخص الذى ضـربه أطلق عليه النار فأرداه قتيلا. و بدلا من أن يحميه الشـيخ- اللّه يلعنه، نراه يسـلّمه إلى الحكومـة. حكموا عليه بالسـجن لمـدة عشـر سـنوات. و رجعت أنا و والدتى عند خالى جاسم حتى نعيش عنده.

حدث هذا قبل ست سنوات. و الآن أريد أن أشوف والدى».

كان داود صبيا غريب الأطوار، بشوشا اعتياديا و ثرثارا، يبقى صامتا من حين لآخر و يتأمل فى هدوء. و لما علم بأن جاسـما سيأتى معى ليرى أباه فى سـجن العمارة سـرّه ذلك و قال لى: «أنه يحب والده كثيرا و لم يشاهده منذ أن سجن. و انقطع عن الكلام منذ يوم سجن والده كما انقطع

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۰

عن الطعام أيضا لعدة أيام. و أخذ يتصرف فى السنة الثانية تصرفا غريبا لم يستطع أحد من الوقوف على كنه هذا التصرف، و أخذ يردد قائلا (داود ميت) كان علينا أن نأخذه إلى مزار فواده FuWada قبل أن يتشافى».

و كل مساء، يجـذف الرجال و الشـبان بمشاحيفهم قاصدين مضيف جاسم فيتركون المشاحيف فى المدخل و يأخذون أماكنهم حول جـدار الغرفـة. و كنا نمضـى وقتنا فى المرات الأولى فى أحاديث شتى. فى أحد الأيام اقترح جاسم بأن نمضـى وقتنا بالغناء. «إى و اللّه. بالغناء و الرقص» قال الآخرون كلهم بصوت واحد. «خلونا نتونس هل اليوم. وين خيّال؟

اليوم رجع من مبرد. وين الدنابك؟. اليوم نشوّف الإنكليزى شـلون المعدان يتونسون، روح فالح جيب الدنابك و الطنبورة. داود. روح شوف خيّال».

عـاد فالـح و معه دربكتان و جلب الآخرون طنبورتين. فالـدرابك مصـنوعة من الطين المفخور، شـكلها كالزهريـة، طولها مقـدار (۱۸) عقدة و قطرها (۸) عقد فى الطرف العريض، مغطاة بجلد رقيق. أما الطرف الثانى فهو مفتوح.

و خيّال هذا، الذى وصل لتوه، هو بعمر فالح و داود، غنّى عدة أغانى و كان فالح يدق على الدربكة.

انجذب الآخرون نحو الصوت، فجاءوا و هم يجذفون بمشاحيفهم قاصدين المضيف.

و كانت الغرفـة مكتظـة، فى هذا الوقت، بالناس فازدادت امتلاء كان صوت خيّال رخيما جدا و يملك ذخيرة من الغناء، بعضـها أغانى حقيقة تبعث على المرح و الحبور و بعضها الآخر أغانى حزينة.

ثم شـكّل خيال و فالـح و داود مع سـتة أشـخاص آخرين من الصبيان حلقـة دائريـة صـغيرة. و دافعوا إلى داخل الحلقة صبيين نحيفين، عفريتى المنظر و هما يمانعان و يحتجان على هذا التصرف لأنه طلب منهما أن يرقصا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۱

كـان هـذان الصبيـان أخويين فالأكبر بعمر (۱۳) سـنة تقريبا. و أخـذ خيّال أحـد الـدرابكى و أخـذ فالـح الآخر و بـدءا يـدقان برؤوس أصابعهما دقات سـريعة و بإيقاع مثير. و بدأ صبيان آخران يعزفان على الطنبورة. أما البقية فبدأ كل واحد منهم بدق الأصـبع و يضـرب بكعب قدمه الأيمن على الأرض.

بدأ الأخوان فى البداية بالدوران ببطء و بشـكل متراخ، كانت جسـماهما يتمايلان و أياديهما مرفوعتين إلى المرافق بمستوى الكتف. و لما بـدأ الإيقاع سـريعا، تـدلت أذرعهما إلى الأسـفل و بدأ جسـماهما يتلويان و يدوران و أقدامهما تتحرك إلى الأمام بشـكل سـريع.

يتحركان جانبا و إلى الخلف. أما الآخرون، فكانوا يغنون بدون تحفظ.

وصل الرقص إلى ذروته. و وقف الصبية فجأة. كانت أقدامهم متباعدة و أجسامهم تهتز نحو الأمام و نحو الخلف بحركات سريعة متواصلة من حضورهم. ثم بدأت الحركات تقل سرعة و أجسامهم تهتز عندما يمرر أحدهما عضلاته المتشنجة على عضلات الآخر. ثم توقف الصبيان عن الرقص و ابتسما للحضور ثم جلسا.

و لكن الحاضرين لم يتركوهما جالسين بل إنما طلبوا منهما أن يرقصا مرات عديدة. و كانوا يغيّرون الرقصة من شكل إلى آخر.

و فى المساء، بينما كان الحاضرون يرتلون تراتيل دينية، بدأوا يقلدون المسلمين فى تأدية الصلاة بحيث قام أحد الصبية بحركات غريبة غير مؤدبة خلف الشخص الذى يقلد الصلاة.

نظرت نحو سيّد كان قد اصطحب و لديه الكبيرين حتى أجرى لهما عملية الختان فى الصباح، و كان الثلاثة يرتلون أفضل من غيرهم و كنت اعتدت على ملاحظة الناس الأكثر تدينا بين المسلمين.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۳

۱۳- العداوة فى الأهوار

فى مساء اليوم التالى، و بعد أن خيم الظلام، جلست أنا و داود فى المضيف مع ستة أشخاص مرضى جاؤا إلينا حتى يأخذوا العلاج ثم يعودوا إلى بيوتهم دون أن يبيتوا هنا فى هذه القرية. و بوسعى أن أرى من خلال المدخل، النيران التى يشعلونها لوقاية جواميسهم من البعوض.

كانت أعمدة الدخان كثيفة و منخفضة، تندفع فوق سطح الماء. و بدأ البعوض بالظهور. و بإمكانى أن أتخيل، مع كون منابت القصب قريبة، بأن البعوض قد يجعل هذا المكان خاليا من الساكنين فيه فى فصل الصيف حتى و إن كانوا معدانا. كنت أسمع نقيق الضفادع من بعيد بإيقاع لطيف و ما كنت أصغى إليه إلى هذا الوقت، غير أنه لما تغيّرت النغمة و أصبحت على و تيرة واحدة أنتبهت عند ذلك إلى هذا النقيق. و لما أحسّ الآخرون بأننى أصغى إلى نقيق الضفادع قال داود «الحيّة اختطفت إحدى الضفادع، توجد أفاعى كثيرة حوالينا. قتلنا احداها من سقف الغرفة آخر مرة». و استمرّ النقيق على هذه النغمة الجديدة لفترة طويلة.

و بعد سنتين، كنت فى نفس المضيف خلال الصيف، و حاولت أن أحرك الهواء قليلا بمهفّة من القصب كانت بيدى لكننى شعرت بشىء ما خلفى. كنت على وشك أن أضع يدى على الأرض، غير أن شيئا غريزيا حذرنى بأن لا أفعل ذلك. فانحنيت إلى الأمام و نظرت إلى الأسفل

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۴

و شاهدت حيّة، لونها باهت، طولها قدمان فضربتها بالمهفّة على رأسها فأرديتها قتيلة. تكثر الأفاعى فى فصل الصيف، و يؤكد المعدان أن أكثرها سموما الأنواع التى يسمونها بالعربية و هو بطول أربعة أقدام تقريبا و له جسم ثخين، لونه أسود يميل إلى اللون الأحمر القاتم.

صادفت مرة حادثة لسع الحية حينما كنت فى جنوب العراق. حدث هذا فى شهر رمضان، شهر الصيام الذى حل فى فصل الصيف. و كنت قد وصلت القرية توا. كان أحد الرجال قد نوى على الذهاب إلى الكبيش و معه إبنته البالغة من العمر (۱۴) سنة لبيع الجبن الذى يصنعونه محليا.

و لكى يتجنبوا الحرارة نهارا أرادوا الذهاب قبيل الفجر، و حينما همت الفتاة بوضع قدمها داخل المشحوف داست على الحية التى كانت نائمة فى المشحوف فلدغتها فى الحال. ماتت الفتاة خلال نصف ساعة و رأيت لون وجهها قد تغيّر إلى السواد تقريبا. و لما نقلوا الجثة تدفق الدم الأسود من فمها و أنفها.

و يعتقد المعدان اعتقادا جازما بوجود وحشين مخيفين، هما، الحنفيش و الآفة كما لو أنه لا توجد أفاعى حقيقية كافية. فالوحش الأول، يشتهر بأن له جلدا يكسوه الشعر و الآخر له ساقان. و يقال بأن كلا الوحشين يسكنان فى أعماق الأهوار و هما وحشان قاتلان.

و بعد أن رفع فالح طعام العشاء، دخل المضيف رجل ذو وجه نحيف، طويل القامة، يده اليسرى ملفوفة بخرقة مبللة بالدم. و كان قد جرح يده جرحا عميقا حينما كان يجمع القصب.

كانت عيناه بلون الكهرمان الأسود، ينم مظهره عن هيئة شرير، جاء إلى هذه القرية من قبيبة و هى قرية كبيرة من قرى عشيرة الفرطوس، تبعد مقدار مسيرة ساعتين عن سيكال.

كانت عشيرة آل عيسى، تلك العشيرة التى تربى الأغنام و التى مكثت

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۵

أنا و زميلى المستر دوكالد ستيوارت فى خيامهم المنصوبة على حافة الصحراء، المسيطرة على قرية سيكال من قبل. و هى قرية واسعة، حولها أراض غنية، واسعة، تشتهر بزراعة الشلب.

و من هذا المكان احتلت عشيرة آل عيسى قرية قبيبة و بنت فيها حصنا صغيرا من الطين وضعت فيها قوة بقيت إلى أن ثارت عليها عشيرة الفرطوس الساكنة فى قبيبة و أستردت القرية منها.

و تشاء الصدف أن أمرّ أنا و زميلى دوكالد فى هذه القرية بسرعة بعد مضى سنة على ثورتهم ضد تلك العشيرة. و كان الجذافون من آل عيسى، يحملون بنادقهم و هى جاهزة للاستعمال و لا يتبادلون التحابا مع القرويين لأن هناك عداوة دم معهم.

و لما عرفت أن الرجل الذى ضمدت جروحه فى مضيف جاسم هو أحد رؤساء المتمردين بدأت أسأله حول المعركة التى دارت بينهم فأجابنى و هو فى غاية الحماس «آل عيسى ما لهم حق بهل المكان. ما هم معدان بل رعاة أغنام من الصحراء. قبيبة هى قرية فى الأهوار تعود إلى عشيرة الفرطوس. آباؤنا بنوا الدبن فيها. و من اليوم اللّى استولى فيه شيوخ آل عيسى على قبيبة ما خلت من القلاقل. معظمنا ترك القرية و شيدنا دورنا فى مكان آخر. ليش نطرد من بيوتنا؟».

فقال أحد الأشخاص الحاضرين «إى و اللّه. ليش نطرد من مكاننا؟.

اللّه يلعن آل عيسى».

ثم استطرد قائلا [و لهذا السبب قررنا أن نقاتلهم. طوقنا الحصن ليلة الثانى عشر من شهر قصير Qusair ، و بعد ثلاث ساعات من مغيب الشمس بزغ القمر فأنار بأنواره الفضية المنطقة بأسرها. كنا نعرف أن فى الحصن ستة أشخاص و فيها رئيسهم المدعو فليح. أرسلنا إليهم الزائر على العجوز ليخبرهم بأن يستسلموا، لكنهم أبوا و صاحوا قائلين لنا أنتم المعدان،

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۶

كلاب أولاد كلاب، إذا تقربتم سوف نقتلكم. و عند ذاك هجمنا عليهم من جميع الجهات بمشاحيفنا و نحن نصيح صرخة المعركة (أنا أخو عليا)].

و نظرت فى هذا الوقت إلى المستمعين فوجدتهم قد أمالوا أجسامهم إلى الأمام مأخوذين بسحر حكاية الحرب العشائرية، و لا بدّ أن معظمهم قد سمعها عشرات المرات.

و واصل سرد المعركة فقال [كان عندهم رشاشه. أخذت الإطلاقات تتساقط كالمطر و تقطّع القصب. و الحمد للّه. كان العبد الذى يطلق النار رامى غير جيد و إلّا كان الكثير منا سيقتل فى تلك الليلة. قفزنا من مشاحيفنا و هجمنا على الحصن. و كنا قد قتلنا منهم رجلين ببنادقنا قبل دخولنا الحصن. ثم قتلنا رجلين آخرين بخناجرنا. أصبحنا مزدحمين داخل الحصن عندما أطلق الرجلان الباقيان من آل عيسى إطلاقات من خلال أرضية الغرفة التحتانية و أصاب أنف أحد رجالنا. صاح المجروح «أصابونى من فوق»، أطلقنا النار نحو السقف و قتلنا الآخر. بقى فليح وحده حيا.

صحنا عليه بأن يستسلم. لكنه رفض، إنه رجل شجاع فى الحقيقة. تسلق بعض الرجال من أتباعنا الدرج فرماهم و قتل شخصين منهم و كانا أخوة، ثم صاح صيحة المعركة وقفز من السقف، لكنه سقط على الأرض بعد أن أصبح جسمه كالغربال من رصاصاتنا، كان ابنه الصغير معه فطلب منا الرحمة فمنحناها له، إنه لا يستحق الموت، إنه الآن فى سيكال مع شيوخ آل عيسى. قتل اثنا عشر رجلا من عشيرة الفرطوس فى هذه المعركة].

و لما توقف عن سرد الحكاية، قفز فالح من بين الجلوس و أخذ يضرب الأرض بقدميه و ينشد و يقول:

«يا أم كريّم لا تنوحى كريّم وكع بعز المعركة»

و ما هى إلّا لحظات حتى نهض الجميع و أخذوا يدورون على شكل حلقة و يضربون الأرض بأقدامهم و يرددون تلك الكلمات التى قالها فالح.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۸۷

خرج فالح ثم عاد و معه بندقية و بدأ بإطلاق عدة عيارات نارية متقطعة باتجاه السقف فشاركتهم فى حماسهم هذا و أطلقت عشر اطلاقات من بندقيتى. و اندفع أناس آخرون إلى الغرفة فازداد هدير الأصوات و علا الصراخ. و أخيرا، توقفوا بعد أن أعياهم التعب و أنهك قواهم.

سألتهم من هو كريّم. فأجابوا بأنه هو الشخص الذى قتل أثناء قيادة الهجوم على الحصن. و بعد ثلاث سنوات، ذهبت إلى البر الرئيس و مكثت لدى آل عيسى. و عند غروب الشمس شاهدت الهلال، و هذا معناه بداية شهر جديد بطول شهر رمضان.

و فی الیوم التالی، تجمّع أفراد العشیرة المبعثرون لیعلنوا ولاءهم لشیخهم و یتناولوا طعام الولیمة فی خیمة الضیوف الکبیرة.

بدأ الرجال یتقاطرون منذ وقت الفجر من السهل عبر الصحراء.

بعضهم علی ظهور الخیل و بعضهم الآخر راجل. و کل جماعة لها علم قرمزی خاص بها.

و بعد أن تجمعوا، بدأوا بالألعاب علی ظهور الخیل. فبعضهم یهجم و الآخرون یصدون الهجوم. بینما کان المشاة قد شکلوا حلقة و بدأوا یدورون و یضربون الأرض بأقدامهم و یطلقون النار من بنادقهم و هم ینشدون:

«راح نرجع للمای المکشوفراح نروح و نجیب ویانا فلیح»

و تذکرت هذه اللیلة قصة موت فلیح علی ید أحد رجال عشیرة الفرطوس.

و فی وقت مبکر من صباح الیوم الثانی ودعت جاسما. جاء معی داود و معه شخصان من إتباع جاسم، یحملان البندقیة، سلکنا طریقا ضیقا بین القصب العالی، لأن المیاه مسدودة بسبب النباتات المائیة و الأعشاب الأخری المتشابکة و التی کانت تبدو للعیان کأنه طریق مکسو بالطحلب.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۸۸

لقی الجذافون صعوبة و مشقة حتی یضعوا المرادی علی المشحوف و یدفعوه من خلال هذه النباتات المتشابکة.

و فی هذا الوقت مررنا بقریة قبیبة فوجدتها قریة واسعة تحتوی علی (۳۰۰) بیت ثم وصلنا إلی المجری الصغیر للبحیرة. و تقع خلفها حقول الشلب علی الضواحی الغربیة لقریة سیکال. و تقع البحیرة علی شرق القریة و هی بعرض (۳- ۴) میل و تفصل الأهوار عن البر الرئیسی.

و فی هذا الوقت من السنة، تمتد البحیرة إلی مسافة (۱۵) میلا تقریبا نحو أراضی عشیرة الأزیرج. و تتصل هذه البحیرة بعدئذ عند ارتفاع منسوب المیاه بسبب الفیضان بالأراضی المغمورة بالمیاه فتغطی معظم أجزاء الصحراء.

وجدت قریة سیکال أکبر القری التی شاهدتها إلی الآن. یمر من بینها مجری ماء عریض فیقسمها إلی قسمین. و علی کل الجانبین من کل قسم شریط ضیق من أرض یابسة علیها عدد من المضایف و الدکاکین علاوة علی (۴۰۰- ۵۰۰) بیت مبنی علی طراز بیوت المعدان فوق الدبن. و هناک حصن مبنی من الطابوق یسیطر علی المدخل الشرقی للقریة.

أقام هذا الحصن آل عیسی علی عجل حینما أخذت عشیرة البو محمد تهدد القریة. و بإمکانک أن تری الشقوق علی أسواره. و علی الجهة المقابلة، علی الساحل الجنوبی، بنایة ذات سطح مستوی مبنی بالطابوق، غایتهم منها الدفاع عن القریة عند نشوب القتال. و تری عددا من الغرف مبنیة حول ساحة صغیرة. و علی بعد (۳۰) یاردا، فوق لسان الأرض الیابسة الممتدة نحو البحیرة ینتصب مضیف فاخر فیه (۱۱) قوسا. و کلاهما یعودان إلی عبد الله عم الشیخ فرید و ممثله فی سیکال. أما الشیخ فرید نفسه فإنه یعیش فی البر الرئیس مع أسرته و أتباعه. و أما بقیة المساکن فی القریة فإنها تعود إلی بعض أفراد أسرة الشیخ فرید و أتباعهم و معهم أفراد ینتسبون إلی

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۱۸۹

عشیرة الفرطوس و عشیرة الشغابنا کما یتواجد فیها عدد قلیل من عشیرة البو محمد و الأزیرج. کان عبد الله خارج القریة فی هذا الوقت، و لکن إبنه طاهر کان فی البیت، و هو صبی میّال إلی الصداقة، یبلغ من العمر (۱۶) سنة و یتحلی بصفات عرب الصحراء الحسنة.

أخذنی إلی المضیف، فوجدت فیه عددا من الرجال المسلحین و هم جلوس و قد لفّوا العباءات السوداء حول أنفسهم. و هؤلاء من أتباع آل عیسی جاءوا لفرض الزیارة من البر الرئیس من الصحراء. و بعد أن شرب الشخصان اللذان من أتباع جاسم الرشفات المعهودة من القهوة عادا إلی قریتهما العویدیة لأنهما من عشیرة الفرطوس و یکرهان آل عیسی کرها شدیدا.

أما داود فإنه کان فی مأمن بما فیه الکفایة فی سیکال، طالما والده المدعو هاشم لا ینتمی إلی عشیرة الفرطوس بل إنما ینتمی إلی عشیرة الجاره Jara، و هی عشیرة صغیرة، ضعیفة، موزعة علی شکل مثنی و ثلاث من قری الأهوار. أما إذا عبر عشیرة الأزیرج فإنه سیکون فی خطر لأن أباه هاشم قد قتل أحد أفرادها.

و الآن، و بعد أن شعر عبد الله بأنه یقوم مقام والده، جلس ساکنا لا ینبس ببنت شفة یعبث بحبات المسبحة و لا یستجیب إلی محاولات طاهر الذی یحثّه بأن ینهج نهجا ینم عن الصداقة.

أنهی هاشم محکومیته و أطلق سراحه من السجن و عاد إلی قریة العویدیة لیستقر فیها. و بدأت أتعرف إلیه. فوجدته من أهم الشخصیات الجذابة التی صادفتها بین المعدان. عمره (۴۰) سنة، إلا أنه یبدو أکبر من هذا العمر بکثیر، لأن السنوات العشرة التی أمضاها فی السجن قد خطت الشیب فی رأسه وجعّدت وجهه. و هو علی الرغم من کونه فقیر الحال و معدما فإنه کان یلح کثیرا

على أن يضيّفنى. أعلمنى بالشىء الكثير عن المعدان، و عن عاداتهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۰

كان لا يزال متورطا فى العداوة مع الأزيرج، لأن المدة التى يقضيها المرء فى السجن لا تجعله يقلع عن القيام بالقتل كما يرى ذلك كل فرد من أفراد العشيرة بل إنما يرون أن القتل لا يمكن تسويته إلّا بقتل آخر أو بدفع الديّة.

كانت العشيرة التى ينتمى إليها هاشم قليلة العدد جدا و منتشرة فى أماكن عديدة يصعب جمع المال منها لدفعها كديّة إذا ما أرادت عشيرة الأزيرج قبولها.

و على أية حال، إنه فى أمان تماما من الانتقام ما دام يعيش الآن بين عشيرة الفرطوس فى قرية العويدية. و لكن، من سوء حظه حثوه على ترك القرية. و فى الوقت الذى كان فيه هاشم يمضى محكوميته فى السجن كان أخو زوجته المدعو جاسم قد زوّج ابنة هاشم إلى أحد أفراد عشيرة البو محمد و أخذ مهرا قدره (۷۵) دينارا. و صرف جاسم، كما هى العادة المتبعة بينهم، قسما من النقود لشراء مستلزمات العرس لتحملها العروس إلى بيتها الجديد. و لما خرج هاشم من السجن طلب بقية المبلغ من جاسم الذى ادعى أنه صرفه لا عاشة عائلته عندما عاشت فى داره.

و فى هذه الحالة، وفقا للعرف العشائرى، بإمكان الوالد أن يعيد ابنته المتزوجة إلى بيته حتى إن كان ذلك ضد رغبات ابنته و حتى إن رزقت طفلا من زوجها. و على الوالد، فى مثل هذه الحالة، أن يعيد المهر كاملا إلى الزوج.

مارس هاشم هذا الحق على الرغم من أن إبنته قد رزقت بطفل.

و جاء الزوج إلى هاشم يطالبه بالمهر فأجابه بأن يأخذها من جاسم. و لما لم يحصل الزوج على أى شىء من جاسم أقام الدعوى ضد هاشم فى الدوائر الحكومية.

بعثت الحكومة بشرطيين لجلب هاشم إلى مدينة العمارة لإجراء التحقيق معه. و كان هذان الشرطيان من عشيرة الأزيرج- و لا ندرى إذا كان

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۱

هذا من سوء حظه أم أن الأمر مدبر، و خصوصا أن أسرة القتيل حكّمت بأن يكون طريقه من أراضيهم.

و حينما علم هاشم بالطريق الذى سيسلكه احتج بشدة و رفض سلوك هذا الطريق، لكنه استسلم للأمر الواقع بعد أن أكد له الشرطيان بأن لهما واجبا يجب إنجازه فى هذا الطريق و أنه سيكون فى مأمن تماما طالما هو فى معيتهما.

توقفوا فى السوق الطويل، و نزلوا من الزورق و تناولوا الغذاء فى مركز الشرطة، و لما خرجوا حتى يواصلوا السير وجدوا الجماهير قد احتشدت أمام مركز الشرطة.

تقدم فى هذه الأثناء أخو القتيل نحو هاشم حاملا مسدسه الذى استعاره من الشيخ و أطلق النار عليه فأصابه فى صدره. و سحب هاشم خنجره ليهجم على من أطلق النار إلّا أن قواه انهارت و سقط على الأرض.

و بعد أن أطلق القاتل رصاصتين ولّى هاربا. و تظاهرت الشرطة بالمطاردة و تعقب الجانى. أما هاشم فبقى ممددا على الأرض، تنزف منه الدماء إلى أن مات و لم يقترب منه أحد.

عادت الشرطة بعد ساعة و نقلته إلى المركز و كان لا يزال يحتفظ بوعيه فاتهمهم بقتله و فارق الحياة بعد ذلك.

رأيت داود بعد ستة أشهر من مقتل والده. وجدته قد اشترى مسدسا.

كان ينطلق لوحده إلى أراضى الأزيرج حتى يجد غريمه الذى قتل والده.

كان داود شخصا موفورا، و يبدو أن الصدمة قد أثرت عليه فأصبح مرتبكا، و حاولت أن أثنيه عن عزمه، و أمنعه من الذهاب وحيدا إلا أنه كان عنيدا يرفض محاولاتى و يقول كلمات لا معنى لها مثل «داود مات قبل عشر سنوات».

لم أشاهده مرة أخرى أبدا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۳

۱۴- العودة إلى قباب

أخذنى طاهر بطرادة إلى البحيرة عند العصر، فتجولنا بين المناطق المحيطة بنا و تمتعنا بمناظر خلابة، تدخل البهجة و السرور إلى النفس، و بعمله هذا برهن طاهر على أنه رفيق قابل للانسجام.

كان يصطحب معه صبيا صغير السن، هادىء الطباع، عاداته حسنة، يرتدى عباءة مطرزة بخيوط ذهبية. و حسبت فى البداية أنه من

أقارب طاهر، و لكن عرفت فيما بعد بأنه ابن فليح. و هذا الصبى هو نفسه الذى كان مع والده حينما قتل فى المعركة فى قرية قبيبة.

عدنا إلى المضيف عند الغسق، و لما دخلته، شاهدت مجموعة من الخفافيش (الوطواط) تطير و هى خارجة من القرية باتجاه الأهوار. يبدو أن هذه الخفافيش تختفى فى سقف المضيف فتتوسخ الغرفة من فضلاتها المتساقطة. و أن وجود العصافير داخل السقف يسبب ازعاجا و يحدث أضرارا لأنها تمزق رباطات القصب حول الأطواق. لكننى، ما اكتشفت أبدا لماذا و كيف تفعل هذا.

و فى السنة الثانية، حينما جئت إلى هذه القرية، جلبت معى بندقية هواء مضغوط من إنكلترا و هى من الأسلحة المستعملة للتسلية و اللعب.

و أريتهم كيف أنها لعبة مفيدة مع الأشخاص الغرباء الذين اعتادوا المجيء إلى المضيف. و لما أخرجتها تجمع حولى الرجال و بينهم المسنون ليجربوا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۴

مساكن المعدان من قرية قباب

الرمى بها. و بوسع المرء أن يحصل على علاقة طيبة مع غيره إذا ساعدهم على قتل شىء ما.

و فى الصباح الباكر من اليوم الثانى خرجت مع داود لنذهب إلى قرية العكار. و لما بدأنا نجذف عبر البحيرة ذات المياه الفضية، شاهدنا طيورا مائية رمادية اللون، تشبه العصافير تقذف نفسها على المياه اللمّاعة. كما شاهدنا عددا من البط، تجمعت حتى تبدأ بالهجرة الربيعية فطارت عندما اقتربنا منها.

و وراءنا، فى قرية سيكال، كانت المشاحيف تسير ببطء و بدون أن تحدث أى صوت بين البيوت التى أستيقظ ساكنوها. و كلما ابتعدنا كنا نشعر و كأن القرية تغوص فى الأفق.

و اصلنا السير إلى أن لاح لعيننا مضيف عبد الله و عرفنا مكانه. إذا، نحن خلف عالم الأهوار المسدود حيث تنمو نباتات القصب الجديدة، ترتفع فى نموها خلال الأيام القليلة القادمة فتصبح عالية بين النباتات القديمة.

و بعد مضى ساعتين وصلنا فجأة إلى مياه مفتوحة، رأينا فى وسطها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۵

جزيرتين تابعتين لقرية العكار. فالجزيرة الكبيرة تعود إلى الشغابنا. فيها ما يقرب من (۲۵۰) بيتا، متراصة و متقاربة بعضها من بعض بحيث لا يمكن رؤية أى جزء من الجزيرة.

أما الجزيرة الصغيرة فإنها تبعد مقدار (۱۰۰) يارد، فيها ثلاثون بيتا و هى تعود إلى بعض أهالى البو محمد. و تدين كلتا الجزيرتين بالولاء للشيخ مجيد الخليفة. نزلنا إلى الشاطىء، و واصلنا سيرنا، فاجتزنا حاجزا واطىء الارتفاع مؤلفا من كومة من الأسل المشبّع بالماء. ثم دخلنا الربعة فرحّب بنا رجل يدعى يونس.

كانت الربعة واسعة. و أما يونس فإنه رجل نحيل الجسم، ذكى، ذو وجه نقى، تظهر عليه علامات الصداقة و لو أنه متحفظ الطبيعة.

كانت الغرفة مزدحمة بالجالسين. يجلس فى صدر الغرفة رجل سيّد جاء من القرنة. فانتهز الفرصة حينما بدء بجمع المال لفرض بناء جامع فى القرنة على ما يبدو ظاهريا فأخذ يحذر مستمعيه و يذكّرهم بيوم القيامة، يوم الحساب و أنه يوم قريب. و إنه يخشى عليهم من أنهم لن يستطيعوا أن ينقذوا أنفسهم من الذنوب التى ارتكبوها بسماحهم لشخص كافر يدخل بيوتهم و يدنسها. كنت أشعر أنه مستاء من وجودى هنا، أما يونس الذى كان يعدّ القهوة فإنه بقى صامتا. و عندما أصبحت القهوة جاهزة، نهض و الدلّة بيده و التفت نحو السيّد و قال: «أنا شخص معيدى بسيط، ما أعرف من أمور الدين شىء، لكن، دائما أشوف الإنكليز هم ناس أصفى منا قلبا بكثير. بعض الناس إلتقوا وياهم. و كلنا سمعنا عنهم من اليوم اللى حكموا هذه الأرض من بعد طرد الأتراك. هم ناس ما يكذبون، و لا يأخذون الرشوة، و لا يضطهدون الفقراء. و نحن المسلمون، كما تعرفون، نفعل كل هذه الأشياء. و هل حچى ماله علاقة بالموضوع. فهذا الإنكليزى هو ضيفى. مرحبا يا صاحب موجها كلامه إلىّ ثم واصل حديثه قائلا «فى بيتى يشرب الضيوف من نفس الفنجان. هاى هى عادتى، و كلمن ما يعجبه مثل

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۶

هذا العمل خلّى يبتعد عنى ثم جاء نحو المكان الذى أجلس فيه و أعطانى فنجان قهوة فى الفنجان الوحيد الذى بيده. و لما اكتفيت صبّ القهوة فى الفنجان و أعطاه إلى الشخص الثانى و هكذا حتى شرب الجميع ما عدا السيّد.

و من بعد هذه الحادثة، جاء سيّد من العكار و دخل الغرفة. و هو رجل مسكين، أمضى معظم حياته فى قطع القصب علفا لجواميسه القليلة العدد، و هو يشبه المعدان الآخرين المعدمين، لكنه يتميز عنهم بوجود قطعة خضراء من القماش على رأسه.

جلس بجانبى، و استفسر عن أحوالى عدة مرات. و أظن أنه كان قد سمع عن تصرّف زميله السيّد الآخر و يريد باشتياق أن يصلح ذلك التصرف.

و بعد تناول العشاء قال ليونس «أسمع بأن الصاحب يحب الغناء و الرقص، اسمحوا لى أن أراويه شلون يرقص الناس فى الحجاز، أرض أجدادى». فأدى رقصة فاخرة كان يدور فيها على قدم واحدة. و هذه الرقصة تختلف تماما عن رقصة المعدان».

إننى معجب جدا و مغرم بالإيماءة، لذلك كنت أجد متعة و لذة حينما يرقصون. و أعتقد أن ذلك السيّد هو الشخص الوحيد الذى كان فظا معى، على الرغم من أننى كنت ألتقى بأناس كثيرين فأجد أكثرهم متحفظين حينما ألتقى بهم لأول مرة و لكنه يتخلون عن هذا التحفظ بمرور الوقت حتى أصبح عدد منهم منم أقرب أصدقائى. و كثيرا ما كنت أعالج نساء بعض الشخصيات البارزة و أولادهم كما كنت أجرى عملية الختان. و كانوا يتمنون أن يجريها لهم شخص مسلم.

و فى صباح اليوم التالى، إقترح يونس بأن نتفرج على حفلة العرس فى ربعة واسعة تقع بالرقص، جاءوا به من المجر. و كنا نسمع فى بعض الأوقات من مكان بعيد أصوات الغناء و الضرب على الدرابك.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۷

كان هذا الصبى يرتدى ثوبا نسائيا قرمزى اللون، فيه خيوط تحاكى اللآلىء، يضع فى أذنيه أقراصا ذهبية، مشّط شعره و عطره و رتّبه بحيث جعله يتدلى على كتفيه. أما صدره فقد حشا بحيث يظهر كالنهدين و زيّن وجهه بالمكياج، فظهر كأنه فتاة فتانة الحسن و أخذ يتصرف بتكلّف بأسلوب المرأة. و وجدته يجيد الرقص تماما. استعمل زوجان من الصنج فى كل يد، و هذه هى علامة الراقص المحترف، لأننى لم أر أى شخص آخر فى القرية يستخدم الصنج. و الغريب أن إيماءاته كانت غير مثيرة. على عكس إيماءات الصبية الآخرين فى قرية العويدية، و كانت أكثر رقصاتهم أشبه بعرض جنائزى من نوع راق. و التعليقات التى سمعتها كثيرا عنه جعلتنى على يقين من أنه ينزع نزعة أخرى.

قرية قباب- الجواميس تهجع من وقت الظهيرة

لا توجد بين العشائر نساء متحررات أو من نوع آخر. و لا يحتاج المرء إلّا لشىء قليل من الإثبات حتى يدين الفتاة بتهمة تبقى تلازمها. أو أن مجرد إشاعة هى كافية لهذا الغرض و تناول القتل على يد أسرتها بدون رحمة أو شفقة و ذلك حتى تسترد تلك الأسرة شرفها بمحوها العار الذى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۸

لحق بها، و ينتقل واجب تنفيذ القتل إلى أخيها و الذى لا يمكنه تخلصيها إذا ما أراد البقاء بين عشيرته.

لا يستطيع الصبى أن ينام مع الفتاة أو حتى لا يستطيع ملاطفتها إلى أن يتزوجها.

فالصبى الذى يتزيا بزى فتاة هو السىء المحترف فى المدينة.

و المعدان يصفونه بذلك. و لكننى ما سمعتهم أبدا يتباحثون باللواط، لا نظريا و لا بإشارة خاصة لأى رجل أو ولد فى مجتمعهم.

و بعد انتهاء الرقص أخذنى يونس إلى ساحة حيث تجديد زورقه. و لا تدوم عملية التجديد و وضع الغار طويلا بحيث لا تتجاوز السنة الواحدة.

ثم تبدأ الشقوق بالظهور على هيكل الزورق لذلك يسحبونها إلى خارج الماء.

يمكن سّد هذه الشقوق بصورة مؤقتة بتسخين القير بالقصب. و يؤكد لنا المعدان على الدوام من أن الطبقة القيرية التى توضع فى جو بارد لا تدوم طويلا بقدر ما تدوم الطبقة القيرية التى توضع فى فصل الصيف.

رأيت داخل السياج أو الحاجز القصبى عددا من الزوارق سحبت من المياه لتجديدها. فكانت إحداها مقلوبة و قد انتهى الصبيان الصغار و ربعة من عملية وضع القار فى القعر و الجوانب.

رأيت الساحة كلها مفروشة بقطع من ألواح الخشب و بزوارق مهمشة تفوح منها رائحة القار الحار.

صاح أحد الصبيان قائلا: «على. يونس هنا». فخرج رجل عجوز، يرتدى دشداشة قذرة، من أحد البيوت. فسأله يونس: «هل انتهيت من عمل زورقى؟». فأجاب على قائلا: «لا. لم أنته بعد من العمل. راح يخلص بعد شوية الفروخ على وشك أن يقشروها». ثم فرش حصيرة قبالة جدار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۱۹۹

بيته و قال: «اجلسوا. ارتاحوا إلى أن ننتهى من العمل». ثم نادى على أحد الصبية و قال له «حسن. إبنى. روح و قل لهم خلّى يسوون شاى». قلت له بأننا شربنا الشاى لتونا فى بيت يونس و شربنا منه الكثير عند مشاهدتنا للرقص. لكنه أصرّ و قال «ما يخالف. إشربوا بعد».

ثم ذهب ليفحص الزورق.

كانت الألواح الخشبية المكشوفة مليئة بالثقوب و الشقوق. فأخذ يختار من القطع الصغيرة المبعثرة على الأرض قطعا يرقّع بها بحيث يجعلها تتلاءم مع الثقوب و الشقوق ثم يثبتها بالمسمار. ثم سكب الصبى الأكبر القار المغلى بواسطة المجرفة فى قعر الزورق ثم أخذ على يفرشها بسمك ربع عقدة. و لما انتهى من عمله، بدا الزورق للعيان كأنه زورق جديد، أسود اللون، ناعم الملمس و لمّاع.

جاء على و جلس بجانبنا و أشعل سيكارة و قال «انتظر شويه حتى تأخذ الزورق معك». ثم بعث حسن ليأتى بالمجاذيف. و كنت قد لا حظت أن جميع الزوارق ترسو ليلا بعيدا عن البيوت، و على بعد مائة يارد فى الهور.

فسألت عن السبب فقيل لى حتى تبقى سالمة لعدم وصول الجواميس إليها و تأكل القار- هذه عادة تتبع فى بعض القرى و ليس فى كل قرية.

و لهذا السبب، يستفسر المعدان حينما يصلون إلى قرية غريبة عما إذا كانت الجواميس تأكل القار أم لا. كانت سمعة جواميس العكار سيئة من هذه الناحية. و كما قال لى من أن القار يأتيهم من مدينة هيت الواقعة على نهر الفرات و القريبة من بغداد. و لما كنت فى هذه المدينة فى إحدى المرات، شاهدت البرك الصغيرة من القير حيث تظهر الفقاعات المذابة منه لتخرج إلى الأرض. و بعد أن تبرد، ترسل على شكل قطع صلبة إلى المكان المطلوب و هى أشبه بقطع الحصى المتكسرة المفروشة على سطح الطريق.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۰

صبى من عشيرة الفريجات من قرية قباب

لا توجد أخشاب صالحة للزوارق فى جنوب العراق. و يفضل صانعو الزوارق خشب شجر التوت يجلبونها من كردستان ليصنعوا منها أضلاع الزورق. و أما الألواح الخشبية المستعملة فى صناعة الزورق فهى من الخشب المستورد من خارج الوطن.

و هنالك صنّاع محترفون، مهرة، مثل على فى كثير من القرى الكبيرة فى الأهوار و حولها. و فى الهوير الواقعة على نهر الفرات، و التى تبعد عدة أميال أسفل قرية الكبيش، يولى الناس كلهم اهتمامهم لهذه الصناعة فلا يصنعون الزوارق فقط بل إنما يصنعون القوارب الكبيرة ذات الصاريين.

فالحاج حميد الذى يسكن هناك أكثرهم شهرة فى هذه الصناعة.

و طراداته التى يصنعها هى أشهر من نار على علم فى كل هذا الجزء من القسم الجنوبى من العراق و لكن هناك عدد قليل من الناس ذوو صناعة جيدة تقريبا و مشهورة. و بإمكان المعدان معرفة الشخص الذى صنع هذه الطرادة حالما ينظرون إليها.

إن سكان الهوير هم جميعا مسلمون، و لكن فى أماكن أخرى تجد معظم صانعى الزوارق من الصابئة.

و لو أن الصابئة جاء ذكرهم ثلاث مرات فى القرآن مع النصارى و اليهود بأنهم من أهل الكتاب فإنهم يعرفون باسم الصبّة. و هم محتقرون بشكل عام. و لا يأكل أى مسلم أو يشرب معهم. و دينهم يمنعهم من بتر أى عضو من جسمهم، و لذلك فهم لا يجرون عملية الختان. و يمكن تمييزهم من لحاهم الكبيرة و من كوفيتهم ذات الترابيع الحمراء و البيضاء.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۱

هنالك عدة آلاف من الصابئة، معظمهم يسكنون بغداد و البصرة و سوق الشيوخ و العمارة حيث يشتهرون فى هذه الأماكن بالصناعات الفضية. و تعيش أسر منعزلة فى قرى إسلامية تقع حول الأهوار. و أن البط الذى يتواجد فى المزارع علامة على وجودهم، لأن المسلمين، لأسباب لا تحصى، يأكلون البط البرى و لا يأكلون البط الداجن.

يمارس الصابئة التعميد، فيغطسون فى الماء كل يوم أحد و عندما يصبهم الدنس و إلّا فإنهم يخرقون قوانين طهارتهم الدينية. و لهذا السبب يعرّفهم الأوروبيون الذين لا يجهلونهم بأنهم مثل مسيحيى سانت جون.

و فى الحقيقة هم وثنيون و لو أنهم يعبدون اللّه. و يشتمل دينهم، كما أفهمه، على مبادىء من المذهب الآلى و ليس على مبادىء إسلامية و إن لغتهم الشعائرية هى اللغة الآرامية.

و فى الأهوار، يضع الأطفال الأطواق الصغيرة فى حزم من نبات مائى يسمى عشبة البرك و يحولونها أحيانا إلى شكل سفينة و يجذفون حول القرية بمثل هذه الصناعات البدائية (راجع الألواح من ۴۶- ۴۹).

و شاهدت مرة نوعا من قارب صغير ممتع يسمى زيمة على فرع من نهر الفرات تحت سوق الشيوخ. و هذا القارب مصنوع من القصب و مطلى من الخارج بالقير، طوله (۱۰) أقدام تقريبا و عرضه فى أوسع مكان قدمان و نصف و قال لى صاحب القارب بأنّ الزيمة تدوم لمدة سنة فقط لأنه لا يمكن تجديد طبقة القير و بيّن لى كيف يصنعون هذا القارب. عمل أولا ست رزمات محكمة الربط من القصب، كل رزمة مؤلفة من (۵- ۶) قصبات. و طول كل قصبة أطول من القارب المزمع صنعه. ثم يربطها بأحكام سوية بحيث يصنع

الواحدة بجانب الأخرى حتى تشكّل عارضة القارب الرئيسة. و يترك مقدار (۱۸) عقدة سائبة من كلا الطرفين حيث يثنيها إلى الأعلى. ثم ثنى خمسة عيدان طويلة من القصب على شكل الحرف

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۲ (U)

فى مكان يقع بعد منتصف القارب و بين النهايات السائبة من العارضة ثم ربطها مرة أخرى بالعارضة نفسها. يكرر هذه العملية من كلا النهايتين بالتعاقب إلى أن يبنى جوانب و نهايات هيكل القارب.

و يقوّى هذا الهيكل بربط عدد من الأضلاع المعمولة من غصنين أو ثلاثة من شجر الصفصاف. ثم يضع على طول بطن القارب حزما من عدد قليل من القصب، يثبت الواحدة تحت الأخرى. و يغطى النصف العلوى للأضلاع و يشكل الألواح الداخلية.

و أخيرا يدخل ثلاث عصى قوية عبر القارب بالعرض و يضبط نهاياتها فى مكان و يضع عليها مقدارا كبيرا من القير. تصبح الزيمة الآن جاهزة للطلاب من الخارج بالقير. و فى الوقت الحاضر، يملك حتى أفقر المعدان قوارب خشبية. و لكن فى الماضى كانت المواصلات محفوفة بالأخطار و من الصعب الحصول على الخشب لذلك استخدم الكثيرون مثل هذا النوع من القارب. و يسمون القارب المدور الشكل ب (القفة) و هى شائعة الاستعمال حول مدينة بغداد، و شاهدت إحداها من أبعد مكان تحت مدينة الكوت، بالقرب من شيخ سعد.

و من قرية العكار قررت العودة إلى قباب، حيث يمكننى منها أن أبعث داود حتى يخبر عماره بقدومى.

رافقنا اثنان من أبناء أخوة يونس. أحدهم يجرف القارب بطريقة غير متقنة كلما يدفعها بحيث يتدفق الماء من الجوانب. و سرنى حينما سمعت الآخر يسأله باستهزاء «هل أنت عربى؟. هل أنت كردى؟» يقصد ضمنا أنه ليس بالتأكيد معيديا.

و كان طريقنا يقع بين منابت القصب الكثيفة طوال سيرنا إلى «أبو مفيفات». و بعد أن شرعنا بالحركة صادفنا عائلة كانت بكاملها فى حالة تنقل. فشاهدت صبيّن يحثّان ستة جواميس على السير، و هما يسيران وراء

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۳

البلم الذى كان يجذفه رجل أكبر منهما و معه صبى آخر و يصيح صيحات حتى يحث الحيوانات السابحة على الحركة. و كانت تجلس فى مؤخرة القارب امرأة و معها ثلاثة أطفال، أحدهم عارى الجسم و حول رقبته باقة فضية و معهم عجلان من عجول الجاموس و هرّة صغيرة و عدد من الدجاج.

أما فى الطرف الأمامى، فكانت حاجياتهم مكدسة فيه إلى ارتفاع فتاتين من عشيرة الفريجات

عال بما فى ذلك هياكل بيوتهم و حصران من القصب و جرار ماء و قدور الطبخ و أكياس من الدقيق و كومة من البسط. و فوق هذه الكومة يجثم كلب بين دعامتين خشبيتين لمخضة اللبن، و كان ينبح علينا حينما مررنا من جانبه.

و لما سمع صدام بوصولى إلى قرية الكار، بقى ينتظر قدومى ليرحب بمجيئى إلى قرية قباب.

و لما وصلت القرية، استفسرت عن صحة عوده و عن صحة ابنه فأجابنى قائلا: «يقبل أياديك. راح إلى الدكان و يرجع بعد شوية». و حالما نزلت من القارب وصل أول مريض من مرضاى، و هو شاب يئن يتلوى فى بطن القارب، كان الألم فوق كليته و جاء و هو يتعذب عذابا شديدا من الألم الناجم من تشنج العضلات.

إنصبت شكوكى بأن ألمه هذا ناجم من وجود الحصى فى كليته. فحاولت إسعافه. إذ بدأت أدلك جنبه بمرهم الفلفل. و لما زال التشنج العضلى قال لى بأننى أنا الذى شفيته. فشعرت بأننى دجّال أكثر من المعتاد.

و على أية حال، أصبح (دوائى المحرق) أكثر شيوعا بين المعدان الذين يعانون فى كثير من الأحيان من هذه الآلام و التى يسمونها (وجع الخاصرة).

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۴

و قد أرانى مرّة صبى يبلغ من العمر (۱۲) سنة بعض الحصى، أكبرها بحجم حبة الحمص كانت قد نزلت مع الأدرار البولى لتوها. و فى مناسبة أخرى، جاءنى سيّد ذو شأن، شاب، طلب منى الدواء المحرق حيث قال لى بأنه يعانى سنويا من آلام الخاصرة. فوضعت له شيئا قليلا من هذا الدواء فى علبة كبريت فارغة و حذرته بأن لا يقربها من عينيه و أن يغسل يديه بعد الاستعمال. لكنه عاد بعد مضى عشر دقائق و هو يهذى هذيانا شديدا و قد فقد رشده تقريبا. و السبب هو أنه لبعض الأسباب التى يعرفها جيدا فرك قضيبه بهذا الدواء فبدأ يتألم و يقفز، و أقسم أغلظ الأيمان من أن الألم كاد أن يقتله. فاقترحت عليه بأن يغتسل بالماء و الصابون بشكل جيد. و لما رأى أحد نوتية زورقى حالة السيد التى لا تطاق قال مازحا بأنه يتوجب من السيّد أن يبرّد نفسه بمضاجعة زوجته.

و فى اليوم التالى، و قبل أن يشق الفجر، أيقظنى داود قائلا- بأن بعض الناس جاءوا بصبى مجروح. و لما دخل الصبى البالغ من العمر

(۱۲) سنة بصحبة رجل و امرأة ليساعداه رأيت دشداشته المقلمة باللون الأزرق و الأبيض ممزقة و مخضبة بالدماء، و غطى النصف الأسفل من وجهه بخرقة مخضبة أيضا بالدماء. و لما فحصته رأيت بأنّ له عينين سوداويتين و وجها ذا بشرة بيضاء و أخذ يحدّق بى.

سألته عما حدث له فقال و هو يرتجف: «الكلب عضنى» وضعت البطانية العائدة لى حول جسمه ثم أوقدنا النار حتى نغلى شيئا من الماء ثم بلّلت الضمادة و مسحت بها وجهه و رأيت خدّه ممزقا تتدلى منه قطعة بحيث أمكننى رؤية أسنانه الخلفية. كما رأيت عدة عضّات فى ذراعه و كتفه.

و أخذ يراقبنى حينما بدأت بتنظيف الجرح و تعقيمه ثم وضعت مسحوق السلفونماید ثم خيطت القطعة المتدلاة بعناية فى مكانها و رأيته يلوى عينيه لكنه لم يئن و لم يتذمر أبدا. و لما انتهيت قال الصبى «أشكرك، صاحب».

ثم حقنته بالبنسلين حتى يرتاح و هو قريب من النار.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۵

جاء صدام و شاركنا فى شرب الشاى فقال لنا أبو الصبى الذى جاء من دوبDaub و هى قرية من قرى الأهوار تقع إلى الشرق، بأن ابنه خرج من الغرفة قبل أن ينام «كلبنا- أنت تعرفه صدام، كلب كبير جدا و متوحش- قفز عليه و مسكه من يده. و هاى هى أسنان الكلب على خده.

«سحبه الكلب و رماه على الأرض ثم أراد أن يمسك من بلعومه.

و الحمد للّه أخطأ فى ذلك و إلّا كان قد قتله. لكنه نهش قطعة من اللحم من خده. و لم يصرخ الصبى. حقا يا صدام، خرجت حتى أشوف شنو اللى يزعج الجواميس. شفت ابنى يكافح حتى يخلص نفسه من الكلب. اللّه سبحانه و تعالى رحيم. كنا قد سمعنا بأن الإنكليزى هو فى قرية قباب.

فجبناه معانه و وصلنا قبيل الفجر. أطلقت النار على الكلب قبل ما نجى».

كنت قلقا أخشى أن يكون الكلب مصابا بداء الكلب. و لكن الأب أكّد لى بأن الكلب لم يغادر دبنهم المنعزل.

عادوا إلى قريتهم وقت العصر بعد أن وضعت فى يده دينارا عراقيا حتى يشترى له ثوبا جديدا. التأم الجرح بشكل جيد. و لو أن الجرح ترك ندبة على شكل هلال كبير على خده إلا أنه لم يشوه فمه فبقى كما كان فى السابق. و لقد أكّد لى المعدان بأن الكلاب لا تعض النساء و لا- البنات و أنا أقول عن ثقة بأننى ما صادفت أية حالة من هذا النوع لدى النساء أو البنات. و بعدما عرفوا بأننى أستمتع برقصاتهم، عزم صدام بأن يقيم حفلة رقص بحيث أبقى أتذكرهم على الدوام.

و بعد أن تناولنا الطعام، هيئت الدرابك و الطنبورات و حميت بالنار حتى يتوتر الجلد. و لما سمع الناس ضربات الدرابك و الطنبورة أثناء التجريب قدم الرجال من القرية.

جاء عجرم مع والده و جاء الشاب حلو مع أخويه و هما أصغر منه و أكثر سمنة. كانت أصواتهم ذات نغمة عالية بحيث بدأوا يصاحبونه فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۶

الغناء فغنّوا أغنية (عرفتك ظالم من أول يوم)، كما حضر أيضا صحين مختار قرية بومفيفات و معه أخوه حافظ و مجموعة كبيرة من رجال قريتهم بما فى ذلك صبيّان و هما ياسين و حسن اللذان أصبحا فيما بعد نوتية زورقى.

و كان هناك شاب من عشيرة الفرطوس، إسمه داخل، و هو يتيم و معدم تماما، كان يتشاجر مع كل فرد بالتناوب. و لنتيجة لذلك كان يتنقل من قرية إلى أخرى يبحث عن عمل كراعى. و كان جميل المحيا لذلك كان الناس يتكلمون عنه بشكل يثير الغضب. و كان يحب أخت وادى حبا جما و هو صبى بشوش يبلغ من العمر (۱۴) سنة، و كان يجلس بجانبه.

و بشىء من التشجيع نهض داخل و بدأ يرقص. كانت حركاته و وجهه تنقل انطباعا هزليا تنم على أنه حزين و ساخط، لكنه كان الشخص الناجح فى هذه الأمسية.

و رقص عدد آخر من الصبيان و من بينهم عجرم، و لكن، كان الحاضرون يهتفون كثيرا لداخل و مرات عديدة أيضا. ثم أصرّ والد عجرم المدعو حسين على الرقص لأنه كان قد إشتهر به حينما كان صبيا، أما الآن فكان يقوم بطفرات مضحكة أشبه بحركات الفيل عندما يؤدى دوره فى السيرك. و استمر بالرقص إلى أن صاح به صدام قائلا: «إجلس يا حسين، خلّى داخل يرقص مرة ثانية».

و فى وقت المساء جلس عدد من الأشخاص بجانبى و ما كنت أعرفهم و قالوا لى بأنهم مسرورون جدا لأننى عدت بين ظهرانيهم مرة أخرى.

أمضيت هنا فى هذه القرية يومين أكثر من المدة التى كنت قد أمضيتها من قبل و مقدارها شهران. عشت معهم بحيث كنت أشعر بأننى

أمضيت معهم سنين طويلة.

انتهت الحفلة وقت الفجر تماما. و عندما خرجت من الغرفة لاح

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۷

لعينى خيط رفيع من الضياء الباهت المتسلل من ناحية الشرق. و فى الظلام، و تحتى تماما، كان بوسعى أن أسمع صوت الجذف و أصوات مناداة بعضهم البعض أثناء عودتهم إلى بيوتهم.

من المستحيل أن لا يتجاوب المرء مع هكذا أناس من أصحاب الصداقة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۰۹

۱۵- فالح بن مجيد الخليفة

كان مجيد الخليفة شيخا لعشيرة البو محمد فى كل منطقة المجر و هو الحاكم المطلق على معظم منطقة الهور أيضا. و هو نائب فى البرلمان العراقى و يقضى معظم الوقت فى بغداد، تاركا أمور إدارة عقاراته الواسعة بيد ابنه الأكبر فالح.

كنت قد أمضيت سنة ثانية فى الأهوار قبل أن ألتقى به. و لما مررنا بقرية قباب، سمعت أنه قدم من بغداد حديثا و حلّ فى داره، وزاره صدام و الرجال المسنون فى القرية حتى يقدّموا له الطاعة و الاحترام.

رأيت أن أفعل مثلما يفعلون، لذلك غادرت باكرا فى أحد الأيام لأزوره و بصحبتى الشابان حسن و ياسين ليجذفا الزورق و هما من قرية بومفيفات و قد بقيا معى مدة ستة أشهر.

كان الزورق الذى استعمله يعود إلى ياسين و هو شاب عمره (۱۶) سنة، طويل القامة، متناسق الجسم كالرياضيين، و له وجه جذاب ينم عن سذاجة و ملامحه مغولية. أما حسن فهو فى العمر نفسه أيضا لكنه أقصر منه و أكثر منه سمنة، ماهر فى الصيد، يقتنى بندقية صيد من صنع محلى، تعمّر من الفوهة، و السبطانة مربوطة بسلك من نحاس.

أكثرت اللحاح عليه بأن يتخلى عن هذه البندقية و يستعمل بندقيتى.

و كنت أتوسم فى ياسين الشخص الأكثر هيمنة و الأفضل فى الجذف، و كان

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۰

شابا ماهرا بشكل إستثنائى حتى و إن قارناه بمستويات المعدان على الرغم من كونه مجرد صبى صغير السن.

نهر المجر هو فرع من نهر دجلة، و يتفرع تحت المجر الكبير إلى فرعين هما نهر العدل و الواديه. و تتبدد مياههما فى الأهوار بعد أن يقطعا ثمانية أميال تقريبا ثم تتبدد هذه المياه فى سواقى الرى العديدة.

تعقبنا إحدى هذه السواقى إلى أن وصلنا نهر العدل حيث تقع عليه قرية الشيخ مجيد الخليفة.

و لما وصلنا إلى القرية ربط حسن حبلا بمقعد المجذاف الأمامى و ربط الزورق ضد المجرى ثم بدأ ياسين يحرّك الزورق بالمجذاف من مؤخرته. بدأنا بالسير مشيا على الأقدام و مررنا بدور القرية ثم وصلنا فى الساعة العاشرة تقريبا إلى الدور الكبيرة و الواسعة و ذات السقف المسطح و المبنى بالآجر.

و لما وصلنا دار الشيخ، لاحظت جدرانه متشققة و هى تواجه مهب الريح. و رأيت خلف الدار مضيفا ذا بناء قديم متهدم و مائل إلى الجوانب.

و لم يكن الشيخ مجيد قد بنى إلى الآن مضيفه الجديد على الرغم من وجود كميات كبيرة من القصب بالقرب من الدار.

و شاهدت جمعا حاشدا خارج المضيف، كلهم جاؤا ليحظوا بمقابلة الشيخ مجيد. و لما اقتربنا أكثر، تقدم أحد الأشخاص نحونا و قادنا إلى داخل المضيف. و لما دخلنا ورآنا الشيخ مجيد نهض من مقعده و أخذ يصافحنا.

بدا الشيخ لى متوسط الطول، بدين الجسم جدا، له أكتاف عريضة.

و يظهر أنه كان قويا جدا فى شبابه، إلّا أنه أصبح الآن يكبر و يشيخ و يضعف، و بدأ بطنه يتدلى على شكل طيات.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۱

أما رقبته فكانت غليظة و قصيرة و وجهه متعرق مغطى بشعر فضى اللون منتصب، و عيناه صغيرتان، جوانبها حمراوان.

لا حظته يتهادى فى مشيته و أحسست أنه سريع الاهتياج و متغطرس، يخيّل للناظر إليه أنه ناهض من النوم لتوّه.

أمر بإحضار صندوقين على غرار الكرسى ذى اليدة، مصنوعين من ألواح الخشب و فوقها غطاء من قماش المخمل الأزرق. و لما جيء بهما وضع أحدهما مقابل الآخر فى الغرفة و دعانى بأن أجلس على أحدهما، و جلس هو على الآخر.

كان المضيف مزدحما جدا بالحاضرين و أحسست أننى أقل وضوحا مما لو كنت أجلس على الأرض.

و بعد عدة استفسارات عن الصحة و الأحوال، بدأ الشيخ مجيد يشغل نفسه مرة أخرى فى تصريف الأمور اليومية. و كان يعالج كل قضية بمهارة و بسرعة و لا يبدى إلّا اهتماما قليلا بمشاعر الآخرين. و إذا حاول أحدهم أن يعترضه ينظر إليه شزرا و ينهره فيسكت فى الحال.

كان كاتبه يجلس إلى جانبه و هو شخص متوسط العمر، على وجهه أثر جدرى، يذعن له بإذلال، و يسجل قراراته. و كان يرتدى مثل الشيخ مجيد معطفا ثقيلا من قماش أسود اللون مع عباءة بنيّة. أما عباءة الشيخ مجيد فكانت، على أية حال، محاكة بشكل جيد جدا و رقيقة جدا.

الأراضى كلها تعود إليه و يتصرف بها كيفما يشاء. و نتيجة لذلك كان غير متحيّز فى قراراته و يهتم كثيرا بما سيحصل عليه من المحصول.

و يشتهر الشيخ مجيد بجمع المال و اكتنازه لأنه من أصحاب الأملاك.

و كان يعرف كل زاوية و كل شبر من عقاراته نتيجة للخبرة التى اكتسبها خلال نصف قرن من الزمن فى تخمين مستوى المياه الذى يتوقف عليه

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۲

ثراؤه. فهو يعرف تماما أين و متى يقيم السد حتى يحصر المياه و متى يقوم بتصريفها و مقدار هذا التصريف.

و كنت أعجب كثيرا من طريقة بناء السد على نهر عميق و عريض بمقدار (۵۰) ياردا و يجرى بشكل فائض بمواد بدائية لا تتعدى عيدان الأشجار المقطوعة و القصب و التراب. و يستخدم الشيخ عددا كبيرا من العمال لتنظيف القنوات و تقوية السداد مثلما يحتاج إلى عدد كبير من العمال لتنظيف القنوات و تقوية السداد مثلما يحتاج إلى عدد كبير من العمال حين إقامة السد. و الفلاحون، شأنهم شأن العرب جميعا لا يعرفون عن المجتمعات التعاونية إلّا الشيء اليسير. و إذا ما تركوا و شأنهم فإنهم يمضون وقتا طويلا فى جدال و نقاش لا حدّ لها قبل الاتفاق على القيام بعمل مهما كان مهما.

حضر عدد قليل من الفلاحين فى الموعد المعين و هم فى عزيمة ضعيفة جدا. فأحسّ الشيخ مجيد بحالهم فعرف ما يلزم عمله.

أصدر أوامره الصارمة و أجبرهم بالقوة على العمل. فإذا ترك أحدهم عمله أو سها عنه فإن جزاءه الجلد.

و بشكل عام، وجدت طبقة الموظفين و المثقفين فى المدينة تعادى الشيوخ و تحسدهم على ثرائهم و تحاول تدمير قوتهم السياسية. و عندما يجرى الحديث عن مصادرة أراضيهم و وجوب توزيعها على الفلاحين بشكل غير مدروس، تراهم يتغاضون الحقيقة و يجهلون أن العراق لا يملك مصلحة رى مقتدرة على الإحلال محل الشيوخ. و كان كبار شيوخ لواء العمارة عادة من محبى إبتزاز الأموال و طغاة، و لكن معظمهم مثل مجيد الخليفة مزارعون من الطراز الأول، يعرفون جيدا عقاراتهم التى حصلوا عليها منذ الطفولة. و الشعور الأفضل هو حبّهم لأراضيهم حبا جما أكثر من حبّهم لمصلحتهم الشخصية. فإذا أردنا إحلال غيرهم مكانهم بحيث نجلب

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۳

الموظفين من أماكن مختلفة مثل الموصل أو بغداد، يتطلب منهم قضاء وقت طويل جدا حتى يكتسبوا الخبرة التى يتحلى بها أولئك الشيوخ كما يتطلب حثّهم و تشجيعهم على البقاء فى هذا المكان لأن نجاح أو فشل المحصول الزراعى لا يؤثر فيهم شخصيا. هذا و لا بدّ أنهم يميلون إلى إعطاء المياه إلى من يدفع مالا أكثر مقابل أخذها بدلا من إعطائها إلى مستحقيها من المزارعين الذين هم بحاجة إليها. و علينا أن نتصور المشهد التالى بين المراجعين و الموظف المسؤول.

«أنت تريد مای؟».

«نعم».

«إشكد تعطينى؟».

«نصف دينار».

«ليش تجى هنا و تضيّع وقتى. إطلع بره».

إذا، لا يكمن الجواب فى طرد الشيوخ من أراضيهم بل إنما يكمن فى حصول المزارعين العاملين فى الأرض على حصة كبيرة من المحصول و على قطعة أرض.

أمضيت ثلاث ساعات فى المضيف ثم بدأ الحاضرون بالخروج بالتدرج. فشعرت عند ذاك بالضيق كما شعرت بالجوع.

كانت الغرفة نصف ملأى بالرجال حينما جاء الخدم بصينية كبيرة فيها دجاج محمص و سمك مشوى و أرز و خبز و مرق.

و بأمر من الشيخ مجيد وضعت أمامى منضدة غير مستقرة و عليها الصينية. و بعد أن غسلت يدى، دعانى بأن أبدأ بالأكل. و كنت أتوقع أن يأكل معى. و لكن لمّا لم تظهر أية علامة لمشاركته لى فى الأكل، طلبت بأن ترفع الصينية من على المنضدة و توضع على الأرض بحيث أتناول

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۴

طعامى مع ياسين و حسن. إلّا أن الشيخ أجاب بشكل جاف قائلا: «لا.

لا. تناول الطعام فى مكانك. ما يهمهم. هذوله راح يأكلون بعدين».

لكننى أصرّيت قائلا بأننى أفضّل أن توضع الصينية على الأرض لأنه من عادتى أن أتناول الطعام مع رفاقى. «لا. لا. كل. تناول طعامك فى مكانك» قال لى ثم التفت إلى ناحية أخرى و أخذ يتحدث مع شخص آخر.

ليست هذه الطريقة التى يعامل فيها الضيف لذلك تأثرت كثيرا و غضبت تماما. أكلت لقمة واحدة من التمن ثم نهضت و طلبت الماء حتى أغسل يدى. و أخذ كل فرد من الحاضرين ينظر إلى الشيخ مجيد الذى سألنى عن السبب فقلت له «ما يوجد سبب. أشكرك جدا. انتهيت من طعامى».

«أوه. خلّى يأكل طعامه على الأرض إذا يريد» قال الشيخ.

شكرته مرة أخرى و أكدت له بأننى اكتفيت ثم عدت إلى مكانى. أما ياسين و حسن فإنهما استفادا من امتناعى عن الأكل فأدعيا بأنهما غير جائعين. ثم غادرنا المضيف بعد فترة قصيرة.

لم أقترب من الشيخ مجيد طوال فترة تزيد على السنة. و فى المرة الثانية، استقبلنى بطريقة تختلف عن الطريقة الأولى. فأصرّ بأن أمضى الليل بصحبته، أكلنا سوية، و جاملنى كثيرا مثلما يفعل العرب مع ضيوفهم. و بعد ذلك كنت أتوقف فى مضيفه فى عدد من المناسبات. و على الرغم من كل ذلك لم أكن أحبّه، لكننى كنت أحترمه.

و فى طريقنا من قرية قباب، فى ذلك الصباح، اتفقنا على تمضية الليل مع فالح فى مضيفه الواقع على نهر الوادية.

كان فالح رجلا كريما جدا حينما حللت فى داره فى السنة الماضية و ألحّ علىّ بأن أعود إليه، إلا أننى لم أفعل ذلك، لأننى كنت متحاملا على الشيوخ ككل بسبب أولئك الذين التقيت بهم حينما مكثت مع دوكالد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۵

ستيوارت فى العمارة، و ما كانوا يظهرون هم فى دورهم الفاخرة و المشيدة فى المدينة بمظهر جيد. لذلك، كنت أشعر بميل قليل لزيارة ولد الشيخ فالح بعد أن لقيت من أبيه فى زيارتى الأولى له الإهمال و الجفاء و طلبت من رفاقى مواصلة السير رأسا إلى قرية قباب. غير أن ياسين قال لى: «لا.

خلينا نقضى الليل مع فالح. فهو شخص ما يشبه هذوله».

و لما وصلنا قرية الشيخ فالح و استقبلنى بكل حفاوة و تقدير بحيث شعرت بعد فترة من وصولى بأننى فى غاية الارتياح فى مضيفه.

و قال لى: «كنت أتمنى أن تعود إلينا بالنهاية. إننى أسمع كثيرا عن أعمالك من المعدان. إنهم يلجأون إليك دائما كطبيب. و أنا متأكد من أن جميع أهالى قريتى سيحضرون و يطلبون منك الدواء. و هسه شفت الأهوار.

و نريد نشوف منك فد شىء. هل قدرت تصيد فد خنزير؟ شنوا!- حتى و لا واحدة؟. إنتظر حتى يرتفع منسوب الماء و نروح بعدين نصيد سوية».

كان الشيخ فالح منهمكا فى الإشراف على تنظيف القنوات و فى تقوية السداد قبل حلول الفيضان. بقيت مدة أسبوع فى تلك المناسبة و فرحت جدا بأن تتاح لى مثل تلك الفرصة حتى أتعرف فيها إلى أحوال الفلاحين لأقارنها مع أحوال المعدان. و كنا نخرج كل صباح فى طراده و نعود بعد الظهر و نتناول طعامنا فى بعض القرى الواقعة على الطريق. و كما تنبأ، حضر عدد كبير من المرضى إلى مضيفه. و كنت أعالج فى كل يوم عددا منهم قبل أن نغادر القرية أو عند العودة إليها. و فى قرية الزائر محيسن التقينا برجل اسمه مناتى و هو الشخص الذى كان قد عضه الخنزير. و كان يبدو هزيلا، منحنى الظهر، فتذكرت عند ذاك كلمات الشخص الذى كان قد قال «هذا الخنزير قضى على مناتى».

قال فالح و هو يشير إلى أحد الصبية الذين يساعدون الزائر محيسن فى إعداد المائدة: «هذا لا خوش صبى. والده العجوز ثقب ما يكدر يسول

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۶

فد شىء. إبنه عمارة يهتم بأمور العائلة. هم ناس فقراء تماما».

ثم وجه سؤاله إلى الولد و قال له «صحيح سموك عماره لأن أمك ولدته فى سوق العمارة. موتمام؟».

ابتسم عمارة و قال: «نعم. هذا صحيح. لكن أنا ما رحت إلى العمارة من ذاك اليوم لحد الآن».

و عمارة هذا صبى نحيف الجسم، جميل المحيّا بشكل ملحوظ، أنيق و هادىء. أرستقراطى. و على النقيض من ذلك، كان الصبى الآخر أخرق و قبيح الصورة لكن البشاشة لا تفارقه و يسميه فالح سبيتى. و أخبرنى بأن والده يملك دكانا فى القرية و هم أغنياء و كرماء. و تظهر على سبيتى علامات السرور و الحبور.

و فى صباح اليوم التالى، وجدت عمارة و سبيتى مع عدد آخر من أقرانهما من قراهم التى تبعد مقدار خمسة أميال ينتظرون قدومى فى خارج مضيف الشيخ فالح حتى أجرى لهم عملية الختان. و عندما سألتهم كيف يعودون إلى قراهم من بعد الختان. قال لى «نبقى هنا حتى يشفى الألم قليلا و يتوقف النزيف ثم نعود إلى بيوتنا سيرا على الأقدام». و فعلا طبقوا ذلك. كان فالح يحاول أن يكون محافظا على هيبته فى المضيف أما فى القرى فكان يتصرف كصديق بطبيعته.

كان استقبال القرويين له حارا و شيئا مثيرا. فالأطفال يركضون أمامنا و هم يصيحون «فالح جاى طرفكم!». و عندما نصل، يلحّ آباؤهم كثيرا و بإصرار على فالح بأن يكون ضيفهم و يشرّف بيتهم. و من بعض المناسبات قد يكون فيها قاسيا و حتى عديم الشفقة و الرحمة و لكنهم مع ذلك كانوا يحترمونه أكثر لأن أحكامه كانت عادلة و لم أسمع أبدا من أنه يحكم الناس بالجور و غير العدل. فهو يؤدى واجبات الشيخ المثالى و هو كريم المولد، يعجب الناس بزعامته و يثقون به و يخشونه. و كلهم يحسدونه على مهارته فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۷

الرمى و على فروسيته كما وجدتهم فى غاية السرور لأنه يستطيع استعمال الزورق بكل سهولة خلافا لعدد كبير من الشيوخ.

و من بين الشيوخ الآخرين، نرى الشيخ مجيد و الشيخ محمد العريبى لا يزالون ذا نفوذ فى شيخوختهما و هما الباقيان على قيد الحياة من الأزمنة العسيرة و الشديدة جدا. و إن معظم الباقين و خاصة الشباب منهم. كانوا ذوات أجسام سمينة، متراخية، تدل على الكسل. و كانوا على الدوام فى قلق شديد عن صحتهم و يتناولون على الدوام العقاقير الطبية المباحة للاستعمال. فجاسم بن محمد العريبى، هو الشخص الوحيد المشهور بأنه كفوء لفالح، لكنه كان قد توفاه الأجل و يقول الناس الآن «بس ظل فالح وحده».

و عندما وصلت قرية قباب بعد أسبوع، ابتعت زورقا لى، واسعا و متينا. دفعت عشرة دنانير ثمنا له، كان جديدا تقريبا و فى حالة جيدة.

و قال ياسين: «أنت هسه واحد منا. فى هذا القارب نوديك وين ما تريد تروح. إلى سوق الشيوخ. إلى الكوت. إلى البصرة و إلى أى مكان».

عدنا بهذا الزورق إلى قرية فالح بعد ستة أسابيع و لما نزلت من الزورق سألته باعتزاز «ما رأيك بزورقى الجديد؟».

«مو ردىء. لكن إنتظر شوية حتى تشوف إيش حضّر تلك».

أصدر أوامره إلى أحد خدمه فانطلق بسرعة و عاد بزورق يدفعه بالمردى و هو من صنف الطرادة الجديد. لونه أسود، لمّاع، رفيع، و ذو مقدمة عالية، ينساب نحونا على سطح الماء فقال الشيخ فالح «وصلت البارحة من الهوير. هذه لك. طلبت صنعها لك. ربما تفكر بأنك واحد من المعدان. لكن فى الحقيقة أنت شيخ. تستأهل الطرادة».

صاح ياسين متعجبا: «اللّه! إشكد لطيفه! صنعها الحاج حميد. هذه أحسن وحده صنعها للآن. ماكو وحده تشبهها».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۸

تأثرت جدا، و حاولت أن أعبّر عن شكرى غير أن فالحا وضع يده على كتفى و هو يقول: «صاحب أنت صاحبى».

و فى ذلك المساء إقترح فالح بأن أضمّ إلى نوتيتى صبيين آخرين من أمثال ياسين و حسن حتى يصبح العدد كاملا. و لا حظت أن الأشخاص المتزوجين و الأكبر سنا منهما لا يرغبون بمغادرة أهليهم لعدة أشهر متواصلة. و لما سمع عمارة و سبيتى بأننا نريد شخصين آخرين حضرا فى صباح اليوم التالى و عرضا خدماتهما علىّ. و سألتهما عن المدة التى شفيا فيها من عملية الختان فأجاب عمارة قائلا: «ما دام أنت سويت العملية فماكو خوف منها و ما سوينا شىء. كنت أقطع القصب بعد ثلاثة أيام و الآخرين هم مثلى».

يتحلى عمارة بسحر هادىء و بجاذبية عظيمة و لكننى كنت أشك فيما إذا كان قويا لدرجة يستطيع فيها من جذف الطرادة فى رحلات طويلة.

و على أية حال، أكّد لى حسن و هو من عشيرة الفريجات بأنه شاب قوى أكثر مما يبدو. أما ياسين فإنه ينتمى إلى الشغانبا و سبيتى ينتمى إلى عشيرة غامضة لم أسمع عنها أبدا.

أخبرت عمارة و سبيتى بأنه بإمكانهما الالتحاق بنا و هكذا بقيا معى إلى أن غادرت العراق.

و لو أن عمارة كان أصغر سنا من الآخرين بكثير إلا أنه كان ذا خلق متين. فلحق به سبيتى من دون أى سؤال و أما حسن فإنه نادرا ما

كـان يعترض على قراراته. أمـا ياسـين فـإنه كان يسـتاء أحيانا من تأمر عماره عليه لأنه يرى نفسه و هو الرجل الكبير أنه لا حول له و لا قوة فى الأخير.

تعلّم عمارة بسرعة استعمال الأدوية التى كانت معى و حذا سبيتى حذوه فى هذه المهنة فقاما بمساعدتى كما أتقن عمارة حقن الأبر.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۱۹

لم أكن أدفع لهم أبـدا أجورا عن أعمالهم معى و كنت أقول لهم دوما بأننى أريد رفاقا و ليس خدما بأجر. و كنت أزودهم بالكسوة و أمنحهم النقود أكثر مما يتوقعون.

و أخيرا ساعـدتهما فى مهر الزواج حينمـا أراد الزواج و بنـاء حيـاة زوجيـة. و كانـا يجيبان كل من يسألهما عن مقـدار ما يتقاضـيان من الإنكليزى باعتزاز «ما نأخذ أجور. نرافق الصاحب و نحن مسرورين. و هو شخص كريم يهتم بنا».

و فى تلـك السـنة، عبرنا الأهوار الوسـطية بطرادتنا و انتقلنا على امتـداد نهر الفرات إلى القرنـة. ثم عـدنا إلى قريـة سـيكال و مكثنا مرة أخرى مع عشـيرة آل عيسـى فى البر الرئيسـى ثم زرنا الأزيرج، و لم نحبهم و لا أحببنا شيوخهم. ثم عدنا و زرنا آل جاسم و الفرطوس حيث المكان الذى وجدنا فيه (داخل)، ذلك الصبى الذى يرقص من أجل التسلية فى قرية قباب.

كـان لا يزال عاطلا عن العمل و أخـذ يضـعف بالتدريـج. و من الواضـح أنه كان يقاسـى الآلام من مرض البلهارزيا و من الاختلاطات المرضـية الأخرى. و بعـد الإلحاح و الجـدل الـذى لا حدّ له أقنعته بالذهاب إلى البصـرة للمعالجة، كانت الدموع تنهمر من عينيه حينما غادرنا. أرسلته إلى البصرة و زودته برسالة إلى صديقى فرانك ستيل نائب القنصل فى البصرة.

حلّ الصـيف فى الأهوار و فيه يصـبح البعوض على شـكل سـحب معلقة فوق رؤوسـنا حتى فى أوقات النهار، و نحن ننتقل على امتداد الممرات المائية الساكنة بين منابت القصب العالية.

أما فى الليل، فينقضّ البعوض على الأجزاء العاريـة من أجسامنا أثناء النوم بدون أغطية بسـبب حرارة الجو الهائلة. و سـررنا حينما تركنا الأهوار و بـدأنا نتنقّل بين القرى فى منطقـة المجر مكونين صداقات جديدة بين الفلاحين. و كنا نعود إلى قرية الشـيخ فالح و نبقى فى مضيفه مهما طال أمد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۰

سفرنا أو قصـر. و حينما يرى أحـدهم طرادتنا يخبر فالـح عن قـدومنا و نراه بانتظارنا حتى يرحب بنا. و كنا أحيانا نعود ليلا و قد مضـى أكثره أو نعود فى الساعات المبكرة من الصباح ثم ننام فى المضيف الخالى من الناس.

و كان عبد الرضا القهواتى العجوز يجدنا نائمين حينما يأتى وقت الفجر إلى المضيف فيسرع ليخبر فالح عن وجودنا.

و على خلاف أكثر الشـيوخ، كـان الشـيخ فالـح يكره حيـاة المـدن. و من النـادر أن يزور بغـداد أو العمـارة. إلا أنه كان يمكث بعض الأحيان ليلة أو ليلتين مع أقاربه بالقرب من المجر و أكثرها لدى عمه محمد، الأخ الأصغر لمجيد و هو سخى جدا على الرغم من كونه فقير الحال من بين أسرته.

لذلك كان جديرا بنيل إحترام و محبة الناس.

كان عباس بن محمد، السيىء الطالع، البدين الجسم، البالغ من العمر عشرين سنة إبن الأخ المحبوب لفالح.

و بما أن فالحا كان يصطحبنى فى رحلاته فأتيحت لى الفرصة فى تمضية عدة أمسيات مسلية مع محمد.

كنا نذهب بعد تناول العشاء فى المضيف إلى غرفة خاصة فى البيت.

و كان أتباعه عبارة عن عـدد من الصبيان يتلقون المال بشـكل اسـتثنائى عن غنائهم و رقصـهم. و إعتاد أحد الصبية بشـكل خاص على التمثيل بحركات جسدية تسلّى الموظفين المحليين فى أوقات فراغهم إلا أننى وجدت هذه الحركات شيئا مبالغا فيه أكثر من المألوف.

و هناك هور بالقرب من دار محمـد و هو أفضل مكان لصـيد الخنازير فى فصول معينـة حيث كانت هذه الخنازير تدمر حقول الشـلب ليلا و تتلفها.

و قمت أنا و فالح نتعقبها بزورق صغير، نسير به على امتداد السواقى التى تعترض منابت القصب.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۱

ففى أحد الأيام قتلت (۴۷) خنزيرا ثم قتلت (۴۵) أخرى فى مناسبة ثانية. و هذه الخنازير من الأصناف الموجودة فى أوروبا و الهند من ذكور الخنـازير الوحشـية غير أنها تتميّز بحجم اسـتثنائى. و قست خنزيرين من الحجم المعتاد و بلغ عرض الواحـد منها من الكتف إلى الآخر مقدار (۳۷) عقدة. و إننى آسف جدا لأننى ما قست حجم الخنازير الكبيرة أبدا

و فى النهار تأوى هـذه الخنازير إلى أوكارها المشـبعة بالماء و تكون عادة مبنيـة على الضـفاف المنخفضة التى تحيط بهذه السواقى. و

يكون طول الوكر أحيانا مقدار (۶) أقدام. و هى عبارة عن أكوام كبيرة من أشجار الأسل.

و من الممكن أن تكون الخنازير قد قطعت الأغصان و نقلتها بواسطة خراطيمها إلى مسافة ياردات من الغابة.

و حينما يرتفع منسوب الماء بسبب الفيضان تنتقل هذه الخنازير من الأهوار و تضطجع فى بساتين النخيل، و فى الأحراش على الأكثر و هى أشجار نخيل تنمو من دون رعاية و عناية و فى أدغال الشوك البرية النامية بشكل متقارب جدا. و قد رأيت فى إحداها ذئبا و ثلاثة فروخ صغيرة.

كنت أنا و فالح نتخطى الخنزير الهائج الرابض فى مكانه دون أن نتحرش به أو نخرجه من مربضه و نسوقه أمامنا إلى العراء ثم نقوم بمطاردته و نحن على ظهور الخيل، نطلق النار حتى نصطاده.

و أخيرا، يجب أن أغادر الأهوار لأننى خططت بأن أتنقل فى ذلك الخريف فى جبال باكستان الشمالية. فأمضيت الليلة الأخيرة مع فالح فى قريته و بصحبتى كل من عمارة و سبيتى و ياسين و حسن الذين عرفوا الآن بأنهم رجالى.

و فى المساء خرجنا جميعا من المضيف، نلتمس البرودة فجلسنا على الحشيش.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۲

انتهت فى هذا الوقت فترة هبوب الرياح الأربعينية التى تهب طوال شهر حزيران و ذلك قبل بضعة أيام، لذلك أصبحت الريح ساكنة جدا الآن.

و بعد أن تغيب الشمس و يحل الظلام تبدأ بنات آوى بالنباح من أماكنها خلف النهر المنحدر.

و عندما يبزغ القمر ترى الخفافيش تنحدر و تدور فوق رؤوسنا.

أكلنا البطيخ و العنب من بستان السيّد ثم شربنا الحامض.

جاء عبد الرضا من المضيف يحمل دلّة القهوة بيده و قال لى «ما راح تشرب قهوة مثل هاى وين ما تروح. إشرب شويه زايد إذا تكدر». ثم قال فالح: «لا تطوّل غيبتك عنا كثيرا».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۳

۱۶- وفاة الشيخ فالح

حينما عدت إلى مضيف الشيخ فالح بعد غياب طويل دام سبعة أشهر تقريبا حيث كنت قد غادرته فى الأسبوع الأخير من شهر حزيران سنة ۱۹۵۲، شاهدنى ابن عبد الرضا الصغير فاندفع إلى داخل المضيف و أخذ ينهر أحد الأشخاص النائمين قائلا له: «كوم. الإنكليزى رجع. روح و اخبر فالح. أنا أروح أجيب أبوى» إذ كان عدد من الأشخاص النائمين على الحصران قد بدأوا ينهضون الواحد بعد الآخر ثم أخذوا يرتبون أغطية رؤوسهم و عباءاتهم ثم تقدموا إلى الأمام نحوى ليسلّموا علىّ قائلين و قد تمكنت من تمييزهم جميعا، فهم من أتباع الشيخ فالح، «مرحبا يا صاحب.

مرحبا، هذا أسعد يوم عندنا. بقيت مدة طويلة بعيد عنا».

عدت فى الحقيقة أوائل شهر شباط سنة ۱۹۵۳ عصرا. و قد غبت عنهم مدة طويلة كنت خلالها قد عبرت مضايق عالية من خلال الثلوج التى تغطى جبال هندوكوش و أنا أتجه نحو بحيرة كورمبار ذات المياه الزرقاء الباردة حيث تظهر الأنهار ذات الألوان البلورية.

نظرت إلى الخارج عبر واكاند Wakand من مضيفه بوركل Borogil و لمحت من مسافة شيئا يلمع و عرفت أنه نهر أوكسس Oxus . و كنت قد نمت على نهر الجليد الذى يقع أسفل جزء من جبل تيريك مير Tirick Mir . و فى الظلام أويت إلى البيوت القذرة المنتشرة بين بساتين التوت

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۴

حيث المكان الذى يعيش فيه الكفار السود على حدود نورستان Nuristan .

و الآن أعود مرة أخرى إلى مضيف فالح الواقع على حافة الأهوار و أنا أشعر بأننى قد عدت إلى بيتى.

دخل عبد الرضا مسرعا إلى الداخل و هو رجل ذو أسنان مفرّقة و ظهر محدودب و قال لى «فالح چان يحچى بذكرك ليلة البارحة. ما بعرف أشوكت ترجع. قبل يوم چان صدام هنا. جاء من قباب. و اثنينهم جابوا ذكرك. مرحبا. مرحبا. اليوم يوم عيد».

جلسنا حول الموقد الذى تعدّ فيه القهوة. و لما أتى الشيخ فالح و دخل المضيف نهض الجميع ثم تقدم نحوى و بدأ يحضننى و قبلنى فى الخدود ثم سألنى عن أحوالى ثم قال «ليش طولت الغيبة عنا؟. چنّا نتوقع مجيئك فى الشهر الماضى. موش هيچ يا عبد الرضا؟. و على كل حال، زين نشوفك راجع إلينا الآن. المعدان يفرحون عندما يسمعون أخبارك.

عماره و سبيتى يسألون دائما أشوكت تعود. راح يجون حالما يسمعون أنك وصلت».

ثم إلتفت نحو أحد رجاله و قال له «أنت جاسم، خذ حوائج الصاحب إلى هناك».

كان بيته بدور واحد، من الطابوق الذى يتم صنعه فى الموقع. و لما وصل البيت قال لى: «هذا بيتك. مرحبا. أدخل». دخلنا إحدى الغرف و شاهدت على الجدران صورة الإمام على و هو على ظهر فرسه و صورة الحسين.

إنهما إماما الشيعة. و الصورة تظهر بأنه يشجّ رأس خصمه إربا إربا وسط بركة من الدماء. كما شاهدت صورة كبيرة للشيخ مجيد فى إطار ذهبى.

كانت الفرش مغطاة بقماش سلكى أحمر أو أخضر مع وسائد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۵

و مخدات بمختلف الألوان و هى مفروشة على طول جدران الغرفة.

كان المظهر يدل على الثراء و الراحة، و هذا يختلف تماما عن الديوانية و التى فيها بقيت محصورا لبعض الوقت.

هذه البيوت هى دور ضيوف غير مريحة، مبنية من الطابوق، بناها الشيوخ الأثرياء فى السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية حتى يسكنها الموظفون العراقيون و الزوار الأوروبيون.

تكون هذه الدور مغلقة حينما لا يسكنها أحد. غرفها مليئة عادة بالغبار. أما أرضية الغرفة فهى مليئة بأعقاب السيكاير، و تجد حول جدران الغرفة كراسى ذات يدات مربعة الشكل و ثقيلة الوزن و هى من الطراز الذى يستعمله العراقيون. و الكراسى مصفوفة بأغطيتها المخملية السوداء. و هناك فاصلة بين كل زوج من الكراسى توضع فيها منضدة صغيرة. و خلف النوافذ ذات القضبان يتحدث الشيوخ بجدية مع الزوار بينما يبقى كل فرد بعيدا على مسافة و يقف بإجلال و احترام.

كان عباس، ابن عم فالح الذى يحبه كثيرا، موجودا فى داره يمكث معه و كان يتوق للعودة إلى دار أبيه بالقرب من المجر. التفت فالح إلىّ و قال: «راح تجى ويّانا باچر للصيد. موش هيچ؟ راح نجرب صيد البط على امتداد حافة الهور. بلكى نشوف عدد من الخنازير. و هسه يا عباس، ما تكدر تروح و الإنكليزى عندنا و يريد يطلع للصيد ويّانا. خلى أذز فد واحد للبيت و يجيب وياه بندقيتك. تكدر تروح إلى بيتكم باچر بعد العصر.

لويش هل العجلة؟ موش راح تتزوج». و لسوء الحظ، اقتنع عباس بكلامه و رضى بالبقاء.

تناولنا فطورنا المتكون من بيض مقلى و خبز من طحين الأرز و حليب جاموس مغلى ثم خرجنا فى ذلك الصباح البارد الصافى و أتينا إلى مربض الخيول و كان فيه ثلاثة أفراس عربية أصيلة رمادية اللون، كل واحدة منها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۶

ملفوفة ببطانية و قوائمها الأربعة مقيّدة. ثم عرجنا إلى المضيف حسب العرف الجارى و بعدها خرجنا إلى المكان الذى ينتظرنا فيه نوتية الزورق الرابضون بالقرب فى طرادة الشيخ فالح. و قال حينما وصلنا هذا المكان «زين داير. راح نروح لصيد البط عند مصب الخر!». و داير هذا رجل مسن قد و خط الشيب شعر رأسه و هو أكثر التابعين ثقة. إبتسم ابتسامة عريضة.

«اللّه يعلم. بلكى نشوف عدد قليل من البط. يظهر أنها راحت من مدة قليلة. منسوب الماى فى بدى يرتفع، لازم نشوف عدد كثير من طائر الفرّة المائى». ركبنا الطرادة. أنا و فالح و عباس. بينما ركب عبد الواحد بن فالح فى الزورق ثم إنطلقنا و سرنا بجانب المجرى نازلين.

كان عباس يجلس وسط القارب بينى و بين فالح. و كان قد وضع مشط رصاصه فى الكيس أمامى، و لاحظت وجود عدد من الخراطيش عليها الحرفان [إل جى] موشاة كيفما اتفق، و قال بأن عبد الواحد كان قد أعطاه إيّاها حتى يملأ الفراغات الموجودة فى المشط. قلت له: «هذه الخراطيش تستعمل لصيد الخنازير فقط. باللّه عليك لا تستعملها لصيد البط و إلّا ستقتل شخصا ما». و دسستها لأبرهن أقوالى، فتحت إحدى الخراطيش و أريته الكرات السبعة ثم ألقيتها فى جيبى. و اقترحت على فالح بأن يحذر ابنه من هذه المسألة، ففعل.

و لما وصلنا حافة الأهوار، انتقل كل واحد منا إلى زورق صغير و معه رجل يجذف له ثم انطلقنا إلى داخل القصب. أما الآخرون فإنهم ذهبوا فى اتجاه واحد للبحث عن البط. و سرت أنا فى اتجاه آخر لعلى أجد خنزيرا لاصطاده.

و لأن منسوب الماء مرتفع فمن الواضح أن الخنزير سيترك الهور و يتجه نحو الأرض اليابسة، و بوسعى، من مكان هذا، أن أسمع صوت إطلاق الآخرين، عدت إلى المتابة التى سبق أن عيّنّاها، فوجدتهم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۷

موجودين هناك. و يظهر أنهم لم يعثروا على البط بل اصطادوا عددا من طائر مائى آخر يسمونه الفرّة. و سألنى فالح عما إذا كنت أرغب فى مواصلة الصيد أو أنتظر لتناول وجبة الغداء. فقلت له: لا رأى لى فى ذلك، فانظر ماذا ترى. فقال: «عندى تسعة طيور غرّة. أريد أسويهن عشرة. الفدا راح يطوّل فد ساعة، خلّى نستمر بالصيد».

و فى هذه المرة رافقتهم.

إنتظمنا فى صف واحد، و المسافة بين زورق و آخر سبعون ياردا.

جذفنا و نحن نسير بموازاة الشاطىء من خلال أشجار الأسل المتشابكة و المنتشرة فى هذا المكان. و كان فالح و عباس إلى يسارى. شاهدت طيور الفرّة عريضا و هى ترتفع و ترفرف بأجنحتها فوق رؤوسنا متجهة مع الريح.

أطلقت النار عليها فسقطت إحداها ثم توقفت حتى التقطها فسمعت صوت إطلاقة باتجاهى. مرّت الإطلاقة من يمينى فصحت قائلا «خاطر اللّه. شوف المكان اللى ترمى إلها!». و على مسافة بعيدة قليلا شاهدت زورق فالح ثابتا وسط المياه المكشوفة و على بعد (۵۰) ياردا عن منابت القصب.

نظر الشخص الذى يجذف زورقى نحو زورق فالح و صرخ قائلا:

«فالح مجروح» ثم بدأ يجذف بشكل جنونى نحو الزورق.

و لما وصلنا رأيت فالحا ملقى إلى الأمام مستندا إلى داير، عيناه مغلقتان و يبدو أنه فاقد الوعى، و شاهدت بقعتى من الدم فى القسم الأمامى من دشداشته البيضاء. فأمرت الشخص الذى يجذف زورقى بأن يجعله بجانب فالح. انحنيت و مسكته من رسغه فوجدت نبضه ضعيفا جدا. ثم فككت دشداشته فتدفق الدم من فوق حلمة ثديه من خلال ثقب أزرق دائرى نتيجة لإطلاقة ذات كرة كبيرة. و فى هذه الأثناء وصل عبد الواحد و استفسر عما حدث فقال له داير «عباس هو اللى رمى» قالها لأول مرة و هو يومىء

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۸

برأسه إلى منابت قصبة قريبة. فتشت المكان و لم أجد أثرا لأى شخص.

أما الأشخاص الأربعة الآخرون فانفجروا ينددون و يولولون و يكررون القول «أبويا. آه- يا بويا». و كانت الزوارق الثلاثة تهتز كأنها أطواق صغيرة تلعب بها الرياح و إلتفت إليهم و صحت بغضب «إسكتوا! ماكو فايدة من البقاء هنا و أنتم تولولون. لازم نخرجه على الساحل. أنت داير- إمسكه و نحن نجذف من كلا الجانبين و نسحب زورقك». فتوقفوا عن العويل فجأة و انطلقنا نحو الساحل الذى يبعد مقدار (۳۰۰) يارد. و من هذه المسافة أمكننى مشاهدة قرية صغيرة، و قصّ علينا داير ما حدث فقال: «كنا نحاول الاقتراب من بعض طيور الفرّة. ما شفنا أى شىء. بعدين طار». مالك الحزين من بين القصب. كان عباس فى الجانب الآخر من القصب و أطلق النار باتجاهنا و أصيب فالح و سمعته يصيح (عباس قتلنى). و بعدين شفت عباس ينهض من بين القصب و صاح (اللّه! ۱ ما كنت أعرف أنت هناك) و بعدين ما شفت عباس للتالى.

كان عمق الماء كبيرا. و لو لم يتمكن داير من إبقاء الزورق منتصبا على الماء حينما أصيب فالح بطلقة نارية لأصبح عند ذلك من عداد الغرقى بالتأكيد. و لما وصلنا الساحل وجدنا الشخص الذى يجذف زورق عباس فقط و سألناه «وين راح عباس؟».

«طلب منى إنزاله بهل المكان. نزل وراح يركض».

كان فالح لا يزال فاقد الوعى، نبضه ضعيف جدا بالكاد أشعر به، علينا أن نعود بأسرع ما يمكن إلى داره ثم نأخذه إلى المجر و منها إلى البصرة أو العمارة بالسيارة لكى نجرى له عملية نقل الدم.

أرسلت الشخص الذى يجذف زورق عباس بسرعة إلى القرية حتى يحضر قاربا كبيرا. ثم خطر ببالى أن أبقى فالح دافئا، لذا أرسلت شخصا آخر إلى القرية لجلب الفراش. أما عبد الواحد فقد بقى ساكنا يحدّق إلى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۲۹

أبيه المغمى عليه، لا يدرى ماذا يفعل، ثم سأل مرة أخرى و قال: «هل يموت يا صاحب؟ هل يموت؟».

«إرادة اللّه. إنه سيعيش، لكنه مجروح جرحا خطيرا جدا».

و اندفع عبد الواحد كالمجنون و هو يصيح «وين راح عباس؟ وين راح؟ و اللّه إذا فالح مات راح أقتله. صاحب. أنت صديق فالح. لازم تساعدنى حتى أعثر عليه و أقتله. وين راح هل الملعون؟» ثم بدأ ينتحب و يتشنج. ظهر صبيّان من مكان ما وكانا خائفين بشكل واضح. وقفا سوية على بعد قليل و هما يراقبان. ناديت على الأكبر و قلت له بأن يسرع إلى القرية و يعجّل بمجىء القارب. فركض كلاهما مسرعين.

لم يكن بوسعى أن أفكر بأى شىء آخر أفعله بل إنما نظرت نحو فالح و أنا فاقد الأمل من نجاته ثم نظرت نحو داير الذى كان لا يزال

يمسكه، كانت دموعه تنهمر من عينيه و تسيل على وجهه.

بدأ الرجال و النساء يتقاطرون و هم يركضون عبر الحقول ثم وقفوا على مقربة منا على شكل مجموعات صغيرة.

أخبرنى أحدهم بأن القارب الكبير قادم من القرية. و لكى نوفّر الوقت، اقترحت بأن نأخذ فالح بزورقه إلى مصب المجرى.

و بدأ شخصان يسحبان الزورق و هما يخوضان فى المياه الضحلة و أخيرا التقينا بزورق آخر و إرتحت لرؤيته لأن فيه الفرش و المخاديد بالإضافة إلى وجود سجاد مفروشة فى وسطه. و عندما بدأنا نرفع فالحا فتح عينيه و قال بشكل واضح «شوفوا البندقية محشوة بإطلاقة» ثم أغمض عينيه مرة أخرى و اضطجع ساكنا.

نقلناه إلى الزورق الآخر بعناية. جلس داير فى الخلف و أسند رأسه ثم لففناه بالسجاد و ناولنا عدد من الموجودين عباءاتهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۰

تسلق أحد الرجال إلى مؤخرة الزورق حتى يوجهها. و شدّ رجل آخر حبلا فى مقدمة الزورق بينما بدأ رجلان آخران يسحبان الزورق بعكس المجرى. سرنا وراءهم على الساحل و كان معى عبد الواحد نسير بحذر من كثرة الأشجار الشوكية اليابسة و المنخفضة، و كنا قد تركنا أحذيتنا فى الطراد و كانت أقدامى لا تزال صلبة بعد سنوات طويلة من السير حافى القدمين فى الصحراء، غير أن عبد الواحد الذى لا يسير أبدا بدون حذاء بدأ يعرج ثم أخذ يتخلف عنى فى المسير.

فتح فالح عينيه و حاول أن يتكلم، و أمرت الرجال بالتوقف و جلست راكعا بجانبه. و قال هامسا: «وين عبد الواحد؟».

«راح يجى».

«قل له ... قل له عن لسانى، صاحب. لازم يأخذ عباس و يوديه إلى أبوه. ما لازم يتركه وحده إلى أن يصبح بأمان عند محمد. ما أريد يجرى عليه أى شىء. لازم يتأكد بنفسه ما يجرى شىء إلى عباس. هاى هى أوامرى. قل له خلى يروح هناك».

أغمض عينيه مرة أخرى و أشرت للرجال بأن يواصلوا السير.

المفروض أننا سنعثر على عباس أمامنا و هو يركض بشكل بائس متوجها إلى بيته.

انتشرت أخبار الحادث عبر الريف فى الوقت الذى كنا نسير فيه ببطء بعكس. توجهت نحونا مجموعات صغيرة من الناس من مختلف القرى و هم صامتون. و لما وصلوا اندفعوا إلى الماء ثم بدأوا يصرخون و يولولون و يضعون الطين على رؤوسهم و يسكبون الماء على ثيابهم. أما النساء فبدأن يمزقن ثيابهن و يضربن على صدورهن و هن يعلن «فالح. أبويا. أبويا» و يواصلن السير خلفنا.

أما فالح فقد كان ممدا وسط الزورق، بوجهه الشاحب جدا إزاء

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۱

دشداشة داير الداكنة. حدث كل هذا الشىء فى مدة تقل عن (۲۴) ساعة، و كان قبلها يرحب بمقدمى عندما أتيت إلى داره.

إلى الآن كنت فاقد الحس و الوعى و لم أستوعب ما حدث. أخذت أحدّث نفسى قائلا بأنها حادثة أصيب فيها فالح بجرح بليغ. أما الآن فإننى مقتنع بأنه سيموت. فإذا بكيت عليه مثلما يبكون فسيعلم الذين هم من حولى إنه سيموت. لذلك، ضبطت نفسى و منعتها من البكاء، و وجدت، نفسى أنا الذى كنت أشاركهم فى السراء و الضراء، عاجزا عن التعبير عما يجيش به صدرى من الألم فى مثل هذا الموقف الحزين.

أخيرا، و فى ساعة متأخرة من بعد الظهر، وصلنا إلى قرية فالح.

جاءوا بهيكل سرير و رفعناه لنضعه عليه ثم نقلناه إلى داخل البيت وسط الحشد المتجمع اللاواعى.

دخل أكثر ما يمكن من الناس داخل الغرفة و بقوا صامتين. أما فى خارج البيت فقد ارتفع العويل و بدأت النسوة يضربن على صدورهن العارية بأيديهن فتسمع صوتا كأنه صوت الطبول.

فتح فالح عينيه و حدّق فى سقف الغرفة، نظرت إلى وجهه الذى استبشرت فيه علامات الحياة فرأيته باهتا و شاحبا جدا من كثرة النزيف و كأن وجهه قناع من الشمع لا حسّ فيه و لا حراك. و رجانى الناس بأن أعطيه الدواء و أبوا أن يصدقوا بأنه ليس بوسعى أن أفعل أى شىء. تنحيت بعبد الواحد جانبا و قلت له بأن الأمل الوحيد هو أن نأخذ فالح إلى المكان الذى يمكن فيه من إجراء عملية نقل الدم. و أن كل لحظة تمضى تقلل من فرص نجاته. وافقنى على رأيى و لكنه لم يفعل أى شىء. و وقف أناس آخرون حول الفراش و هم يقولون بصوت مسموع «راح يموت». «نعم. هو ميت تقريبا». «و اللّه، فالح ما يستحق الموت بهل شكل».

طلب فالح الماء همسا، و لكن حينما جاؤوه به لم يتمكن من بلعه فسال حول ذقنه و تبللت دشداشته.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۲

و فى هذه الأثناء وصل ابن أخيه الآخر المدعو حطاب. و من حسن الحظ أنه كان شخصية لها وزنها و يطيعه الناس على الدوام. فتولى

فورا المسؤولية، فنقل فالح إلى طرادة و انطلق به إلى قرية أبيه حمود الواقعة فى المجر.

تبعته بقارب آخر، لكنه كان ثقيلا و بطيئا فابتعد الطراد عنا مسافة كبيرة. و عندما وصلت إلى المجر كان فالح قد نقل إلى الديوانية التى تعود إلى حمود ثم ذهب ليتصل هاتفيا بمجيد الخليفة فى بغداد.

التقيت بالطبيب المحلى حيث وجدته بين الحشد فى الممر و سألته عن رأيه. هزّ رأسه و قال، أخشى أنه سيموت. و اتفق معى فى الرأى من أنّ الأمل الوحيد هو نقله مباشرة إلى البصرة، لأنه أقرب مكان لإجراء عملية نقل الدم.

ثم صاح أحدهم قائلا: «وين هذا الإنكليزى؟». فلما دخلت الغرفة قيل لى بأن فالح قد طلبنى فذهبت حيث يرقد. حرّك عينيه و نظر إلىّ، لكنه لم ينبس ببنت شفة. و كانت أسرته فقط هناك، فترددت أولا ثم دخلت و بقيت واقفا بجانب سريره.

انتظرنا طويلا، و قد بدأ الظلام يزداد عتمة من الخارج فجلبوا فانوسا و وضعوه فى إحدى الزوايا فأضئت الغرفة بضوء خافت.

عاد حمود و بدا لأعيننا كأنه ذاهل، إذا لا بدّ من إبلاغ الشيخ مجيد بالخبر الذى سيثير أعصابه. «يجب نقل فالح إلى بغداد حالا. هذه هى أوامر الشيخ مجيد. أرسلت لإحضار ثلاث سيارات».

و كنت موقنا من أن فالح لن يبقى على قيد الحياة أبدا فى رحلة كهذه على طريق وعر جدا طوله (۲۵۰) ميلا فى مثل هذا الوقت الذى حل فيه الظلام. قلت لحمود «خذوه إلى البصرة» ثم رجوته كثيرا قائلا «بإمكانك أن تأخذه بالطائرة من البصرة إلى بغداد من الصباح. و إذا ألحّ مجيد، أتوسل

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۳

إليك أن تأخذه إلى البصرة. إنها مجرد ثلاث ساعات من الوقت. يمكن أن يأخذ هناك الدواء الذى يحتاجه. لا تذهبوا حتى إلى العمارة. إذهبوا رأسا إلى البصرة».

لكن حمود أجاب ببساطة «راح نروح إلى العمارة أولا ثم نتدبر الأمر بعدئذ» وصلت السيارات الثلاثة فنقل فالح مرة أخرى إلى المقعد الخلفى لإحدى السيارات. دسّ جميع أفراد أسرته ممن وجد له مكانا فى السيارة نساء و رجالا. ثم انطلقت السيارات. أما أنا و داير فقد عدنا نجذف الزورق نازلين مع النهر فى الظلام إلى قرية فالح.

تكلمنا قليلا، و لكننى أتذكره يقول: «حدث هذا الشىء بكل بساطة، راد يرمى دجاجة مای أخرى. حياة فالح من شان دجاجه مای أخرى».

توقف داير عن الكلام لفترة ثم استطرد و قال «هاى مكتوبه يا صاحب».

و بالنسبة لى، بدا لى أيضا أن الحادث مدبّر، و ليست الصدفة وحدها، و إلّا، لماذا يخلط عباس الخراطيش و يملأ بندقيته بخرطوشة ذات كرات كبيرة تستعمل لصيد الطرائد الكبيرة و يطلق النار فى المناسبة الوحيدة باتجاه فالح؟. و إلّا، لماذا تصيبه الرصاصة فى المكان الذى أصابته و هو على بعد سبعين ياردا؟.

و لما نزعت ملابسى فى دار فالح، رقدت فى الغرفة نفسها التى كنت فيها قبل ليلة، فى الصباح و أنا أرتدى ملابسى وجدت فى جيبى الخرطوشة التى قطعتها و فيها سبع كرات كبيرة. رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس ؛ ص۲۳۳

جت مبكرا و توجهت إلى المجر، و استأجرت سيارة إلى البصرة، و هناك سمعت بأن فالح قد نقل بالطائرة إلى بغداد. و سمعت الناس يقولون عنه بأنه أحسن حالا و أن لهم الأمل فى شفائه. فأبرقت برقية إلى صديقى فى بغداد بأن ينتظرنى فى الصباح فى محطة القطار. و لما حان موعد حركة القطار كنت فى المحطة و أخذت مكانى فى إحدى صالاتها.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۴

و لما وصلت بغداد، التقيت بصديقى فى المحطة و ركبنا السيارة قاصدين مدينة بغداد نبحث عن دار الشيخ مجيد الخليفة.

سألت الشرطة فشرحوا لى موقع داره ثم قال بعد تفكير «لكن مجيد راح إلى النجف ليدفن ابنه الذى مات يوم أمس».

هذه هى القصة التى سمعتها عن موت الشيخ فالح مجيد الخليفة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۵

۱۷- مراسيم العزاء

عدت مرة أخرى أبحث عن دار الشيخ مجيد الخليفة بعد أن عاد من النجف الأشرف و دفن ولده فالح هناك. وجدت الدار بكل سهولة، و هو عبارة عن (فيلا) فى ضواحى بغداد. ضغطت الجرس الكهربائى فجاءنى من قادنى إلى الداخل. رأيت عبد الواحد و خلفا، الأخ الأصغر لفالح، جالسين فى الغرفة. حييتهما ثم انتظرنا قدوم الشيخ مجيد الذى جاء من دون تأخير.

رأيت عينه الحمراوين من كثرة البكاء، و وجهه الكئيب من شدة الحزن و المصاب الأليم. و بعد التحايا الرسمية دعانى بأن أجلس بجانبه على الأريكة. ثم سألنى عن أحوالى و عن الوقت الذى وصلت فيه، و هى أسئلة تقليدية تتطلبها عادات العرب.

عبّرت له عن حزنى الشديد و قدّمت له التعازى فالتفت إلىّ و قال ببساطة «صاحب. أعرف أنت صديق فالح» ثم جلسنا صامتين. و بعد فترة دخل علينا أحد الخدم و بيده دلّة القهوة. و لما أكملت شرب القهوة سألنى مرة أخرى عن أحوالى ثم سكتنا.

مرّ فى ذهنى خاطر، شعرت بأن جلوسى بجانب هذا الشيخ الكهل و المصاب بهذه البلوى التى قضت على آماله و طموحاته بموت إبنه إنما هو شيء أكثر مما أتحمله. بقيت فترة ثم طلبت الإذن منه لأغادر المكان.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۶

فقال لى «مع السلامة» و أجبته «ابق فى حفظ اللّه». و لما خرجت من الدار بدأ المطر ينهمر و استمر هطوله طوال النهار بأسره.

و بعد بضعة أشهر، صادفت طبيبا إنكليزيا، إختصاصيا فى أمراض القلب، مستخدما فى بغداد من قبل الحكومة العراقية. كان فى البصرة حينما جاءوا بفالح إلى المطار. و لما سمع بالحادث ذهب من تلقاء نفسه إلى المطار و فحصه و أراد أن يجرى له عملية جراحية فورا حتى يزيل ضغط الدم المتخثر حول قلبه. لكن، قيل له بأن الشيخ مجيد قد أصدر أوامره بنقل إبنه إلى بغداد، و حاول الطبيب أن يشرح لهم بأنه هو الطبيب الاختصاصى فى القلب لدى الحكومة فى بغداد، و هو الطبيب الوحيد بالبلد. و أكّد لهم بأن الفرصة الوحيدة لإنقاذ حياة فالح هى السماح له بإجراء العملية فورا. رفضوا طلبه. ثم قال لى لا شيء فى الحقيقة يمكن أن ينقذ حياة فالح. و أظهر التشريح الطبى بعد الوفاة بأن الكرات الكبيرة قد أتلفت القلب، و قطعت الأعصاب الكبيرة و حطمت الرئة.

إنّ أشد ما أدهشه هو كيف بقى فالح حيا طوال هذه المدة الطويلة ثم استدرك و قال لا بد أنه كان قويا بشكل استثنائى.

و بعد ثلاثة أيام ذهبت إلى قرية فالح لأشارك فى الحزن و الحداد.

وصلت القرية وقت الظهر تقريبا. و كنت أسمع عويل النساء و ضرباتهن الإيقاعية على صدورهن و أنا لا أزال بعيدا عن القرية. و لما وصلتها رأيت زوارق كثيرة راسية على الساحل و حشدا كبيرا خارج المضيف و رايات عشائرية عديدة موضوعة فى المدخل و كانت طياتها الحمراء و النقوش الفضية على سارياتها تلمع مقابل جدران القصب تحت أشعة الشمس البراقة. و كان الجميع جالسين بسكون داخل المضيف الذى كان معتما حيث جلس الرجال، و عباءاتهم ملفوفة حول أجسامهم، على طول جدران المضيف و هم لا يبدون حراكا، و لما دخلت همس أحدهم بأذنى قائلا:

«الشيخ مجيد جالس هناك» فعبرت الغرفة و حييته و صافحته ثم بحثت عن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۷

مكان لأجلس فيه. أفسح الرجال لى فى المجال كى أجلس. عرفت بعض الأشخاص فى المضيف و لكن لم يكن عدد الذين عرفتهم كبيرا و رأيت عددا من السادّة و على رؤوسهم القماش الأخضر و عددا من علماء كربلاء أو النجف الأشرف و هم بملابس سوداء مع عمامة صغيرة محكمة اللف بقماش أسود أو أبيض، و شيوخ العشائر، كلهم جاءوا مع أتباعهم من مسافات بعيدة مثل الكوت و الناصرية، كما جاء أيضا مختارو القرى و شيوخها و رجال من أبناء المدن و التجار من المجر و العمارة و البصرة كما كانت هناك أقارب الشيخ مجيد و كل رجال العشيرة.

وضع أحد الصبية علبة سجاير أمامى. ثم نهض عبد الرضا من جانب الموقد حاملا بيده دلّة القهوة و اقترب منى و أعطانى فنجان قهوة. و بعد لأى قال لى أحد الأشخاص الجالسين بجانبى بهدوء: «مساء الخير صاحب».

ثم خفتت الحركة. و كان أحد الأشخاص يقول بضع كلمات من حين لآخر بصوت خافت مع من بجواره لكن الصمت كان يسود المجلس فى أكثر الأوقات و لا تسمع سوى صوت حبات المسابح التى يسبحون بها أو يدخنون السكاير.

نهض ستة أشخاص و توجهوا نحو الشيخ مجيد و سلّموا عليه ثم غادروا الغرفة ثم جاء آخرون و دخلوا الغرفة.

يدخل شخصان أحيانا أو ثلاثة سوية و أحيانا عشرون شخصا مرة واحدة. و كل من يدخل يتقدم نحو الشيخ و يسلم عليه ثم يعود ليجد له مكانا للجلوس ثم يأتى من يقدّم لهم القهوة و الشاى و السكاير.

و قبل أن تغادر كل جماعة، يقول أرفعهم مقاما بصوت مسموع «الفاتحة» فيقرأ كل من يسمع ذلك السورة المذكورة من القرآن الكريم و أكفهم مفتوحة كمن يطلب الدعاء من اللّه جلّت قدرته.

كان بوسعى و أنا جالس فى مكانى أن أسمع صوت القوارب و هى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۳۸

ترسو أو يتم دفعها لترحل لأنه لا يفصلنا عن الساحل سوى جدار مصنوع من الحصير، كانت العصافير تزقزق بين أقواس القصب

العظيمة فى السقف و لا تبالى بوجود الحاضرين.

ثم نهض عدد كبير من الجالسين و قدم غيرهم أقل منهم عددا لذلك ظهرت الفجوات الواسعة بين الجالسين حول الجدران.

و كنت قد اعتدت الجلوس على الأرض من جراء تجوالى لسنوات طويلة أجوب فيها صحراء الجزيرة العربية. لكننى الآن بدأت أشعر بوجود ألم فى جسمى من جراء تصلب العضلات. و ما أن نهض الشيخ مجيد من مكانه و غادر المضيف و تهيأ الآخرون لتأدية صلاة المغرب حتى خرجت من المضيف أبحث عن داير. و لما رأيته، سألته عن المدة التى يجب أن أبقى فيها فأجابنى قائلا: «يعرف الكل أنك صديق فالح. أعتقد يتوقعون منك أن تبقى يومين آخرين. تعال هسه وياى و اجلس مع بعض أصدقائك». ثم قادنى نحو سقيفة طويلة من القصب كانت قد أقيمت خلال الأيام القليلة الماضية. و كنت قد خرجت مرة مع الشيخ فالح إلى هذا المكان حينما أردنا الذهاب للصيد و كانت الشمس مستقرة فى كبد السماء أمامنا على شكل كرة و هاجة برتقالية اللون، و ذلك قبل إقامة هذه السقيفة.

رأيت فى داخلها عدد من أتباع الشيخ فالح و هم جلوس حول موقد النار الصغير و أغطية رؤوسهم مصبوغة باللون الأزرق الداكنة كعلامة للحزن. رحّبوا بمقدمى بأسلوب لطيف و قدموا لى القهوة بكثرة. و من الأمور الحسنة أن العرب يصبون بضع قطرات منها فى الفنجان حينما يقدمونها للضيف. أما أنا فقد شربت عددا لا يحصى من الفناجين فى ذلك اليوم.

و فى هذا الوقت، بعد أن حل الظلام، بدأت بنات آوى بعدائها المسائى من الساحل الكائن خلف النهر، كلها بصوت واحد، مرة يعلو

و أخرى ينخفض ثم يعلو ثانية. و كانت أصواتها تهتز و لها رنين عبر الأرض الساكنة ثم تخفت بالتدريج حتى يصبح الصوت كالزعيق المصحوب بالعذاب.

سألت عما حلّ بعباس. فأجاب داير باستهزاء قائلا: «هرب إلى قلعة صالح وذب نفسه فى أحضان الشرطة طالبا الرحمة. بعده لا يزال هناك.

اللّه يدمره».

«و محمد أبوه».

«هو الآخر راح إلى قلعة صالح و طلب المساعدة من الحكومة.

و يقال أنه كلف أحد المحامين».

«محامى!» قال أحدهم «المحامى ما يكدر يسوّى فد شىء. مجيد فى غاية الغضب لأنه راح إلى الحكومة. عمله فد شىء موزين تماما».

«نعم» أبدى الآخر ملاحظة «كان لازم يجيب وياه عباس و يسلمه إلى مجيد، إن كان هو الفاعل، و مجيد لا بد و أن يخلصه. بس هسه حتما راح يقتله». و قال داير استمرارا للحديث:

«هذوله أغبياء جدا. راح تصير مشكلة كبيرة». ثم قال أحدهم:

«هسه مجيد يكول بأن عباس رمى فالح متعمد بسبب النزاع حول الزراعة».

و أجاب داير على هذا الكلام قائلا:

«أنا أعرف راح يسويها».

عدت إلى المضيف فوجدت ما لا يقل عن ثلاثين شخصا. لم أعرف أحدا منهم. غير أنّ أحدهم سألنى قائلا: «هل أنت الإنكليزى صديق فالح؟». و عندما أجبته بالإيجاب قال: «مرحبا. مرحبا بصديق فالح». سأل آخر عما إذا كنت معه حينما أطلق عباس النار عليه و ماذا حدث. و بينما

كنت أقصّ عليهم الخبر، جىء بالعشاء فأكلنا بصمت كما هى العادة ثم أخذنا نتكلم بعد ذلك إلى أن جاء الخدم و معهم الفرش و بدأوا يرتبونها حول جوانب الغرفة.

و لما أصبح الصباح، كان المضيف فى هرج و مرج، فبدأ النائمون ينهضون تباعا و يغسلون أيديهم و وجوههم و بعضهم يتوضأ حتى يؤدى صلاة الفجر. جلسنا على طول الجدران ولف الخدم الفرش ثم رفعوها. هيأوا القهوة و بدأنا نشربها ثم جاء صبى يحمل طبقا كبيرا مملوءا بأقراص أرغفة من الخبز و ألقى واحدا أمام كل شخص منا. فبدأنا نأكل الخبز و نشرب قدحين أو ثلاثة أقداح من الحليب المغلى.

و جاء الشيخ مجيد فنهضنا إجلالا و احتراما لمقامه و كان يصحبه إبنه الأصغر خلف و ابن فالح عبد الواحد و آخرون من أسرته.

حيّانا ثم جلس فى المكان نفسه الذى كان فيه قبل يوم و جلسنا نحن أيضا فى أماكننا حول الجدران.

بدأ الناس يدخلون المضيف بالتدريج حتى أكتظ بهم. و راقبت الشيخ مجيدا فرأيته متعبا جدا، محطم القلب، مملوءا بالأسى و الحزن. لحيته رماديـة اللون غير محلوقة و كرشه الكبير يتدلى أمامه و هو رجل عجوز. أخذ يتكلم بعنف و غضب و يقول: «ليش يكون الموت لفالح؟ ليش فالح؟ يا رب، هسه ما بقى عندى أحد». و تذكرت أن ولده الأخير خريبط كان قد قتل قبل ثلاث سنوات.

و حاول من كان بجانبه تهدئته فقال له: «عندك خلف و عبد الواحد».

لكنه صاح «لا. لا. ما عندى أحد. هسه ما عندى ولد. أرضـى إيش راح يصـير بها لما أموت؟ ايش راح يصير لأرضى هسه بعد ما مات فالح؟».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۱

و فى هذه الأثناء وصل عدد آخر من المعزين و دخلوا المضيف و حيّوا الشيخ مجيدا فردّ على تحيتهم ثم غاص فى تفكير عميق.

و فى هذه الأثناء، حدث صخب عال على الساحل، ارتفعت أصوات الرجال و اشتدت ضربات المجاذيف. إنها جماعة، أتت للتعزية، و هى تحمـل بنادقهـا. نزلوا من القوارب و شـكلوا رتلا مفردا وراء رجل طويل القامـة، بجسم ضـخم، يرتـدى عباءة مطرزة بخيوط ذهبية مصنوعة من أجود خيوط الوبر.

همس أحدهم من أبناء البصرة و قال: «منو هذا الرجل؟».

«هذا سليمان بن مطلك» أجاب الشخص المجاور.

كنت قد سـمعت عن سـليمان، الشيخ البارز من عشيرة الأزيرج، زراع الشلب و أراضيهم مجاورة لأراضى الشيخ مجيد و لكننى لم ألتق به أبدا حينما زرت عشيرته.

كان وجهه شاحبا، إلا أنه ممتلىء الجسم، تبدو عليه علائم رقيقة من جراء السنوات التى عاشها برخاء، و أمضى معظم أوقاته فى بغداد، شأنه شأن الشيوخ الآخرين من أمثاله.

جلس بجانب الشيخ مجيد و جلس أتباعه فى أماكن كل حسب منزلته.

و يحمل كل واحد منهم تحت العباءة خنجرا وصف رصاص متقاطع مملوء بالعتاد. قدمت لهم القهوة و الشاى ثم ساد المجلس سكون رهيب. ثم قال سليمان «الفاتحة» فقرأ هو و أتباعه سورة الفاتحة:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعـالَمِينَ. الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مالِـكِ يَوْمِ الـدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُـدُ. وَ إِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ. اهْـدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ». آمين (صدق اللّه العظيم).

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۲

كنت آمـل أن يقـدموا الغـداء فى الحال حتى أتمكن من مـدّ ساقى و لكن على العكس سـمعت صوت إطلاقات ناريـة غزيرة و عويلا بشـكل جنونى و هـذا يـدلّ على قـدوم جماعـة أخرى. و لمحت من خلال مجاز الباب رايـة عشائريـة وحشـدا من الناس و قـد لطخوا رؤوسـهم و ملابسـهم بالطين. و قال أحدهم للشيخ مجيد «هذوله من قرية قباب». و كان معهم ما يقرب من (۴۰- ۵۰) شخصا من قرية بومفيفات.

توجه الكل برتل مفرد، الواحد بعد الآخر، نحو مجيد، يقبلون يده ثم يعودون ليجدوا لهم محلا فى المضيف. عرفت معظمهم.

ثم سمعنا بعد فترة وجيزة صوت إطلاقات أكثر غزارة و عويلا أشد.

إنهم من قرية العكار.

و الآن، مضـى على الظهر وقت طويل. و وصـلت فى هـذه الأثناء ثلاث رايات عشائرية أخرى تعود للعشائر القادمة للتعزية قبل أن يخبر الخادم الشيخ مجيد من أن الغداء جاهز.

كـان ينهض فى كل مرة (۴۰- ۵۰) شـخصا يتجهون نحو السـقيفة التى كنت فيها فى الليلـة السابقة و يتناولون الطعام من صوانى كبيرة عليها كوم من الأرز و فوقها لحم الضأن.

و عنـدما تنتهى كل جماعة من أكلها يملأ الخدم الصوانى بالأرز و لحم الضأن حتى تأتى جماعة أخرى. و هكذا يتناول الجميع الغداء، داخل المضيف، و خارجه.

ثم نهضوا من أماكنهم و بـدأوا بالهوسات و هى رقصة الحرب عند العشائر. و كانت كل جماعة تردد مقطعا من قصـيدة يلقيها أحدهم فى مدح الشيخ فالح. كانت بنادقهم مرفوعة فوق رؤوسهم و يضربون الأرض بأقدامهم يقفزون ثم يدورون حول الراية القرمزية.

و الرجال الذين يمسكون الراية هم رؤساء الأسر الذين تسمح لهم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۳

حقوقهم العرفية بحملها فى المعركة. و كان هؤلاء يهزون أعمدة الرايات حتى تحدث أصواتا تزيد من حماسهم. و يستمرون على هذه الحالة يضربون الأرض بقفزات و ينشدون قصائد المعركة و يبدأون بإطلاق الرصاص من بنادقهم بشكل متفرق فى البداية ثم ينهمر الرصاص كالمطر من الحشد بأسره بحيث أننى لم أسمع مثلها إلّا فى الحرب.

إن رائحة البارود تدخل فى خياشيمهم فتهيّجهم و تزيد من حماسهم فيبذلون جهدا أكبر. و ما زالوا يمارسون الهوسات حتى صاح بهم الشيخ مجيد «كفاية» فاندفع خدمه بين هذا الحشد و هم يصيحون «كفاية» الشيخ يقول «كفاية». فتوقفوا و هدأوا.

دخلنا المضيف مرة أخرى.

و بعد مضى عدة ساعات، غادر الشيخ مجيد المضيف بعد غياب الشمس، فخرجنا من المضيف.

كنت أتحدث مع جماعة من الناس و نحن على شاطىء النهر، إذا بصبى يمرّ من أمامنا مسرع و يصيح بأعلى صوته كلمات لا أفهمها و انطلق عدد من الرجال إلى دورهم مسرعين. و أنا أعلم أن القوم لا يزالون فى هياجهم و لكن مع ذلك سألت قائلا «ماذا حدث؟».

أجابنى أحدهم قائلا: «دز مجيد بعض الرجال حتى يقتلوا محمد».

فقلت: «لكن محمد هو فى قبضة الحكومة فى قلعة صالح».

«لا. يقولون أنه عاد إلى داره فى المجر».

شاهدت من خلال الضياء الباهت زورقين ينسلان بعكس المجرى محملين بالرجال المسلحين ليأخذوا بثأر فالح.

و كنت أسمع فى هذا الوقت عواء بنات آوى من الجانب الآخر من الساحل كأنها ترفض مثل هذا العمل.

سيكون محمد فى أمان طالما لا يزال واحد من قلعة صالح.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۵

۱۸- الأهوار الشرقية

نصحنى داير بأن أبقى يوما آخر، فاستأذنت فى اليوم التالى من الشيخ مجيد و غادرت إلى قرية قباب مع عماره و سبيتى اللذين كانا معى فى المضيف فى الليلة السابقة. وجدتهما فى غاية التأثر و الحزن بسبب وفاة الشيخ فالح. كانت الدموع تنهمر من عيون عماره حينما كانا يجذفان الطرادة و هو يقول: «هو أبونا. كان يسمينا صديق الصديق. و حينما يأتى إلى قريتنا يطلبنا ليستفسر عن أحوالنا».

و من خلال تجوالى فى السنة التالية، سمعت الناس فى أماكن بعيدة تقع على الحدود الإيرانية و أماكن تقع على نهر الفرات بالقرب من الناصرية يذكرون وفاته بأسى عميق. و كانوا يسألوننى «هل أنت صديق فالح؟» فكانوا يرحبون بى ترحيبا حارا. و ما كنت أدرى أنه معروف بهذا الشكل و أن له شهرة واسعة و أنه رجل محترم.

خططنا بأن نقضى الأسابيع الستة التالية فى الأهوار الشرقية. نمنا ليلة واحدة فى مضيف فالح حيث قام ولده الصغير بواجب الضيافة.

كانت قرية قباب أيضا تلبس ثوب الحداد فيدخل قليل من الناس إلى المضيف و لا يمكثون إلا فترة قصيرة ثم يخرجون.

و فى صباح اليوم التالى، التحق بنا ياسين و حسن فذهبنا جميعا إلى قرية البوبخت و هى قرية صغيرة من قرى الأهوار و أمضينا فيها ليلتين

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۶

قضيناها بالعمل الدؤوب من التطبيب ثم رحلنا. و بعد أن عبرنا من تحت عارضة جسر يمر من فوقه طريق الآليات من البصرة إلى العمارة و بغداد، وصلنا إلى نهر دجلة تحت مدينة العزير. ثم جذفنا بعكس المجرى و عبرنا مزار عزرا ذى القبة الخضراء و آجرها الأزرق.

يقع المزار بين أشجار النخيل الباسقة و فى جوانبه غرف متداعية لنوم الزوار.

و العزير نفسها مدينة قذرة، يتوقف فيها سائقو اللوريات و الحافلات للاستراحة. و هناك محرقة للطابوق، تبعد بضعة أميال خلف القرية و هى قائمة فى هذا المكان كأنها مذابح القرابين فى الكنائس.

و إن مثل هذه المحارق هى التى كان البابليون يحرقون فيها الطابوق ليبنوا دورهم منها. أما الآن فإن الطابوق المستخرج من هذه المحرقة يستخدم لبناء الدور ذات الطابق الواحد فى ضواحى البصرة.

قطع ياسين علىّ تفكيرى و تأملاتى حينما قال لى: «يقولون بأن الكوسج مسك رجل فى النهر بهل أيام وكص رجله». و أنا أعرف أن الكوسج يهاجم الناس أحيانا حينما يستحمون فى شط العرب فى البصرة.

أما العزير فهى بعيدة إذ تبعد عن البحر مقدار (۱۵۰) ميلا- و عن شط العرب (۸۰) ميلا. و عندما أظهرت تعجبى، أكّد رفاقى الصبيان

بأن العزير هى أسوأ مكان للكوسج. و فى المرة الثانية، عندما كنت فى العزير، أخبرنى أحد القرويين بأنه فى أيام زمان صادف والده سمكة ضخمة سدّت النهر، فى مكان فيه مياه ضحلة و لم يتمكنوا من التخلص منها، إلا بعد تقطيعها فى مكانها، و لما جذفنا فى امتداد النهر، سألت عما إذا كان يوجد الكوسج فى الأهوار. أجاب حسن بأنهم كانوا يصيدون الصغار منها بالرمح قبل بضع سنوات. قاطعه عمارة قائلا لى: «هل سمعت بأن ضبع قتل شخص بغيابك؟. كان نائم فى العراء خلف المجر و نهش وجهه. و جدوه ميت و تعرف عليه من ثيابه».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۷

كنت قد شاهدت ضبعا مخططا قبل ثلاث سنوات و أما الضباع المرقطة ببقع واسعة فتتواجد فى أفريقيا.

كانت الأسود تعيش فى هذه المنطقة قبل أربعين سنة من هذا التأريخ. و لكن العشائر قضت عليها بعدما حصلت على بنادق حديثة خلال الحرب العالمية الأولى.

أخبرنى مرة أحد خدم الشيخ فالح، و هو رجل كبير السن، كيف أنه شاهد ثلاثة ضباع بالقرب من المجر. و شرح لى رجل آخر كيف يصطادون الأسود حيث اشترك هو فى صيدها فى مكان لا يبعد كثيرا عن مدينة العمارة. و قال شخص آخر كنت قد صادفته بأنه شاهد شبلين حظى بهما جماعة من المعدان فأخذوهما إلى شيوخهم. و يتذكر الرجال المسنون أنهم كانوا يسمعون زئير الأسود ليلا.

تحولنا فى سيرنا إلى مجلس ماء عريض يقودنا إلى الأهوار الشرقية صادفنا قاربا كبيرا ذا صاريتين محملا بالحصران إلى ارتفاع عال يدفع بجهد كبير نحو نهر دجلة، ثم مررنا بعد ذلك بطوف كبير مصنوع من القصب اليابس، طوله (۴۰) قدما و ارتفاعه (۱۰) أقدام و كان جانحا فى الماء و مهجورا موقتا. و عندما يرتفع منسوب الماء، تطفو هذه الأطواف من القصب و تسير مع المجرى و ربما تصل إلى البصرة ثم تفكك و تباع.

أمضينا الليل فى قرية بيضات النوفل، و هى أكبر قرية شاهدتها فى الأهوار.

و تتألف هذه القرية من (۶۴۰) بيتا و لا يوجد فيها أى مضيف. و كانت مجموعات البيوت المختلفة مبنية على امتداد حافات الأرض اليابسة، تفصلها المياه. و فى بعض الأحيان يجف الماء حينما ينخفض منسوب نهر دجلة فيغادر النوفل قراهم و ينصبون الخيام على امتداد النهر مع جيرانهم من «البوغنام» القاطنين فى الشمال و مع البوبخت القاطنين فى الجنوب.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۸

و بعملهم هذا يكوّنون الشدّة، و هى فخذ صعب المراس من عشيرة البو محمد. يربى النوفل الجواميس، غير أنهم يعتمدون فى معيشتهم على حياكة الحصران حيث يصدرونها بأعداد كبيرة. فتأتى القوارب الكبيرة كالتى شاهدناها من قبل و تأخذ الحصران حينما يرتفع منسوب الماء حتى يسهل المرور منه. و كانت المياه فى هذه السنة عالية بشكل استثنائى.

من الأهوار الشرقية

مكثنا عند المختار و تناولنا طعاما رديئا فتضايقت من ذلك لأننى كنت قد عالجت عددا من أفراد أسرته. و أعتقد أن القرويين عموما خشنو الطباع فرحلت من قريتهم دون أن أشعر بأى أسف على الفراق. و شاركنى فى شعورى هذا رفاقى فكانوا يتذمرون و يقولون بأن مضيّفنا لم يقدم لنا الحليب فى الفطور بل إنما اكتفى بتقديم قدحين من الشاى محلّى بسكر قليل شربناه مع الخبز.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۴۹

و قال ياسين بازدراء: «اللعاب ما يسيل على مثل هذا الفطور». و على أية حال، كان ذلك النهار لطيفا جدا فانتعشنا. كان الهواء منعشا و صافيا، يهب النسيم العليل من الشمال. و الشمس تبعث بأشعتها الذهبية فتجعل النهار دافئا غير أن هناك غيوما دائرية الشكل منتشرة فى السماء الزرقاء الباهتة. جذفنا الطرادة فى قنوات ضيّقة متواصلة ثم انعطفنا عبر سهل مكشوف مغطى بالبردى المتساقط.

ففى الأهوار الوسطية، ما عدا فى الأهوار التى تتكون بالمناسبات، يتحدد مجال الرؤيا إلى حد بضع ياردات لوجود منابت القصب. و هنا فى هذا المكان بإمكاننا أن نرى لمسافة عدة أميال.

كانت الأرض يابسة طوال فصل الشتاء، لذلك نراها الآن كذلك كالفخار لأن المياه لم تغمرها و كانت تبدو رمادية اللون. أما فى الأماكن الأخرى فقد غطت المياه المرتفعة الأرض بعمق بضع عقد لذلك كان لونها كالطين أشبه بالشوكولاته المذابة.

و بمسيرنا هذا هيّجنا كثيرا من الطيور المائية، فبعضها طار بمفرده زاعقا و بعضها الآخر على شكل مجموعات كبيرة، تندفع فى الجو ثم تستدير فوق سطح الماء و البردى الأبيض اللون. و عرفت منها طائر الكروان و الغيّوب و الطبطوى الأحمر الساق و المخفّض و المائى ذا العنق الأحمر و الطائر النكّات و الطائر الطوّل و أنواعا أخرى من الطائر الزقزاق. كما كانت تنتشر أعداد كثيرة من البط طارت قبل أن نصل إلى مسافة تكون فيها ضمن مدى الرمى. و هناك مالك الحزين و أبو المنجل و البلشون الأبيض و الطائر أبو ملعقه. و مرة

شاهدت من مسافة بعيدة مجموعة كبيرة من طيور الكركى.

كان حسن يندفع باستمرار نحو كل طير يعتقد أنه صالح للأكل لكنه لم يقترب أبدا منها بحيث يتمكن من رميها. لذلك كان يعود فى كل مرة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۰

بخفى حنين و يتلقى الانتقاد اللاذع لأنه لا ينفع كصياد للطيور البرية. و كان ياسين و سبيتى فى غضون ذلك يسيران على امتداد الساحل و يدفعان الطراد بواسطة المرادى.

كان مجرى الماء واسعا يكفى لسير الزورق و ينعطف أحيانا بشكل حاد على شكل زاوية قائمة و لكن الجذافين تمكنوا فى النهاية من تسهيل استدارتها لأن زورقنا كان بطول (۳۶) قدما. و لهذا السبب رأيت أنه يجب أن نعود. ارتديت الدشداشة مثل رفاقى فإذا توجب علىّ النزول إلى الماء لمساعدتهما أثبت الدشداشة حول خصرى. و كنت أرتاب دوما من أولئك المسافرين الذين يرتدون الملابس المحلية دون سبب يستوجب ذلك بل هى عادة لديهم حتى يلفتوا الأنظار إليهم. و الملابس العربية ليست سهلة الاستعمال إن لم يكن قد اعتاد المرء عليها. و أما أنا فقد اعتدت على ارتداء الملابس العربية طوال خمس سنوات حينما كنت أتجول فى القسم الجنوبى من الجزيرة العربية حتى أظهر كواحد من العرب و بخلاف ذلك سأكون شاذا عنهم.

أما فى العراق، فقد اعتادت العشائر العراقية على رؤية الملابس الأوروبية فتراها مقبولة لأن جميع الموظفين الحكوميين لا يرتدون غير الملابس الأوروبية، و ارتديت الملابس الأوروبية حينما زرت الأهوار لأول مرة ثم لما شعرت أننى سأكون مقبولا لديهم إذا ما ارتديت الملابس العربية. وضعت الكوفية على رأسى ثم ارتديت سترة فوق الدشداشة الطويلة. و أصبح هذا الزى مقبولا حتى عند المعدان. و عندما كنت أجلس فى الزورق أو أمتطى ظهر الحصان تكون الدشداشة قد حافظت على سيقانى و أقدامى من لسعات الذباب و البعوض. لكننى كنت دائما أغير هذه الملابس و أرتدى الأوروبية قبل زيارتى للموظفين أو الذهاب إلى المدينة.

كنا نعبر جزءا من العويسج، و هى عبارة عن امتداد من الأرض يغوص فى المياه عند الفيضان فقط. و هذا يفصل نهر دجلة إلى مسافة (۲۰)

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۱

ميلا أو أكثر كما تفصل المستنقعات إلى محيطها فى أماكن أخرى اعتبارا من هور العظيم و إلى الشرق. و لما كانت هذه الأهوار عميقة بشكل عام فإنها تشكل أحسن مكان للجواميس، لذلك يميل المعدان إلى بناء قراهم على امتداد العويسج أو على مصبات الكحلا و المشارّيا إلى الشمال. و فى فصل الخريف يعبر بدور ربيعة الفريجات نهر دجلة مع قطعان هائلة العدد من الجواميس و ينصبون خيامهم و يقضون فصل الشتاء هناك. أما فى فصل الربيع فيعودون عبر نهر دجلة ثم يعقبون فرع الواديه ببطء متجهين نحو الشمال و يرعون جواميسهم على حقول محاصيل الشعير و الحنطة و هم فى طريقهم إلى المجر حيث يسمح لهم بهذا العمل مجانا مقابل السماد الذى يحصلون عليه منهم. ثم ينتقلون إلى الغرب إلى (جندالا Jindala) حتى ينقضى فصل الصيف فى هذه الأراضى الصالحة للرعى و التى لا مثيل لهما. و ينمو العشب حالما تنحسر المياه عنها، و لكن من أجل هذا، عليهم أن يدفعوا للشيوخ أموالا باهظة.

كان عمارة ينتمى إلى ربيعة، و توقعنا أن نجد أقاربه فى أبو ليلى و هى أكبر مخيّم شتائى لهم، يقع على مسافة قريبة منا. و لما اقتربنا، رأينا قطعانا من الجواميس يحرسها عدد من الصبيان. و شاهدت بين هذه القطعان جاموسا أبيض اللون تقريبا و عددا آخر من الجواميس المرقطة باللون الأبيض و الأسود. و لما كان حجم القطيع قد أثّر فىّ لذلك سألت عن عدد ما تملكه الأسرة البدوية الاعتيادية من الجواميس.

فأجاب عمارة قائلا «بين ۲۰- ۳۰» جاموسا. غير أن حسن أخذ يصرّ فى قوله بأن معظم الأسر تملك أكثر من هذا العدد بكثير. و ذكر اسم إحدى الأسر من ربيعة كدليل على صحة قوله بأنها تملك (۱۵۰) جاموسة.

ثم سألت: «فى أى عمر تلد الجاموسة؟».

«عادة، تبلغ الرابعة من العمر» قال عمارة ثم استطرد فى القول «مدة الحمل أحد عشر شهرا، و الجاموسة الجيدة تلد إلى حد خمسة عشر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۲

عجلا». و لما كنت أعرف أن البدو يقتلون عادة ذكور الإبل عند الولادة حتى يحصلوا على حليب أكثر لأنفسهم. لذل سألت عما إذا كان المعدان يفعلون الشيء نفسه مع جواميسهم.

«نعم. ما لم يكن الرجل يملك عددا قليلا و يحتفظ عادة بعجل فحل حتى يبيعه حينما يكبر فإذا ذبح العجل فإنه يفسح عادة فى

المجال للأخرى بأن ترضع كما يكثر عنـد ذاك حليب الأم و يتحسن، و تراه يمسح الوحل من الوليـد الجديد بعباءة ثم يرتديها حينما يريد أن يحلب أمها. و إذا مات العجل فيضعون أمامها جلد عجل محشوا إذا أرادوا حلبها».

«كم يدفعون ثمنا للجاموس الواحد؟».

«كانت الجلّابة يدفعون خمسين دينارا تقريبا للعجل الواحد إلى الشهر الماضى و (۳۵) دينارا للفحل».

و الجلّابة تجار خاصون، يتجولون بين المعدان، يشترون الجواميس.

فتذكرت أن الأهالى فى السودان يستعملون كلمة الجلّابة لتجارة العبيد فقط. و يشترى هؤلاء التجار جلود الحيوانات التى تموت خلال موجة الوباء المسمى نزيف تعفن الدم فيهلك القسم الأعظم من القطيع. و يعرف سكان الأهوار بأن هذه الجلود تحمل معها العدوى و لكنهم لا يمتنعون من شمّها و لو أنهم يحتجون بغضب إذا ما جلب التاجر معه مثل هذه الجلود إلى قراهم.

و بهذه المناسبة قال حسن: «قبل بضع سنوات حدث مرض القلاعية، فأصيبت معظم جواميسنا بهذا المرض حتى أنها أصابت الخنازير البرية.

و كنا نجد الخنزير الذى لا يستطيع السير أنه مصاب بقدمه بشكل سيء يقعده عن السير».

أخذ مجرى الماء فى «أبو ليلى» يتسع بحيث يصبح عرضه (۳۰) ياردا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۳

تقريبا. فكنا نشاهد الجواميس غائصة فى الماء و غيرها واقفة على حافة الماء. كما شاهدنا زوارق عديدة، معظمها كبير و مسحوب إلى الشاطىء و ترى الأطفال يجذفون حولها على أطواف صغيرة مصنوعة من أغصان الأسل. و رأينا البيوت منتشرة على امتداد الضفتين و يبلغ عددها ما يقرب من مائة بيت.

كانت بيوتهم صغيرة الحجم، فيها خمسة أقواس فقط و هى فعلا تبدو صغيرة إذا ما قورنت بشقائق الجواميس الملحقة بالبيت و الذى يسمونه (ستره) لأنها بطول (۴۰) ياردا تقريبا.

و السترة على خلاف البيت نفسه، مصنوعة على شكل خيمة و لا تغطى بالحصران. يضم سيقان القصب إلى بعضها البعض حتى تشكل الجدران، و تجعل مائلة إلى الداخل و تثبت بعواميد تمتد فوق الرؤوس ثم يكوّم السماد و الحشيش على امتداد الجدران من كلا الجانبين ثم ترص بالأقدام.

توقفنا فى إحداها و هى تعود إلى ابن عم عماره. و هو صبى طويل القامة هادىء إسمه بادى. و لما رأى ابن عمه ركض إليه و ضمّه إلى صدره بحرارة لأنهما أصدقاء قبل أن يكونا أقرباء ثم جلب البسط و الوسائد.

جلسنا تحت أشعة الشمس فى مدخل السترة الذى يقود المرء إلى الخلف مثل النفق إذا ما أراد الذهاب إلى البيت.

كانت زوجته و أخته تدقان الشلب قبل طبخه لغدائنا. و كان والد بادى قد توفى قبل سنوات كثيرة، لذلك أصبح رئيس العائلة التى تتكون من الأم و الزوجة و الأخت و أخوين صغيرين كانا حينذاك خارج البيت يرعيان الجواميس. كانت علاقة بادى سيئة بعائلة أخرى تسمى رضوى الذى يعيش فى مخيم قريب. و كان حسن أحد أولاد رضوى فى غرام مع زوجة بادى و يأمل أن يتزوجها.

و لكن، بما أن بادى هو ابن عم البنت فهو أحق من غيره بزواجها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۴

عرفا و تقاليد. لذلك حينما طلب حسن يد هذه البنت كان بادى له بالمرصاد فاستعمل حقه هذا و أصرّ على زواجها. و لما تزوجها بادى، أضمر حسن له الحقد و أقسم بأنه سيأخذ زوجته حتى إذا اقتضى الأمر ارتكاب جريمة.

و قبل وصولنا بعدة أسابيع، تشاء الصدف، أن يتلاقى حسن و بادى فبدءا بالعراك حتى تدخل الناس بينهما و ذهب كل منهما إلى حال سبيله. و لما سمع الحاضرون هذه القصة أعطوا الحق لبادى و خطأوا حسنا.

ثم سمعت رجلا طاعنا فى السن يقول: «حسن بن رضوى. الإبن على سر أبيه، كلهم خارجون على القانون. و ناس موخوش. موش رضوى قتل شخصين لما تلاقى معهم؟».

و انتهز عماره فرصة وجوده فأراد أن يصلح بينهما لذلك طلب بأن يرافقه ثلاثة رجال من كبار السن للقيام بهذه المهمة. و لما ذهبوا و أمضوا النهار هناك لم يفلحوا فى مهمتهم فعادوا فى المساء بخفى حنين. و قال عماره بازدراء: «ما يكدر أحد يسوى شيء وياهم. حتى السيد سروط نفسه ما يكدر يسوى شيء. أشوف من الأفضل أن يطلق بادى زوجته و إلّا يتحمل العاقبة». ثم أخذ يحذر باديا قائلا له: «لا تروح قريب منهم. خلى بندقيتك بأيدك. خصوصا بالليل. هذوله يريدون مشاكل».

غابت الشمس، وهب الهواء البارد، و بدأت الجواميس المتأخرة و الأكثر سوادا تعود من السهول الأكثر عتمة إلى القرية. و كانت

الغيوم الشفافة، معلقة فى السماء، لا تتبدل ألوانها، تمرّ فى السماء أمامنا، و البط يطير على شكل مجموعات صغيرة متعاقبة متجهة نحو الغرب.

دخلنا الغرفة نفسها و امتلأ الممر الطويل بقطيع الجواميس ذات الأجسام الضخمة تحمل فى رؤوسها قرونا سميكة و مقوسة.

ينتمى عمارة إلى هذه العشيرة البدوية من الفريجات. و بكفالته و أدويتى التى يشهد بها الجميع، دخلنا إلى مخيم آخر، فرحبوا بقدومنا. أما

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۵

عشيرة الربيعة فهم أناس يتميزون بالعناد و بالخروج على القانون لذلك تراهم مدججين دوما السلاح، لا يرتبطون بمكان، فهم أحرار يتنقلون متى يشاؤون و أين ما يشاؤون.

و اعتاد هؤلاء القوم على حرق القصب الذى يعتمد عليه (نوفل البيضات) فى صناعة الحصران و ذلك ليؤمنوا نمو نباتات جديدة كعلف لجواميسهم و لهذا السبب هم مكروهون من «نوفل البيضات».

فى الأهوار الشرقية

و هؤلاء القوم هم أيضا فى عداء مستمر مع السويد المعدان. و هؤلاء أيضا هم أناس خارجون على القانون و يسكنون بالقرب من الحدود الإيرانية.

و هذه العشائر يسرق كل منها جواميس العشيرة الأخرى حينما تحين الفرصة.

غادرنا الفريجات و توقفنا فى قرية طرابه Turaba و أمضينا الليل فيها.

و هذه قرية كبيرة، تعتمد على صناعة الحصران مثلما تعتمد البيضات عليها و تسكنها عشائر البوغنام.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۶

و كنت قد كيفت نفسى حينما كنت بين البدو على أكل الأرز و الحليب. و هنا فى هذا المكان كنت أتوقع أن يذبحوا لنا على الأقل دجاجة، لكنهم لم يفعلوا ذلك. و عندما حلّ المساء و جلسنا لتمضية الوقت مع مضيّفنا رأيته يبدأ فى سب الفريجات و يلعنهم مما حدا بى لأدافع عنهم بشكل مفرط.

و فى صباح اليوم الثانى، طلب منا أحد الرجال من منطقة الكحلا أن نحمله معنا فى الزورق فسرّنا ذلك لأنه سيرشدنا فى سيرنا من خلال منابت القصب الكائنة أمامنا لأن ياسين كان قد سألهم فى مسار اليوم السابق بعض الأسئلة ليحصل منهم على معلومات وافية عن الطريق الذى سنسلكه فأجابوا بضرورة وجود أحد الأولاد معنا و إلا سنتوه. كنا نسلك طريقا يمر من خلال القصب العالى و عبر بحيرة صغيرة، يصعب علينا تمييزه. و إننى أتذكر جيدا بأننى سمعت لأول مرة صوت الطائر الواق فى هذه السفرة.

أمضينا أربع ساعات فى سيرنا حتى وصلنا إلى قرية دبن Dibin و هى القرية التى نقصدها و تقع على مصب نهر الكحلا. كان رفاقى ماهرين فى تذكّر الطريق و اكتسبوا معلومات كثيرة عن الأهوار خلال السنوات التى أمضوها معى بحيث لا يدانيهم فيها أحد. و كانوا، غريزيا، يهتدون إلى الطريق الصحيح حينما نكون فى أماكن لم نصلها من قبل أبدا. و قد لاحظت خاصة هذا الشىء حينما كانوا يبحثون عن الطريق الصحيح بين القصب و الجزر الصغيرة الواقعة على إمتداد حافة البحيرة حتى يجدوا مدخل مصب النهر الصغير الذى لا يمكن تمييزه من بين مئات المجارى الأخرى المؤدّية هناك.

و هؤلاء الناس يكتسبون المهارة فى إيجاد الطريق منذ طفولتهم حينما يتعقبون أثر خنزير يسبح فى الماء. و بمقدورهم معرفة نوع السمك من الأثر الذى يخلّفه أو معرفة الزورق من أول لمحة يرونه فيما إذا شاهدوه من قبل، و على أية حال، أقول من الغريب أنهم لا يتذكرون الأسماء. و أنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۷

أيضا كنت أعانى من هذا الشىء. و كنت دائما أغضب حينما لا يتذكر أحدنا نحن الأربعة و يعرف إسم آخر مضيف نزلنا عنده.

كنا نستمر فى الجذف. و إذا أراد أحد من رفاقنا أن نتوقف، يصيح علينا بالتوقف. فنقترب من البردى و نقلع ساقه الحديث النمو حتى نأكله.

و يكون مثل هذا الساق طريا، باهت اللون، ينمو بالقرب من الجذور، و يظهر أن هناك أنواع معينة من البردى تكون صالحة للأكل، و كانوا أيضا يمضغون من حين لآخر سيقانا معينة من القصب كما لو أنهم يمضغون قصب السكر.

و فى الربيع، تجمع نساء المعدان رؤوس البردى و يضعن فى طلعها الخبز فيصبح بلون أصفر و يكون صلبا، يشبه الكيك المحمّص غير أننى وجدت طعمه غير مستساغ. أمضينا بضع ليال فى قرية دبن، ننطلق فى صباح كل يوم حتى نستكشف أهوار الحويزه. وجدنا

بحيرات واسعة مثل بحيرة (زكرى(Zikri مخفية وراء منابت القصب الواسعة الانتشار.

كان دليلنا يحثنا على الدوام بأن نحمل بنادقنا و نكون فى حالة الاستعداد و ذلك حينما كنا نجذف فى طرق مائية يصعب تحديدها بحيث تلوح لأعيننا بأنها سوف تنتهى أمام جدار صلب من القصب. و كان يكرر القول «بأن اللصوص سوف يقتلوننا هنا دون أن يعلم أحد بنا أبدا».

تصبح هذه البحيرات ملاذا طبيعيا لجميع أنواع الطرائد بحيث لم أجد فى أى مكان آخر مثل هذا العدد منها، و هذه الكثرة جعلت المياه الفسيحة تظهر بلون أسود قاتم. كما أن هذه الطيور كانت تحدث ضجيجا لا مثيل له حينما يطير قسم منها من المكان الذى تجمعت فيه.

و تشعر هذه الطيور فى هذا المكان بأمان أكثر و تعيش عيشة هادئة لعدم وجود أناس فى هذه المنطقة ما عدا أولئك الأشخاص الذين يعيشون على التهريب فيسلكون هذا الطريق إلى إيران، و مع ذلك، كان عدد البط و الأوز يتناقص فى منطقة الأهوار سنة بعد أخرى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۸

ففى سنة ۱۹۵۱ كنت قد شاهدت البط و هو يطير عند غروب الشمس بإعداد هائلة كأنها أسراب جراد حتى تقتات على محاصيل الشلب بالقرب من سيكال. و عندما غادرت الأهوار فى سنة ۱۹۵۸ لم تكن فيها أعداد كبيرة كالسابق. و السبب فى ذلك هو أن الصيادين كانوا يصيدونها بواسطة بنادق الصيد بأعداد كبيرة بالإضافة إلى إصطيادهم أعدادا كبيرة أخرى بواسطة الشبكات. و كانوا يدفعون المال للشيوخ للسماح لهم فى إستخدام بعض البرك فيضعون الحبوب فيها حتى تتجمع مثل هذه الطيور.

و هناك أعداد كبيرة من البرك الصغيرة حول مدينة العمارة.

و السبب الآخر هو أن عملية إستيراد الخراطيش كانت تجرى على قدم وساق مما سهل على الصيادين الحصول على ما يريدونه من الخراطيش لإشباع رغباتهم فى الصيد.

إعتاد الوز البرى على المجىء إلى الأهوار فى شهر تشرين الأول.

و لهذه الطيور سيقان رمادية و صدر أبيض. و هى تأتى من الشمال عائدة من الأرض التى تفقس بيوضها فيها فى سيبيريا. و قدومها يسحر الأماكن البرية. و يطير الوز البرى فى السماء و يتخذ تشكيلات بديعة تسرّ الناظرين.

راقبت يوما طيرانها خلال النهار و فكّرت فى ذلك اليوم الذى قضى فيه على آخر وزبرى كما قضى على الأسود فى أفريقيا.

كنا نستعير أحيانا (كتلى) فى كل صباح قبل المغادرة للاستكشاف، كما كنا نستعير عددا من الأقداح و الأطباق لنشرب به الشاى فيزودنا مضيّفنا فى (دبن) بهذه الأشياء. و نشترى نحن الشاى و السكر و الملح و الدقيق من البقال.

و عندما نشعر بالجوع نتوقف عن التجذيف و ننتخب مكانا ملائما على حافة البحيرة و ندوس على القصب حتى نجعله كرصيف يساعدنا على الوقوف فوق الماء و نعدّ فى هذا المكان وجبة الطعام.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۵۹

كان حسن يشوى الطيور التى نصطادها مهما كان نوعها و يخبز سبيتى على حجرات النار أقراص الخبز و لم يحسن خبزها لأنها تبقى ندية و مليئة بالرماد. ثم نهىء من بعد ذلك الشاى و نشربه حتى ينتهى السكر الذى بحوزتنا. و كنا نراقب من مكاننا هذا البط فى البحيرة أو طيور القاوند التى تنقضّ على السمك.

و شاهدت فى إحدى المرات زوجا من ثعلب الماء، يلعبان سوية على بعد مائة يارد عنا. و لما أراد حسن أن يأتى بالبندقية لنصطادهما شاهدناهما يهربان بعيدا لأنهما اكتشفانا. و بعد فترة ظهرا من مكان بعيد عنا و بدآ ينظران إلينا ثم يغوصان و يختفيان. و قد سرنى جدا أنهما رأيانا و إلّا كان حسن يصطادهما لا محالة. و لجلود هذه الحيوانات قيمة إذ يباع الجلد الواحد بدينار. و قد اصطاد عمه فى قرية بومفيفات فى إحدى المرات (۴۰) ثعلب ماء خلال شهرين.

و أخبرنى حسن بأن ثعالب الماء تتواجد كثيرا حول بحيرة زكرى حيث تتكاثر فى الجزر العائمة. و تكون ولادتها أحيانا فى شهر كانون الثانى و على الأكثر فى شهر شباط أو آذار.

و بعد ثلاث سنوات أى فى سنة ۱۹۵۶، صحبنى إلى العراق كيفن ماكسويل Gavin Maxwell و كان يرغب فى تأليف كتاب عن الأهوار و كنا نتجوّل سوّية فى طرادتى طوال سبعة أسابيع. و كان على الدوام يرغب بأن يحصل على ثعلب ماء حتى يربيه كحيوان أليف.

و أخيرا وجدت فرخا صغيرا من نوع ثعلب الماء الأوروبى، لكنه مات مع الأسف الشديد بعد أسبوع من انتهاء زيارته. كان فى البصرة، يتهيأ للسفر إلى الوطن حينما و قد وفقت بالعثور على ثعلب ماء آخر و بعثته له.

كان لونه قاتما و عمره مقدار ستة أسابيع و يظهر أنه من أصناف جديدة.

أخذه (كيفن) معه إلى إنكلترا ثم سميت هذا النوع باسمه تيمنا به.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۱

۱۹- بين السودان و السويد

كان المضيف الذى نمكث فيه يقع فوق مرتفع فى قرية دبن، يحيطه الماء، و منه نستطيع أن نرى على امتداد بصرنا باتجاه القرى و أشجار النخيل الشامخة على طول نهر الكحلاء. كنا نعود من استكشافاتنا مساء، و عندما نستقر فى المضيف يبدأ عماره بالمزاح فيقول «لازم تباوع برّة يا صاحب. الزائرة تنتظرك».

قرية من قرى السويد من الاهوار الشرقية

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۲

هذه الأراضى تعود إلى ممثل الشيخ محمد العريبى، و هو رجل مسن و مريض، يبقى مضطجعا على فراشه و يشكو من آلام الكلية التى قضت عليه فى السنة التالية. له أربعة أولاد كبار و لكن لا حول لهم و لا قوة، تركتهم أمهم على الهامش و هى زائرة كبيرة السن و جليلة المقام.

تراها تروح و تغدو داخل المضيف بسرعة و هى مرتدية عددا من الملابس الداكنة أو تراها تستقر داخل المضيف و تصدر أوامرها و توجيهاتها من مكانها.

كنت أتضايق من كثرة تدخلها فى أعمالى و كنت أسمعها و هى تبدى النصائح لى و هذا أمر يربكنا جميعا أحيانا. كما أن تصرفها بهذا الشكل كان يجرح شعورى و لا بد من التخلص منها.

و أثناء وجودى فى قرية دبن جىء بولد مشلول من خصره إلى الأسفل لأنه كان قد أصيب بحمى قبل سنة و أدت إلى إصابته بالشلل، و كنت قد شاهدت عددا فى مثل هذه الحالات و هى شلل الأطفال. و وجدت رجال العشائر يعاملون أمثال هؤلاء المصابين بكل لطف. و إذا قارنا المصابين بالعجز بدنيا مع أمثالهم فى البلدان الأخرى من العالم نجد أن عددهم قليل.

و وجدت فى هذه القرية ولدا أعمى لكنه يتنقل بكل حرية و يسير بمشحوفه بمفرده إلى مسافة قصيرة لجمع الحشيش.

و صادفت خلال سنوات مكوثى فى الأهوار عددا من الأولاد و هم صم و بكم. كما صادفت رجالا مثلهم لكنهم كانوا فرحين، يحبون الصداقة و مندمجين فى المجتمع بشكل جيد. ثم غادرت هذه القرية قاصدا أخرى تقع على البر الرئيس و وصلتها بعد ظهر أحد الأيام.

كان الشيخ غير موجود، خرج ليتفقد مزارعه، فقادنا أحد الصبية إلى المضيف.

كان هذا الصبى يرتدى كوفية و عقالا و عباءة و قد تمنطق بالخنجر.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۳

قدّرت عمره ب (۱۵) سنة. له جديلتان جعلته يبدو أكثر جمالا.

كان المعدان فى الزمن الماضى كلهم على هذه الشاكلة، لهم جدائل كما يفعل أولاد البدو إلى الآن.

بنى عشيرة السويد المعدان اطواف مصنوعة من البردى

أعدّ لنا هذا الصبى القهوة، و بعد أن قدّمها لنا عاد إلى مكانه.

فسألنى عمارة قائلا: «هل عرفت أن هذا الصبى هو مسترجل؟».

أجبته بالنفى و قلت له بأننى سمعت عنهم بشكل غير واضح و لكننى ما صادفت أحدا منهم قبل هذا. فقال عمارة: «المسترجل هو إمرأة بالولادة.

تأبى أن تبقى إمرأة. لها قلب رجل لذلك تعيش كما يعيش الرجال».

«هل الرجال يرضون أن يعيشوا معها؟».

«بالتأكيد. نأكل معها. يمكنها الجلوس فى المضيف. و عندما تموت نطلق النار من بنادقنا إكراما لها. لا نفعل مثل هذا الشىء مع النساء. توجد إحدى المسترجلات فى قرية الشيخ مجيد قاتلت بشجاعة ضد الحاج سليمان».

«هل تكون شعورهم على شكل جدائل على الدوام؟».

«يحلقون شعورهم عادة مثل الرجال».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۴

من بنى عشيرة السويد المعدن

«هل المسترجل تتزوج فعلا؟».

«لا. ينامون مع النساء مثلما نفعل نحن».

و على أيـة حـال، كنـا مرة فى إحـدى القرى بسـبب الزواج، كانت العروس فى الحقيقـة مسترجلا. و هـذا ما أدهش الجميع. ففى هـذه الحالـة توافق على ارتداء ملابس النساء و تنام مع زوجها على شـرط أن لا يطلب منها أبدا أن تقوم بواجبات المرأة. المسترجلات يكنّ محترمات جـدا و أقرب المعادلات لهن هى مسترجلات العصور القديمـة. التقيت بعـدد منهن خلال السـنوات التاليـة. فجاءنى مرة أحد الرجال و معه ولـد قدّرت عمره ب (۱۲) سـنة، كان يعانى من مغص معوى. و عنـدما أردت أن أفحصه قال لى الأب «إنه مسترجل». و فى مناسـبة أخرى ذهبت لأعالج أحد الرجال و هو مصاب بكسر فى الجمجمة. كان قد تشاجر مع مسترجل أعرفه و أصيب بهذا الكسر فى رأسه.

و من قبل، بينما كنت أمكث مع حمود، أخى الشـيخ مجيـد الخليفة فى الديوانية، دخلت علينا امرأة جريئة، متوسـطة العمر، تجر قدميها جرا، لفّت نفسـها بملابس سوداء اعتياديـة و طلبت منى العلاـج. كـانت جذابـة و لو أن لها وجه الرجل. و عنـدما رفعت ثوبها ظهر لى عضو رجل بحجمه الكامل الاعتيادى و توسل بى قائلا: «تكدر تكص هل العضو و أصير امرأة؟».

يجب أن أعترف بـأن العمليـة هى فوق طـاقتى. و لمـا غادرت قال لى عمارة بشـىء من الشـفقة: «ما يصـير يسوى العمليـة فى البصـرة؟. تصرفاته

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۵

تصرفات امرأة ما عدا هذا العضو. و هذا شىء مؤسف».

كنت أرى هـذا الرجـل نفسه فيما بعـد مع النساء على ضـفة النهر، يغسل الأطباق. و لا تمانع النساء بوجوده معهن ثم أراه يجلس معهن أكثر الأوقات فى البيت. و هن يشـفقن عليه كثيرا أكثرا مما نشفق نحن فى مجتمعنا على مثيله. و على الرغم من ذلك، لم تكن بشرتهم لينة و رقيقة كبشرة النساء.

و فى إحدى المرات، بينما كنت منطلقا فى إحدى أعمالى اليومية، صبى من عشيرة السويد المعدان و حوله أطواق مصنوعة من البردى طلبوا منى أن أنضوى إلى جسم فتاة صـغيرة غرقت فى النهر. و لما عدنا فى المساء رأيت الجثة لا تزال طافية فوق سـطح الماء. و عندما اقترحت عليهم جلبهـا بواسـطة لوحـة خشبيـة رفض رفاقى متـذرعين بأنه لا يمكنهم لمسـها أو حتى وضـعها على بطن الطرادة خوفا من التـدنيس. و قـال ياسـين: «لاـزم نغتسل سـبع مرات و على كل حال. هاى الجثـة موجثـة بنتنا». و كل ما تمكنوا من عمله هو أنهم دفعوا الجثة إلى ساحل النهر ثم رفعوها بواسطة المجاذيف.

و فى مرة أخرى، وصل سيّد كبير السن بصحبة ولده البالغ من العمر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۶

تسع سنوات، كان قد جرح يده جرحا بليغا أثناء قص الحشيش. جاء به لأعالجه، فوجدته شاحب اللون من جراء فقد الدم. تأثرت لحاله و سألت أباه بغضب عن سبب عدم مساعدة الطفل. اعترض قائلا إذا ما ساعدته تتلوث ثيابى بالدم و تصبح غير طاهرة.

و من حسن الحظ لم أشـتمه لأننى تذكرت أنه سيّد. و هنا يجب أن أعترف بأن بعض المسلمين أقل تزمتا من هؤلاء، و لا ينظرون إلى مثل هذه الأمور نظرة هؤلاء.

يترك نهر الكحلاء نهر دجلـة تحت العمارة ببضـعة أميال ثم يتبـدد مياهه فى الأهوار بعدما يقطع مقدار (۲۵) ميلا. و أما القرى الواقعة على الدلتا التى أمضـينا فيها بضـعة أيام بعد أن غادرنا قرية الدبن، فهى مسـكونة من قبل عوائل تنتمى إلى عدة قبائل إضافة إلى عشيرة البو محمد و هم يدينون بالولاء لشيخهم.

و القرويون يربون الجواميس و يزرعون الشـلب، و على مسافـة بعكس مجرى النهر، تسـكن عشـيرة البو محمـد فى قرى عديدة متعاقبة على إمتداد فروع النهر العديدة و قنواتها الكثيرة. و هم يشتهرون بزراعة الحبوب و الشعير. فيبذرونها من شهر تشرين الثانى و يحصدون المحاصيل فى شهر نيسان و مايس. و بيوتهم على الكحلاء، على خلاف البيوت فى المجر، منتصبة بشكل بارز على إمتداد ساحل النهر فى أرض خالية. أما القرى فى الكحلاء فهى منتشـرة داخل بساتين النخيل، و الأشـجار المثمرة و أشجار الصفصاف الكثيفة. تجولنا بين هـذه القرى و نحن ننتقل عكس المجرى على أحد فروع النهر و مع المجرى على فرع آخر. تكثر السداد الترابية على هذه الفروع، يقيم الشـيوخ هـذه السـداد لتزويـد مزارعهم الشـتائية بالمياه. فعند فتح فتحة صـغيرة تتدفق المياه بشدة على شـكل تيار قوى فتشـكل تيارات عكسية و دوامات إلى مسافة (۳۰) ياردا مع المجرى، لذلك ينبغى أن نتغلب على مثل هذه العوائق التى تعترض سبيلنا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۷

كان رفاقى يشقون طريقهم بجهد بالغ و كفاح شديد فيتقدمون فى سيرهم خطوة بعد أخرى و أحيانا إنجا بعد إنج.

واصلنا السير و فتحنا فتحة أخرى فى سد آخر فتدفق الماء بسرعة شديدة. و كثيرا ما كنا نجد المجارى فى القنوات الصغيرة مسدودة.

واصلنا السير حتى وصلنا إلى سدة منحدرة، يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام تقريبا، و هنا لاقينا صعوبة شديدة. فلا يمكننا حمل الطرادة لنجتاز السدة لأنها ثقيلة جدا. و ما كان منّا إلّا و أن نرش السدة الترابية بالماء حتى نجعلها زلقة ثم بدأنا برفع مقدمة الطرادة و سحبها إلى أعلى المنحدر حتى وصلنا إلى قمة السدّة.

ثم دفناها فانزلقت بسهولة من الطرف الآخر للسدة حتى وصلت النهر.

صبى من المعدان كان الشيخ محمد العريبى أغنى الشيوخ من البو محمد و أكثرهم سلطة فى الكحلاء. و هو رجل محترم جدا، طاعن فى السن. يعيش معظم أوقاته فى بغداد أو العمارة تاركا إبنه المحبوب و الشاب المنغمس فى الملذات مسؤولا عن إدارة عقاراته.

و يعيش أقاربه الآخرون فى ضنك من العيش، على إيرادات حقول صغيرة كان قد خصصها لهم فى مناطق أقل خصوبة. مكثنا مع عدد منهم و وجدناهم كرماء جدا و متواضعين.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۸

و بعد أن تركنا الكحلاء، عبرنا هورا يعجّ بالخنازير فأطلقت النار على عدد منها ثم وصلنا إلى فرع المشارية و هو نهر يترك نهر دجلة شمال الكحلاء فى وسط مدينة العمارة. فنحن الآن فى وسط عشيرة السودان.

و هى إحدى ألطف العشائر و أكثرها تعاسة.

كانت فى الماضى ذات قوة و سطوة و ثراء، لكنها تفرقت الآن و أصبحت أراضيها مهجورة. و يعزى السبب إلى انخفاض منسوب المياه إلى درجة كبيرة بعد بناء سدة الكوت على نهر دجلة. و لكى يواصل الشيخ زراعة أراضيه أقام عددا من المضخات المائية. و لكن عندما توفى باع ابنه هذه المضخات ليسدد بثمنها ديونه على مائدة القمار التى استدانها فى البصرة.

و فى طريقنا بدأت أحصى عدد الخنازير التى كانت تقتات خارج إحدى منابت القصب فبلغ العد (۶۰) خنزيرا. و أخذ الناس يتوسلون إلىّ بأن أطلق النار عليها و أقتلها حتى أخلصهم من شرورها لأنها تدمّر محاصيلهم القليلة من الحنطة و الشعير الذى أصبح على وشك النضوج.

و الشىء الذى لاـ حظته هو أن الخنزير نادرا ما تدخل حقول الشعير إذا ما وجدت حقول القمح بجانبها. و فى هذا الفصل كانت الخنازير تقتات ليلا فى الحقول و تضطجع فيها نهارا. و كان القمح فى بعض الأماكن بارتفاع أربعة أقدام تقريبا بحيث تجعل الصيد فيها خطرا للغاية و خاصة حينما تحرك الرياح سيقانها. و فعلا طرحنى مرة أحد ذكور الخنازير على الأرض فى مثل هذه الظروف من السنة الماضية.

ففى تلك المناسبة، كنت قد قتلت اثنى عشر خنزيرا أو ما يقارب هذا العدد و ذلك بعد أن أطرد الخنزير الجاثم داخل الشجيرات و العليقات الكثيفة النامية على امتداد سواقى مهجورة. و لما تخرج إلى العراء أطلق النار عليها و أرديها قتيلا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۶۹

و جاءنى أحد الصبية و أخبرنى بوجود خنزير فى مكان ما بالقرب من حقل القمح، و أشار إلى مكانه الصحيح. كانت الفتحة التى أشار إليها فى داخل الأرض المزروعة بالقمح ترى بوضوح حتى من مسافة بعيدة، غير أن القمح كان عاليا، يصل إلى صدرى فحال دون رؤيتى ما فى داخلها ما لم أكن على مسافة قريبة جدا. و فجأة شاهدت حركة الأذن. فرأيت الخنزير مضطجعا فى الظل و ظهره نحوى. فأطلقت النار عليه و أصبته فى رقبته فبقى هامدا فى مكانه ثم التحقت بمضيّفى الذى قال لى:

ماضى صبى من عشيرة السويد راقص ماهر «خلينا نرجع. طريقنا طويل».

و بينما كنا نغادر المكان، جاء الولد راكضا مرة أخرى و أخبرنى بوجود خنزير آخر. فقال لى راجيا «تعال و اقتل هذا الخنزير. صاحب. هذا يخرب كل محصولى». فأشفقت عليه و لبيت رجاءه، و حاول مضيفى أن يمنعنى من الذهاب، لكننى قلت له «بس هل الخنزير و بعدين نروح سويه». و بدأت أخطو بمفردى بحذر نحو الحفة التى أشار إليها الولد.

و نظرت من فوق سيقان القمح فوق نظرى على عينه الواسعة، و لاـ زلت أتذكر لمعان أنيابه البيضاء. و قبل أن أصوب عليه البندقية وجدت نفسى ملقى على ظهرى على الأرض على بعد عدة ياردات فى المكان الذى كنت أقف عليه. و سقطت بندقيتى من يدى.

ثم هجم الخنزير مرة أخرى و شعرت بثقله حينما داس فخذى. و رأيت شفتيه و عينيه الغائضتين فوقى، و شعرت بنفسه على وجهى ثم اندفع إلى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۰

الأمام على صدرى مع أنيابه.

اعترضت سبيله بالغريزة بضربة قوية بأخمص بندقيتى فولّى عنى.

نهضت و نظرت إلى بندقيتى فرأيت حفرة كبيرة على حاضنها و أصيبت إحدى أصابعى بشق حينما مست العظم الذى كأنه موس حلاقة و بدأ الدم ينزف منها. ملأت البندقية و وقفت فرأيت الخنزير يسير بعيدا عنى. كان ضخما، صرخت صرخة التفت على أثرها فصوبت بندقيتى إلى صدره ثم أطلقت النار فسقط فى مكانه. كنت أنا المسؤول عما حدث لى لأنى كنت وحيدا. ثم التحق بى رفاقى الأربعة و معهم جمع من السودان فسرنا جميعا داخل الحقل و سببنا تلفا فيه أكثر مما يفعله عدد من الخنازير. كان عماره مسلحا ببندقيتى الأخرى و من بيت النار إطلاقة. و أن حسن يحمل مسدسا من عيار ۹ ملم براوننك كنت قد جلبته معى فى تلك السنة. أما سبيتى و ياسين فكانا مسلحين بالخناجر.

و بعد أن قتلنا عددا منها و نجونا مرتين بمشقة، أقنعت القرويين بأننا سنصطاد بشكل أفضل بين نباتات البردى المغمورة بالمياه. و هناك قتلنا (۳۶) خنزيرا بواسطة المسدس أطلقنا النار على رأسه و هو يسبح و وجهته نحونا. و تكون الخنازير طوال مدة بقائها فى الماء بدون قوة فلا تستطيع إيذاءنا. و مرّة، قفز ياسين إلى المياه العميقة بالقرب من ذكر الخنزير الكبير و أغرقه بيديه.

أسف السودان حينما غادرناهم لنزور عشيرة السويد.

امرأة من عشيرة السويد الرحل

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۱

و فى طريقنا عبر أهوار كثيرة، عبرنا رابية جرداء، سوداء اللون، ترتفع (۳۰) قدما عن القصب.

كانت هذه الرابية فى يوم ما مكانا لمدينة منسية منذ عهد بعيد.

و تعرف الآن من قبل المعدان باسم (وقف عيشان(Ishan . ثم إصطحبنا السويد فيما بعد إلى أماكن أبعد تقع داخل الأهوار و أرونا رابية أخرى كتلك الرابية و تسمى (عزيزه) و كانت حسب تقديرى بارتفاع (۵۰) قدما.

و أتذكر بأننى شاهدت حيوانات النمس تعدو عليها.

مكثنا مدة أسبوع مع مختلف الشيوخ على الألسنة الواطئة من المشارية. و لم نجد أحدا منهم ذا ثراء و لكن كان الجميع كرماء. و شاهدنا رجلا كهلا، شبيها بأبناء الصين، يعرف باسم «أبو القنديل» لأنه، يرشد عابرى السبيل فى كل يوم جمعة- يوم عطلة المسلمين- إلى مضيفه بتعليقه المصباح على العمود.

كان هؤلاء الشيوخ يحبون الصداقة و يعاملون القرويين معاملة عادية، و كانوا عندما يأتون بالطعام يلحون على كل من يتواجد فى الغرفة بالبقاء و مشاركتهم فى الطعام. و اعترف كل من رفيقى عمارة و حسن، و هما من عشيرة الفريجات، بأنهما يكرهان عشيرة السويد و بأن شيوخ السويد هم أكثر كرما من شيوخ البو محمد. و على أية حال، عندما انتقدت مرة فى مضيف عشيرة أخرى شيوخ البو محمد و قلت بأنهم أقل كرما و سخاء عنّفت على أقوالى هذه و قالوا لى «قل ما تشاء على شيوخنا أمامنا. نحن نقول نفس الشيء. معظمهم حقراء، لكن لا تنتقدهم أمام عشيرة أخرى».

تعجبت من إخلاصهم لأنه لا ينتسب أىّ منهم إلى عشيرة البو محمد.

و عندما كنا نتناول الطعام مع السويد، كنا نطبق عاداتهم و هى أنهم يذهبون إلى حافة النهر و يغسلون أيديهم. و اعتاد رفاقى على اتباع عادات البدو غير المعروفة فى هذه الأجزاء من الأرض.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۲

كانوا ينهضون سوية عندما ننتهى نحن الخمسة من تناول الطعام.

و حينما سألناهم أجابوا قائلين: «هذه هى عاداتنا». و كنا على الغالب نتحدى الشيوخ و أتباعهم من بعد الطعام بالرماية ببندقية الهواء المضغوط و أحيانا ببندقيتى و مسدسى.

أصبح عمارة راميا بارزا و كان ياسين و حسن أفضل من الكثيرين فى الرمى إلا أن سبيتى لم يكن راميا جيدا على الرغم من أننا بذلنا جهدنا لتحسين رميه. فلم نفلح فى مسعانا.

صبى من عشيرة السويد الرحل

فقال له بعضهم على شكل مزاح و استهزاء «صوّب على هذاك المضيف. هناك يمكن بطريقة الخطأ أن تصيب الهدف». غير أن سبيتى ما كان يبالى أبدا بأقوالهم و لا يعيرها أية أهمية. و كنا نجد ياسين يميل كثيرا إلى إحداث المشاكل إلّا أن عمارة لم يكن مثله

بل كان يبدو كئيبا. أما سبيتى فكان أكثر رفاقى لطفا و شفقة نحو الآخرين فيرعى حقوقهم، و هو شخص ذكى و عاقل جدا و متزن و يتصف بخلق دمث. و لهذا السبب نحن مدينون له جميعا. كنت أغضب أحيانا من رفاقى الآخرين و لم أكن أغضب من سبيتى إلا نادرا. و كنت أشعر بالخجل حينما أغضب منه.

غادرنا شيوخ السويد و قلوبنا مفعمة بالأسى على هذا الفراق. إنعطفنا فى سيرنا نحو الشرق قاصدين الحدود الإيرانية و كنا نسيّر الطرادة بالمردى من خلال المياه الضحلة بين نباتات البردى التى تنمو بين منابت القصب

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۳

و حافة الصحراء. كان ياسين يتخذ مكانه على الدوام فى مؤخرة الطرادة و يجلس أمامه عمارة. أما حسن فيستقل مقدمة الطرادة و وراءه سبيتى.

السويد الرحّل يقصون بيوتهم استعدادا للرحيل

و من المفارقات أثناء سيرنا أن حسنا أفصح عما فى قلبه فى هذا الوقت و قال بأنه إنشرح كثيرا من رقصات صبحى يدعى (ماضى) حينما رقص قبل ليلة أمس، و كان يجذف انتباه الناس إليه. فتنهد بصوت مسموع و قال «ماضى! آه، ماضى» فضحك الآخرون على تصرفه هذا و اقترح ياسين بأن ننزله على الشاطىء حينما نرى حمارا.

و فى هذه الأثناء سرنا فى قافلة تابعة لإحدى قرى السويد، تنتقل إلى مكانها الجديد. فالقوارب الكبيرة تحمل بيوتهم المفككة و الحاجيات الأخرى، و أما الزوارق الصغيرة فإنها تحمل الصبيان رعاة الجواميس و معظمهم عراة. كانوا منشرحين، يغنون و يصيحون بأعلى أصواتهم و هم يسوقون جواميسهم المرقطة.

لا يمتهن السويد مهنة الفلاحة، لكنهم يعيشون فى الأهوار مع

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۴

قطعانهم. و يمكن تمييزهم عن سواهم من العشائر من غطاء الرأس الذى هو عبارة عن كوفية صفراء أو مذهبة على خلاف ما يضعه أبناء عشيرة الفريجات البدو. ثم ظهر وراءنا عدد كبير من الزوارق من بين القصب.

فسألت أحدها عن سبب مثل هذا التنقل فقال لى أحدهم بأن المياه إرتفعت بصورة إستثنائية فاضطروا إلى ترك أماكنهم الشتائية فى وقت مبكر قبل المواعيد الاعتيادية، لذلك تراهم يرحلون إلى أعماق الأهوار.

ثم استطرد ذلك الرجل و قال: «ظل ويانا هذه الليلة- صاحب. راح نبنى قرانا فى الأرض اليابسة هناك».

و بعد أقل من ساعة من نزولهم إلى البر ثم نصب أول بيت.

كانت حزم القصب التى تشكل الأقواس موضوعة الواحدة مقابل الأخرى على خطين. و كل حزمة تميل إلى الخارج. ثم يتسلق أحد الرجال فوق القصب ذات القوائم الثلاثة ليربط رؤوس الحزم بعدما يسحبها الرجال الآخرون. و يتم هذا العمل بسهولة لأن الحزم كانت مقوسة سابقا. و عندما ينتهون من وضع الأقواس الخمسة فى أماكنها يجرى تثبيت الأضلاع الأفقية ثم يرمون الحصران فوقها، و يرمون أحيانا حصيرة واحدة سميكة على الهيكل ثم يربطونها فى أماكنها. و كل حبال الربط هى من القصب.

و بينما كنت أتمشى بجوار البيوت التى ينصبونها، أراقب الطريقة التى يتم فيها نصب البيت و تفريغ الزوارق من حمولتها دعانى ذلك الشخص الذى تعرفت إليه حديثا إلى بيته. و حينما دخلنا وجدته مفروشا. و قد أعدّ لنا الشاى و وضع القدر على النار حتى يهيىء لنا وجبة طعام الغداء. و كان أصغر أولاده يبلغ من العمر تسع سنوات، عارى الجسم و فى رقبته قلادة فيها فص كبير أزرق.

يجمع هؤلاء الناس من عشيرة السويد البردى و القولان[Scirpus Brachy Ceras] و هو نبات السعيدى الذى يغطى معظم الأهوار الوقتية و ذلك كعلف لجواميسهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۵

و بينما كنا نراقب كيفية إطعامهم جواميسهم التفت ياسين إلىّ و قال بأن جواميسه الكائنة فى بومفيفات لا تأكل مثل هذه النباتات.

طلب منى عدد كبير من أهالى السويد أدوية، لذلك مكثت يوما آخر.

ثم زرنا قرى أخرى تعود إلى عشيرة السويد، تبعد مقدار بضعة أميال، تقع داخل منابت القصب. وجدت هؤلاء أقل حنكة من كل المعدان. و الشىء الذى أفسد صحتهم طعم الماء الذى كان كريها على إمتداد حافة الصحراء.

السويد الرحل ينصبون قراهم على ارض يابسة

و يصنع أهالى السويد الملح و ذلك بتبخيرهم المياه فى قدور قليلة العمق.

و أخيرا واصلنا سفرنا حتى وصلنا الحدود الإيرانية. و بعد أن أمضينا الليل فى مركز شرطة عراقية صغيرة عدنا إلى الأهوار الوسطية مرة

أخرى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۷

۲۰- عائلة عماره

طغت مياه الفيضان على عويسج و غادر الفريجات أماكنهم حينما عدنا إليهم. و لمّا سيّرنا الطرادة بجهد و بقوة من خلال حقول البردى المعتمة، عثرنا على ضلع برميل رمادى اللون باق حتى تضع الطيور بيوضها فيه.

فتذكرنا الطيور المائية الكثيرة العدد فى أشهر الشتاء.

كانت النباتات النامية حديثا فى أماكن نمو القصب على امتداد نهر الفرات عالية تظهر بين هامات القصب اليابسة. بينما غطت نباتات (قدم الغراب) المياه المكشوفة و حقلها و جعلتها تظهر كأنها طبقات من الثلج المتساقط.

و لما وصلنا العزير تركنا القارب هناك و أجرنا سيارة لتقلنا إلى البصرة حيث كنت أذهب إليها بشكل عام كل شهرين حتى أجمع الرسائل الواردة إلىّ و أستحم و أشترى الأدوية. و المكوث بضعة أيام فى دار مريح يعتبر تغييرا يريح المرء و يجدد من نشاطه. و كان أصدقائى فى القنصلية لطفاء معى و مع أصحابى على الدوام.

عدنا إلى العزير مرة ثانية و ركبنا طرادتنا حتى نعود إلى قرى الأهوار فقال لى عماره: «هسه فالح ميت. لازم تبقى عندنا. نحن ما نملك شىء كثير، مثل ما تعرف، بس كل شىء نملكه هو لكك. نترك ياسين و حسن مع عوائلهم و نرسل وراءهم كما نكون مستعدين للسفر مرة أخرى».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۸

و بعد أربعة أيام دخلنا القناة التى تقودنا إلى قرية الرفيعية و هى القرية التى يسكنها أهل عمارة. كان التيار قويا و الرجال ينظفون الأرض الواقعة خلف السدود و يرمون كميات كبيرة من النباتات حتى تطفو على سطح المياه و تنجرف إلى الأهوار. و كانوا يشتغلون و أقدامهم غائصة إلى الركبة أحيانا و إلى الخصر أحيانا أخرى. و فى هذه الأثناء اندفع صبى طويل القامة نحونا و قد وضع دشداشته حول رقبته. و لما وصلنا حيّانا و قال عمارة: «هذا أخوى رشك. فى العام الماضى ساعد الآخرين فى محاصيل الشلب. و هل سنه عنده أرض خاص له». غسل الصبى الطين العالق فى قدميه و ساقيه و ألقى بنفسه إلى وسط الطرادة بجانب عمارة ثم بدأ يقبله و يلتقط المردى بيديه.

و لو أن رشك يبدو لطيف المظهر و يتسم بالحيوية و النشاط و ذا خدود ممتلئة فإنه ليس مثل أخيه عمارة الذى يتميز بخفة الروح و المرح. فهو أصغر من عمارة بسنة واحدة و طوله بقدر طول أخيه إلا أنه هزيل الجسم، لكنه قد يكون أكثر قوة من أخويه بعدما يكبر.

و بعد أن تخطينا البيوت الأولى و الأطفال يركضون خلفنا على امتداد الساحل، شعرت بأن منظرنا أشبه بمنظر عازف المزمار. و بعد أن توقفنا عن السير، كان جمع كبير من الناس قد تجمهر حتى يساعدوننا فى نقل أمتعتنا. فقال عمارة لأحدهم: «حسن! أركض و قل للوالد بأن الصاحب سيحضر كضيف». ثم التفت نحو رشك و قال له «شوف. خلى الفروخ يجيبون كل شىء للبيت. لا تنس المرادى».

مكث ياسين و حسن عدة أيام فى بومفيفات. أمّا أنا و عماره فذهبنا إلى بيت والد عماره. الذى كان خارج القرية و جاء بصحبتنا سبيتى و صبى آخر كان قد أتى معنا.

تركنا الحقول المزروعة بالشعير وراءنا، و نرى أمامنا الآن على مسافة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۷۹

مجموعة من أشجار النخيل، و كان والد عمارة رجلا كهلا، إسمه ثقب، غيّرت سحنته تقلبات الطقس، له عينان هادئتان. و كان يرتدى دشداشة بيضاء نظيفة و على رأسه كوفية، و استقبلنا باحترام هادىء. وقف منتصبا ثم مشى ببطء كأن جسمه متيبسا و أرانا الطريق إلى داخل بيته الذى كان صغيرا، و سقفه منخفضا. و كان كل قوس من الأقواس الخمسة يضم عددا قليلا من القصب. و أرضية الغرفة مفروشة بزولية فاخرة فوق حصيرة ممزقة ثم وضع فوقها وسادتين.

حيّتنا إمرأة ذات حيوية و نشاط، متوسطة العمر، ذات وجه لطيف قائلة: «مرحبا صاحب. مرحبا بك فى بيتك. أنت مو أبو عمارة؟. اللّه يبارك فيك».

و كان يقف خلفها طفل و صبيّان صغيران و فتاة تبلغ من العمر (۱۵) سنة، تخفى نصف وجهها.

أرسل عمارة رشكا حتى يهيء معدات الشاى و أرسل سبيتى إلى دكان والده ليجلب الشاى و السكر. ثم حاول بمساعدة أخوته الصغار و أولاد آخرين أن يمسك ديكا كبيرا بالسن. و بعد أن هرب الديك من بيت إلى آخر و دار حول القرية و هم يتبعونه

محدثين الضجيج، لجأ إلى إحدى الزوايا ليختبىء فأمسكوا به و ذبحوه حتى يعدّوا لنا طعام الغداء. و جلب عمارة سمكة غير طرية تفوح منها رائحة. و لكن لا يبالى أى فرد فى هذا المكان فيما إذا كانت السمكة ذات رائحة أم لا. و لكى نأكل السمكة خبزت لنا أمّه المسماة (ناله) فى التنور. لاـ حظتها كيف تخبز. فرأيتها تلصق قرص العجين على بطن التنور ثم تخرجه بعد أن يتحمص. و فى البر الرئيسى، يمكن أن ترى أمام كل بيت مثل هذا التنور. أما فى الأهوار، فتطبخ النساء الطعام و تخبز على نار و فوقها طبق من الفخار. و الآن جاء (جليب) الأخ الآخر و هو عائد من الأهوار. و هو صبى هادىء، قوى الجسم، كان يرعى الجواميس فى الوقت الذى كان فيه عمارة خارج البيت. يشتغل من الفجر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۰

حتى غسق الليل، و يحصد الحشيش و يجلبه إلى البيت على الرغم من كونه صغيرا لا يتجاوز الاثنى عشرة سنة.

رأيت رشكا يساعده فى نقل الحشيش من الزورق إلى البيت. و كانت الجواميس تربط بالحبل المثبت فى وتد أمام البيت. لأنه لا يمكن إبقاؤها سائبة ليلا لأنها تتجول فى المزارع و تقضى على المحاصيل. و القطيع يتألف من جاموس فحل و ثلاثة من الإناث و من عجلة و عجل، و كان (جليب) مثل أخيه عمارة يحب الجواميس. و بعد أن حلبها قال لى و هو يربت على العجل «شوف هذه. هى جميلة جدا و حامل. اشتريتها بالفلوس اللى أعطيتها لى فى السنة الماضية. راح يصير عندنا قطيع مناسب إنشاء اللّه».

و من جهة أخرى، كان رشك مولعا بمحصول الشلب و كان يتذمر حينما يساعد أهله فى رعاية الحيوانات فى وقت فراغه. و هو حاد الذهن، لا يحترم الكبار كثيرا و يعتبر بالنسبة العمره مع عمر أقرانه وحشيا و لا يتحمل المسؤولية. لكنه، عندما يعمل فى الحقل، يقوم بأعمال الرجال بحماس شديد. و عندما يعود مساء يجلس منزويا منهوك القوى فلا يتذمر و لا يستاء.

و كان حينما يتحدث عن محصول الشلب و كيف يعمل يمثل بأصابعه ليرينا كيف يشتغل فى الطين.

فقلت بنفسى أنه سيكبر بعد سنة و سوف يغطى الشعر ساقيه و يصاب بالحكة خلال الصيف لأنه يمشى دوما داخل المياه و لا بدّ أن يلاقى الخنازير أثناء عمله فى المياه الضحلة.

يعانى زراع الشلب من الحكة فيبدأون بحك سيقانهم حتى ينسلخ الجلد. و الحكة تدوم مدة (۲۴) ساعة. و أنا أعرف أنهم يتصرفون كالمجانين لأننى كنت أصاب بها حينما كنت أصيد الخنازير. الأشهر العربية قمرية فيحسب الفلاحون الفصول السنوية مثلما يحسبه فلاحو حضرموت حسب ظهور و أفول نجوم معينة، مثل نجم الكلب و نجم من

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۱

مجموعة الثريا. و فى بداية كل فصل يبدأون بتأشير الأرض على كلا جانبى القناة تحت الرفيعة بواسطة عيدان من القصب على شكل قطع صغيرة متساوية العرض و يجرى الفلاحون القرعة عليها. و بشكل عام يحصل الفرد على عدة قطع من الأراضى الصغيرة فى أماكن مختلفة. و عند ذاك، عليه أن يشارك الآخرين فى العمل أو يزرع الأرض بنفسه أو بمساعدة أسرته.

و فى السنة الاعتيادية ينظفون الأرض فى شهر نيسان و يزرعون الشلب فى أواسط شهر أيار (مايو) حينما يهبط منسوب المياه. و إذا بقيت المياه فائضة من بعد ذلك التاريخ، تنمو عند ذاك الأعشاب فى الأرض المنظفة و تعيق نمو الشلب. و قبل بذر الشلب تنقع البذور فى الماء لمدة خمسة أيام ثم توضع تحت حصيرة ثقيلة لمدة يومين آخرين تحت أشعة الشمس حتى تنبت. و هم يميزون بين محصول الشلب الذى يزرع بطريقة البذر و بين الشلب الذى يزرع بطريقة الشتلات.

فالطريقة الأولى هى عبارة عن نثر البذور فى الأرض و الطريقة الثانية هى عبارة عن نقل الشتلات بعد أربعين يوما. و المعدان فى الأهوار يزرعون الشلب بطريقة الشتلات بينما يزرع أهالى الأزيرج الذين تكون أراضيهم بعيدة عن الأهوار مقدارا قليلا من الشلب بطريقة الشتلات و يزرعون كميات كبيرة بطريقة النثر. أما هنا فى قرية الرفيعة، الكائنة على حافة الأهوار، فيزرع الفلاحون الشلب بكلتا الطريقتين. فمثلاـ يزرع (رشك) بمفرده أربعة أخماس أرضه بطريقة النثر لأنها تتطلب مجهودا أقل لكنها تعطى نصف ناتج الشلب المزروع بطريقة الشتلات فى نفس المساحة من الأرض.

و الشلب المزروع نثرا يتم حصده فى منتصف شهر تشرين الأول و أما المزروع بطريقة الشتلات فيتأخر حصده مقدار شهر آخر.

ففى ۱۹۵۶ و المفروض أنها سنة جيدة، زرع (رشك) أربعة قبالات بطريقة النثر و قبالة واحدة بطريقة الشتلات. و القبالة هى عبارة عن (۶۲٪) من الفدان. و هذا يعطيه حاصلا مقداره (۳۵۰۰) كغم من الأرز. فيعطى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۲

للشيخ مجيد ربع الحاصل و يبقى كمية كافية لإطعام أسرته فى السنة القادمة و يبيع ما تبقى بمقدار (۳۰) دينارا.

و يتم جمع حصة الشيخ مجيد بشكل عينى فى القرية من جميع الفلاحين. و يأخذ الشيخ مجيد أحيانا ثلث الحاصل و يبلغ ما يأخذه

الربع.

و فى هذه الحالة يثبت المقدار حالما يعرف مستوى المياه فى تلك السنة.

و قيل لى بأن تخميناته تكون على العموم صحيحة. و يرحب زراع الشلب بحدوث الفيضان، مثلهم فى ذلك مثل أهالى الأزيرج الذين يزرعون الشلب على الأرض و يسقونها من الأنهار لكنها تكون سيئة بالنسبة للمعدان لأن أراضيهم تبقى مغمورة. و على العكس من هذا، فإن المياه الواطئة تمكّن المعدان من زرع الشلب بشكل واسع إلّا أنها تكون كارثة بالنسبة للآخرين.

ففى ۱۹۵۱، و هى السنة التى كان ارتفاع المياه فيها منخفضا جدا، زرع المعدان فى قرية سيكال و العكار و القرى الكبيرة من الأهوار البعيدة من مصب نهر العدل، مساحات شاسعة أكثر من المعتاد. و لكن لسوء الحظ، سقطت أمطار غزيرة فى فصل الخريف فرفعت مناسيب المياه فاكتسحت الغلال قبل حصدها. و فى لواء العمارة، تزرع العشائر الشلب على أرض مغطاة بطبقة من الغرين الجديد فقط. و يزرع بعضهم الشلب على نهر الفرات أسفل سوق الشيوخ من بعد حراثة الأرض المخصصة للشلب.

و هنا يزرعون أحيانا الشلب تحت أشجار النخيل فى نفس الأرض التى حصدوا منها توا الحنطة أو الشعير.

و حسن، هو صبى. عمره سبع سنوات، أحد أخوة عمارة الأربعة، جرح يده فى الليلة الأولى التى قدمنا فيها إلى بيتهم فجاء حتى أضمّد جراحه. ثم انزوى بعيدا و بقى ساكنا فى الطرف البعيد من الغرفة و ما لا حظته إلّا بصعوبة. و هو على خلاف أخيه الأصغر (راضى) الذى كان جالسا بجانبى و يتحدث إلىّ. و لا حظت أنه مصاب بفقر الدم الشديد فقالت

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۳

لى أمّه بأنه يشكو دوما من التعب و فقدان الحيوية. و رأيت الدم المتدفق من مكان الجرح بلون الماء الخابط و يصعب تمييزه على جلده الأسمر الذى لفحته الشمس. أعطيته زجاجة من الدواء المقوى ثم مضى شهر و رأيته فما تمكنت من تمييزه، وجدته سعيدا، فرحا فأحببته لأنه ولد محبوب.

كانت طموحات (ثقب) مقتصرة على زيارة مدينة المشهد، فأمضى وقتا كبيرا فى الصلاة و الدعاء، و رضى بأن يترك شؤون العائلة إلى عمارة الذى كان كثيرا ما يستشير أمه عندما يستعصى عليه الأمر. و فى السنة التالية، استشارنى عمارة حول إرسال أخيه حسن إلى المدرسة إذ قال «لازم يكون عندنا واحد يعرف يقرأ و يكتب فى العائلة». فوافقت على رأيه و لو بشىء من الريبة، فأرسلنا حسنا فى صباح اليوم التالى إلى المدرسة التى كان يحضرها ستة طلاب من القرية و تبعد مقدار ميلين عن محل سكناه و على المجرى الرئيسى لنهر الوادية. و هناك مدرسة أخرى واقعة على نهر العدل تحت قرية الشيخ مجيد. و لا توجد أية مدرسة داخل الأهوار.

كان حسن فى غاية السرور هناك، فكان يسرع فى مشيته عند الصباح مع أقرانه و كان يرينى واجباته عند المساء و هو يزهو فخرا و اعتدادا بنفسه.

و عندما ذهبت فى المرة التالية إلى البصرة، اشتريت له حقيبة كتب مدرسية و دفاتر و أقلاما ملونة و قلم باندان و محبرة و مسطرة و أدوات هندسية.

و فرح حسن فرحا شديدا بهذه الأشياء و أكد لى بأنه ليس لدى أى فرد من أقرانه أى شىء من هذا النوع.

و مع ذلك شعرت بالقلق لأنه يتوجب عليه مواصلة الدراسة لمدة (۵- ۶) سنوات يمضيها و هو جالس على المصطبة داخل الغرفة يتناول عند الظهيرة وجبة غداء خاص وفقا لتعليمات اليونسكو- حياة سهلة إذا ما قورنت بحياة (جليب) الذى يعمل فى أرض القصب أو مع حياة (رشك) الذى يعمل فى حقول الشلب. و لكن سيكون له نصيب فى العمل فى أرض

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۴

القصب أو فى حقول الشلب إن بقى فى قرية الرفيعة من بعد تركه المدرسة.

و كنت أتمنى بأن لا ينجرف فيما بعد و يصبح شخصا متسكعا فى إحدى المدن. و كان الشباب يتوسلون إلىّ دوما قائلين: «خذنى معك إلى البصرة. صاحب. شوف لى شغل زين. ما أريد أبقى بهل المكان لأننا نعيش مثل الحيوانات- هل مكان زين إلى ابوى و أمى و أخوتى. أنا متعلم». إذا بقى أمثال هؤلاء فى قراهم فإنهم سيبقون ساخطين و ناقمين و يقاسون المرّ، لأنهم يحملون فى مخيلتهم فكرة بأنهم لو استطاعوا الخروج من قراهم هذه فإنهم بتعلمهم البسيط هذا سوف يحصلون على كل ما تصبو إليه نفوسهم. و هذا اعتقاد خاطىء يدعو إلى الإشفاق. لأنهم لا يدركون بأن هناك مئات من آلاف الشبان الآخرين فى العراق بالمؤهلات نفسها. و فى الحقيقة، إذا ما تركوا بيوتهم و ذهبوا إلى المدن فإن حياتهم تنتهى على أكثر احتمال بقيامهم ببيع الجرائد أو بيع مشروب الكوكا كولا فى بغداد أو البصرة إضافة إلى قيامهم بارتكاب جرائم السرقة من السيارات أو اشتغالهم كجباة لدى سائقى السيارات حتى يؤمنوا لهم دوام العيش.

وجدت جميع الآباء متلهفين لإرسال أطفالهم إلى المدرسة، غير أنني أتذكر رجلا عجوزا يسكن في قرية تقع على نهر العدل قال لي: «إبني صار عنده شغل زين ويّه الحكومة في البصرة. نحن فقراء مثل ما تشوف، صرفت عليه فلوس كثيرة عندما كان يدرس في العمارة مدة عشر سنوات في المدرسة. و بعدين، كنت أظن راح يساعدنا و يدير باله علينا. هسه لا يساعدنا و لا يقترب منّا. كنا سعداء لما كان طفل يعيش معنا لأنه كان إبننا الوحيد. هذا التعليم هو شيء موزين. صاحب. تسرق أولادنا».

و رأيت في مكان آخر إمرأة عجوزا بالقرب من قرية قباب. كان زوجها قد طلقها. وجدت لها، على أية حال، عمل تكتسب منه مالا في مدينة العمارة. تعمل كحارس ليلي. لم تكن تشك بعدم مساعدة ابنها لها.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۵

كان يزورها طيلة مدة دراسته في العمارة. يرتدي عند الذهاب إلى المدرسة سروالا مرقّعا برقعة كبيرة عند المقعد و سترة. كان يصقل شعر رأسه بدهن لمّاع و يغرقها على الطراز الأوروبي. و بعد زيارته لأمّه التي قد تدوم يومين، كانت أمّه تقول لجاراتها باعتداد عندما يغادرها: «إبني متمدن. يأكل بالملعقة و يبول و هو واقف».

و في إحدى زياراتي الكثيرة لقرية قباب، دعانا (داخل) لحضور حفلة عرسه. تذكرت حاله حينما أرسلته إلى البصرة في السنة الماضية للمعالجة و كنت أعتقد أنه لن يعيش. لكن عاش بعد أن تشافى و أراه الآن أمامي بصحة جيدة. و كنت ألتقي به صدفة في مناسبات عديدة بين الفرطوس و في قرية العكار و أخيرا في قباب. و كنت مولعا بهذا الصبي الخفيف الروح الذي يحب الجدل و الهزل نوعا ما. و كنت أشعر بأني مسؤول عنه لذلك ساعدته بالمال. أما الآن فقد أعطيته خمسة و سبعين دينارا ليدفعها مهرا لعروسه ..

كان مغرما بأخت صديقه وادي وها هو اليوم ينال مبتغاه فيتزوجها.

وصلنا قرية قباب عند الظهيرة قبل يوم من حفلة العرس. و كنت في غاية السرور لأنني وصلت قبل الموعد. كان الجو حارا جدا، و الممرات المائية التي نسير فيها بين منابت القصب الميتة حارة جدا و كان العرق يتصبب من جسمي و من جسم رفاقي إلى درجة تبللت ملابسهم فكأنهم قد خرجوا من الماء. الذي لم يكن باردا بل كان فاترا.

سقطت عناكب كثيرة صغيرة داخل الطرادة و تكاثر البعوض حولنا كما تكاثر الذباب و كان تلسعنا بدون رحمة من خلال ثيابنا و لو أننا كنا نراها غير مؤذية.

و لما وصلنا القرية وجدناها هامدة، لا حركة فيها، فكأنها مهجورة، ينبعث منها البخار من تأثير أشعة الشمس في ذلك الصيف الحار. لم نجد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۶

صدام لأنه كان قد سافر ليزور الشيخ مجيد و لذلك كان (داخل) يسكن الدار المجاورة مع أسرة من عشيرة الفرطوس. و كان منهمكا في توسيع داره و ذلك بإضافة قوسين آخرين. و لما أنتهى من توسيع الدار، نصب ناموسية حمراء داخل البيت ليغطي مضجع عروسه.

و في اليوم التالي، سمعنا أصوات غناء، و أصوات الدرابكي من الطرف البعيد من القرية، حيث المكان الذي بدأ فيه (وادي) احتفاله بزواج أخته. و انطلق رفاق (داخل) عند الظهيرة ليزفوا له العروس بطرادتي. فأخذ عمارة معه بندقية الصيد و تمنطق حسن بالمسدس و ذلك لكي يطلقوا النار ابتهاجا بهذه المناسبة.

و كما هي العادة عندهم، كان (داخل) ينتظر عودتهم إلى بيته. و بما أنه ليست له أسرة رجاني بأن أبقى معه.

جلسنا و نحن نصغي إلى الأصوات القادمة من بعيد. توقف الغناء ثم استؤنف مرة أخرى و قال لي بأن هذا معناه أنهم نزلوا من الطرادة و أن وادي يولم لهم الآن. و بعد مضي ساعة من الوقت، و الشمس آخذة في المغيب، ازدادت أصوات الغناء ارتفاعا ثم سمعنا أصوات اطلاقات متفرقة.

قال لي داخل «هسه العروس تركب الطرادة. يأخذوها بعدين و يدورون حول القرية و يتوقفون أمام كل بيت حتى يرقصوا إلى أن يصلوا هنا».

و أخيرا قدم الموكب فرأيت العروس جالسة في الطرادة و قد لفّت ثوبها الجديد حولها و تحيط بها عدد من المشاحيف. رأيت الرجال واقفين على ظهورها و هم يغنون أثناء جذفهم نحونا.

كانت الفرش و البسط و المخاديد مكدسة أمام العروس. تلك الفرش التي زودها بها وادي حتى تأخذها إلى بيتها الجديد. و بما أن وادي رئيس

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۷

العائلة فله الحق أن يصرف ما يشاء، كثيرا أو قليلا، من مهر العروس و يحتفظ بما يشاء من المهر، فقد سرني جدا تصرّفه في جهاز

أخته، فقد أعطاها الشيء الكثير على الرغم من كونه فقير الحال.

و لما خرجوا من الزورق و نزلوا إلى البر، أطلقت عدة عيارات نارية من بندقيتي. و أما عمارة و حسن فإنهما كانا يطلقان النار أيضا، أحدهما من المسدس و الآخر من بندقية الصيد، و هما يسيران بجانب العروس إلى أن وصل الجميع إلى الفسحة الكائنة أمام البيت.

وقفوا قليلا- فارتجل (عجرم) بيتين من الشعر و أخذ يرددها ثم علت الهوسات بين الحشد بترديد هذين البيتين و هم يقفزون على الأرض و يدورون حولنا و يلوحون ببنادقهم و مجاذيفهم و خناجرهم فوق رؤوسهم.

و كنا نطلق النار بفترات حتى نزيد من حماسهم. و بقوا على هذه الحالة حتى مغيب الشمس فذهب كل منهم إلى داره حتى يأكلوا.

تجمعنا من بعد ذلك مرة أخرى في بيت (داخل). و بدأ الصبي (حلو) و معه عدد من الشباب بالغناء و بدأ الآخرون بالرقص. أما داخل فبدأ يوزع السكاير و الشاي على الحاضرين. دام الاحتفال إلى منتصف الليل:

و اقترحت عند ذاك على عمارة بأن ننصرف حتى نفسح في المجال إلى داخل بأن يدخل على عروسه و سوف يكون مسرورا بعملنا هذا. غير أنه أجاب قائلا: هل كل شيء زين. نروح لما يكون داخل مستعد». و بعد فترة، استعار داخل بندقية الصيد مع إطلاقة واحدة ثم اختفى. استمرت الحفلة و نحن مندمجون فيها بحبور. و بعد فترة، سمعت فجأة صوت إطلاقة من الطرف البعيد من الغرفة و ما كنت أتوقع هذا الشيء. فابتسم الحاضرون ابتسامة عريضة لأنهم كانوا ينتظرون مثل هذا الشيء. و يظهر أن هذه الإطلاقة هي إشارة تدل على أن العريس دخل على عروسه ثم ظهر مرة أخرى و لم يكن مظهره الخارجي كما كان في السابق. فكانت دشداشته ممزقة و عقاله غير موجود. ثم سأله ياسين عما إذا كانت عروسه قد برهنت

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۸

على أنها أصيلة فأجابه ساخطا و بشيء من الهزل: «مو سمعت صوت الطلقة!».

و في صباح اليوم الثاني زرت داخلا و أدخلني إلى غرفته، حيث المكان الذي يجب أن تبقى فيه عروسه، حسب عادة العشائر، سبعة أيام أخرى. جلست بجانبها فوق كومة من البسط و المخاديد. وجدتها تشبه أخاها في الشكل. لها وجه لطيف، ممتلئة الجسم لم تكن خجولة جدا.

و بللت ملابسي بنوع من العطور و أطعمتني الحلوى بينما انهمك داخل في إعداد الشاي.

و بعد انتهاء هذه الأيام السبعة، بنى داخل له بيتا صغيرا في القرية و استقر فيها. كانت الفتاة هادئة الطبع، كدودة في عملها، مقتصدة في مصروفها و هي صفات جعلت منها امرأة جيدة.

ولدت له في السنة الأولى طفلة، و في السنة الثانية طفلا. و كان داخل يأتي بهما حينما كنت أزوره و هو في غاية الاعتزاز و يضع أحدهما في حضني و لم أكن أبالي بالأطفال.

و عند عودتنا إلى قرية الرفيعة، توقفنا في قرية كبيرة من قرى المعدان بالقرب من مصب نهر العدل. و قبل وصولنا بعدة أيام كان أحد الرجال المسنين قد خرج من بيته و ترك الطفلة الصغيرة مع أمه العجوز و العمياء و ذهب إلى الدكان. و لما عاد وجد الطفلة قد سقطت في الماء و غرقت.

فأقام لها مجلس الفاتحة على روحها في بيته. و بما أنني كنت أقيم في بيت بجوار بيت هذا الرجل المصاب بفقد طفلته وجب علينا مشاركته في العزاء.

كنت أرى الزوارق تروح و تغدو و هي محملة بالنساء أو الرجال يأتون و يروحون من بيت هذا العجوز. و الشيء الذي جلب انتباهي هو أن الزورق لم يكن محملا- بالنساء و الرجال بشكل مختلط لكن بالنساء أو بالرجال فقط. و كنت أسمع عويل النساء، يعلو تارة و يخفت أخرى. وقف بجانبنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۸۹

صبيان و أخذا يتحدثان إلينا و عرفتهما إذ كانا بصحبتنا حينما اصطدنا خنزيرا في السابق. جلس هذان الصبيان يتحدثان ثم قال أحدهما للآخر: تعال نروح هناك». فترجلا و سلّما علينا و انزويا في مكان بعيد ثم أخذا يبكيان و ينتحبان على مسمع منّا. تذكرت مناسبة سابقة حينما كنا مع عشيرة الفرطوس، و أخذني فالح و داود و خيّال للصيد في الأهوار، تبعد قليلا عن قرية جاسم. صادفنا زورقا قادما من قبيبة فعرفت أن أحد الصبية من أصدقائهما قد مات في ذلك اليوم. و استسلم الصبيان الثلاثة للعويل و البكاء بشكل جنوني إلى أن قال لهم فالح أخيرا «كافي» فأقلعوا فورا عن البكاء و التقطوا مجاذيفهم.

قلت يجب أن نعزّي هذا الوالد المصاب بفقدان طفلته فذهبنا للتعزية. و تقام الفاتحة لكلا الجنسين و تدوم سبعة أيام، يقوم خلالها القرويين بتأمين وجبة الغداء بالتناوب و يشرب الناس من أهالي القرية القهوة فقط و لا يشربون الشاي أو يدخنون السكاير في الفاتحة

و يتركون ذلك إلى الزوار. و اقترح عمارة بأن أبدأ أنا بالقول «الفاتحة». لكنني رفضت و قلت له من بأن يقولها هو بدلا عني. لأنه من الصعب على غير المسلم أن يعرف ما سيقوله من التعابير الدينية و ما يجب أن لا يقوله في الفواتح.

و الأحاديث الكثيرة التي تدور في الفاتحة هي كما يلي: «الحمد للّه» و «بسم اللّه» و «إبق في حفظ اللّه و رعايته». و ما يقال في الفواتح من الكلمات الأخرى هو على كل حال من واجب المسلمين. فمثلا: يضيف المسلم حينما يسمع بذكر إسم النبي محمد صلى اللّه عليه و سلم. أما أنا فما كنت أذكر اسم النبي عند التحدث بل إنما أقول «نبيكم». و كنت أجلس بين الشيعة خلال الأيام العشرة من شهر محرم في مجالس العزاء على مقتل الحسين إظهارا للحزن و التأسي. فاستمع إليهم و هم يقرأون قصة مقتله من بعد تناول العشاء فأتصرف كما يتصرفون. أنهض حينما ينهضون و ألتفت إلى اليمين أو إلى اليسار حينما يلتفتون.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۰

كانت الغرفة مزدحمة بالناس حينما دخلناها. سلمنا على الوالد، و هو رجل كبير السن و أعرج نتيجة لجرح أصيب به من جراء إصابته بإطلاقة.

دعاني إلى الجلوس بجانبه ثم قدمت لنا القهوة و الشاي و السكاير.

و قبل (۱۲) سنة، اكتسب هذا الرجل شهرة في معركة جرت بين الشيخ مجيد الخليفة و بين والد زوجته الحاج سليمان. و لم أكن قد تعرفت أبدا إلى السبب الحقيقي لهذا القتال. و لكنني عرفت بأن ابنة الحاج سليمان قد قتلت في الوقت الذي كانت فيه زوجة للشيخ مجيد.

و بعد عدة سنوات قتل خريبط أكبر أبناء مجيد. و يقال بأن مقتل خريبط كان جزءا من نفس العداوة. و في تلك المعركة هجم رجال الشيخ مجيد عبر حقول الشلب المكشوفة و استولوا على قرية الحاج سليمان و أضرموا النار فيها.

و يقال بأن عدد القتلى في ذلك اليوم بلغ (۱۴۰) قتيلا قبل أن يصل أحد السادّة و يفرض عليهم الهدنة.

كان أبو الطفلة الميتة يحمل راية العشيرة و لكنه أصبح عاجزا عن حملها بعد إصابته تحت أسوار الحصن الحقيقية. لذلك أخفقوا في احتلالها.

جلست بجانبه كما بيّنت مدة نصف ساعة أشرت إلى عمارة بوجوب الذهاب فقرأ «الفاتحة» ثم نهضنا و غادرنا الغرفة.

كانت العادة أن نساهم في المصاريف. لذلك حينما أوصلنا هذا العجوز إلى الباب وضعت في يده نصف دينار.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۱

۲۱- فيضان سنة ۱۹۵۴

كان شتاء سنة ۱۹۵۳- ۱۹۵۴ شتاء قاسيا جدا. و كان نهر دجلة فائضا جدا بسبب هطول الأمطار الغزيرة في الشتاء و ذلك عندما عدت إلى العراق في أواسط شهر شباط. حدث هذا الارتفاع على الرغم من أن الثلوج الهائلة على قمم الجبال الإيرانية و التركية لم تبدأ بالذوبان.

التقى بي عمارة و سبيتي في البصرة و أمضينا بضعة أيام فيها نشترى الأدوية و الخراطيش و الملابس ثم عدنا من بعد ذلك إلى القرية. و أمضينا في طريقنا ليلة واحدة في مضيف فالح الذي كان ولده عبد الواحد يقوم مقامه.

كان عبد الواحد شابا لكنه بليد لا يدرى ماذا يفعل لأن والدته الشديدة و البخيلة كانت مسيطرة عليه فتتدخل في شؤونه. و كان لا بدّ و أن يقف أتباع فالح الكبار السن بجانبه لكنها تخلصت منهم حتى توفر المال.

فقد ترك داير العمل كما عزم عبد الرضا أن يترك العمل أيضا. و كان يتردد على المضيف في هذه الأيام عدد قليل من الناس، فكنا نجلس معظم الوقت صامتين و هذا من شأنه أن يدخل السأم في القلوب.

كنا قد تركنا طرادتنا في هذا المكان و وجدناها غير صالحة تتسرب المياه إليها. فقلبناها رأسا على عقب و بدأنا نسد الشقوق بصورة موقتة إلى أن نعيد تصليحها و تجديدها. لذلك قررنا عبور الأهوار و التوجه إلى الهوير

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۲

حتى يقوم الحاج حميد نفسه بعملية التجديد. كان التيار قويا جدا، و منسوب النهر عاليا بحيث يصل إلى حافة الضفاف. و في طريقنا، شاهدنا عددا من الرجال على شكل مجموعات و هم يعملون بجد و نشاط في تقوية السداد و ذلك قبل وصولنا إلى الرفيعة، تلك القرية التي مكثت فيها مع عمارة الذي وسّع بيته الآن فأصبح فسيحا و ذا بناء جيد كما كان أثاث البيت جديدا من سجاجيد و وسائد و غير ذلك. و يعزى سبب تحسن حالتهم المالية إلى كون إخوته يعملون بجد و نشاط مما يدرّ عليهم ناتجا جيدا.

فمثلا أخوه رشک بذل جهده فی حقله و الجوامیس أنجبت عجولا و بدأوا یحلبون اثنتین بدلا من واحدة.

فرحت جدا لعودتی إلی الرفیعیة و لمست أن أهل القریة کلهم فرحون بعودتی. و لما نزلت من الزورق. مشی الصبیان ورائی فکأنهم یحرسوننی حتی وصلت إلی بیت (ثقب).

و هناک طلب الرجال الکبار فی السن من عمارة بأن یصرف الصبیان فقالوا له: «رجّع هذوله الفروخ حتی نشوف صدیقنا». ما أسهل القول و ما أصعب التنفیذ. أبی هؤلاء الصبیة الانصراف و أجاب أحدهم و لا یتجاوز عمره سبع سنوات بوقاحة «خلّونا وحدنا هو صدیقنا مو صدیقکم».

لم أشاهد مطلقا رجلا یضرب صبیا صغیرا و لا یشفق علیه أحد کما لم أشاهد أبدا تشاجر الصبیان مع بعضهم البعض إلّا فی مناسبات نادرة جدا.

و الآن، ناشد رشک هؤلاء الصبیان بأن یساعدوه فی مسک بعض فروخ الدجاج. و استجابوا لطلبه فاندفعوا یطاردون فروخ الدجاج و هم بمنظرهم هذا أشبه بمجموعات صغیرة من فروخ الکلاب. و الدجاج هنا ملک ل (مطرة) أخت عمارة التی کانت تذبح عددا منها کلما بقیت عندهم.

و کانت أحیانا تبیع عددا منها للمشترین الذین یأتون من المدن و یتجولون فی

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۲۹۳

القری لهذا الغرض. و کنت قد اشتریت لها ملابس سلکیة زاهیة خضراء من البصرة. إختارها عمارة بنفسه، لذلک شعرت هذه المرّة بأننی غیر مقصّر مقابل فروخ الدجاج.

کانت مطرة فتاة خجولة، هادئة الطبع، رفیعة، حلوة الشمائل و لها وجه جمیل. و سألنا مرّة عمارة عما سیفعله هو و والده إذا ما طلبها الشیخ لیتزوجها فأجابا بأنهما سیرفضان طلبه.

«إذا الشیخ یرید یتزوجها ما عندی قوة أحمیها».

بإمکان الشیخ أن یتزوج کل فتاة تعجبه و لکن لا یمکن لبنت الشیخ إلا أن تتزوج أحد الشیوخ. و ینطبق الشیء نفسه علی السادّة. و یحق للمسلم أن یتزوج أربعة نساء و لا یحق لأی أحد أن یتجاوز هذا العدد. و فی قباب رأیت صدایا وشیءصین آخرین فقط یملکون زوجتین. کنت فی أول الأمر، أفترض بأن نسبة عالیة جدا من الأطفال یجب أن یموتوا فی سن الطفولة.

ففی إحدی قری عشیرة الفرطوس التی کنت قد زرتها من قبل، کان قد مات خمسة أطفال من مرض السعال الدیکی فی مدة أسبوع واحد. و هذه فی الحقیقة نسبة قلیلة. و من أجل المقارنة أخذت عشرة أسر فی قریة قباب بشکل عشوائی فکان مجموع الأطفال ثمانین طفلا.

و مات منهم ثلاثة عشر طفلا بعمر أقل من خمسة عشرة سنة. فمن أولاد (ثقب) التسعة لم یمت إلا طفلا واحد. و أخوة و أخوات سبیتی السبعة کلهم أحیاء فتعجبت من ذلک کثیرا. فکیف یمکن مقارنة هذه الوفیات مع وفیات الأطفال فی إنکلترا.

مکثنا فی قریة الرفیعیة یوما آخر قبل التوجه إلی قریة بومفیفات. و لما تحرکنا فی الیوم المقرر لسفرنا، بدأ المطر ینهمر خلال اللیل. و لما أصبح الصباح وجدنا السماء ملبدة بالغیوم تنذر بسقوط المطر. و لما وصلنا إلی مسافة یمکننا فیه من رؤیة بیت حسن بدأ المطر آنذاک بالانهمار و استمر

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۲۹۴

انهماره طوال النهار بأسره و لذلک تبللنا بماء المطر قبل أن نتمکن من إخراج حاجیاتنا من الزورق لإدخاله إلی البیت.

کان البیت ذا بناء جید، له سقف یحتوی علی عدة قطع من الحصران السمیکة. و لم نجد حسن نفسه فی البیت بل إنما کان قد خرج إلی الصید.

غیر أن عفراء والدته رحبّت بنا و أوقدت النار حتی نجفف ملابسنا. و عفراء هذه هی امرأة ضخمة الجسم، لها عینان واسعتان رمادیتان مائلتان إلی الخضرة بصرف النظر عن وجهها المربع الشکل. لها نفوذ علی أهل القریة، کرّست حیاتها من أجل إبنها. تنحدر من أسرة شهیرة هی مکنزی. و کانت ترتدی ثیابا مقلمة.

و لما سمعت بهذا الاسم لأول مرة، توقعت بأنی سألتقی ببعض الناس ممن ینحدر من جماعة من الاسکوج. و هذه الأسرة هی فی الحقیقة من عشیرة الفریجات و من نسل لا یرقی إلیه الشک.

کان جد عفراء قد سمّی إبنه مکنزی تیمنا باسم رجل اسکوتلندی کان قد صادفه فی الحرب العالمیة الأولی و أعجب به.

جاء حسن و هو مبلل حتی جلده. و قد امتلأ زورقه الصغیر إلی نصفه بالماء المتساقط من المطر و کان یحمل معه عددا من البط

النهرى كان قد اصطاده بطلقة واحدة.

و حكى لنا كيفية إصطياده فقال بأن البط كان وحشيا جدا إلّا أنه تمكن من الاقتراب من هذه المجموعة المؤلفة من (۴) فقط و ذلك بالتقاطه باقة من القصب و وضعها أمام عينيه حتى لا تراه و خوضه الماء إلى عمق عنقه.

و بعد فترة جاء ياسين من مكان منابت القصب. و كان ياسين و حسن متلهفين للعمل معى مرة أخرى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۵

و بعد أن جددنا الطرادة فى الهدير، خططنا بأن نعبر نهر دجلة من القرنة ثم نتجه شمالا من خلال جزء من الأهوار الشرقية و التى لم يسبق لنا مشاهدتها. غير أنّ صحين قال لنا ناصحا «لا تقتربوا من بحيرة زكرى فى مثل هذا الطقس. إذهبوا إلى الجنوب إلى نهر الفرات من خلال قرى البوبخت. و لاحظوا بلكى تگدرون تأخذون وياكم طاهر عبيد كدليل معكم.

هذا يعيش على التهريب و يعرف الطرق المائية كلها فى الأهوار الشرقية».

و قال ياسين «نعم. إلتقيت به بالعزير فى العام الماضى. فإذا جاء معنا فبوسعنا أن نذهب أين نشاء».

فى اليوم الثانى تناولنا طعام الغداء فى (دوب) مع الرجل الذى كان كلبه قد هجم على إبنه قبل ثلاث سنوات. و لما أردنا أن نرحل، ألحّ الوالد و الولد نفسه بالبقاء يوما آخر، لذلك أمضينا الليلة عنده.

كان اللصوص قد سرقوا قبل بضعة أيام عددا من الجواميس من هذه القرية خلال الليل. فعندما نبحت الكلاب، علم أهل القرية بوجود اللصوص، فبدأوا بمطاردتهم و إطلاق النار عليهم فأصابوا صبيا فى صدره فقتلوه فى الحال. و كنت أعرف الصبى الميت فذهبت إلى مجلس الفاتحة.

و حكى لنا صحين هذه الحادثة فى قرية بومفيفات و القى الشك على لص من عشيرة الفريجات الساكنين فى العويسج. غير أنه ثبت لهم الآن أن اللصوص هم من عشيرة السويد و تعرّفوا إليهم من أصواتهم. لأن بإمكان رجال الأهوار التعرّف إلى الأشخاص الغرباء من لهجتهم فيكتشفون العشيرة التى ينتمى إليها.

عثرنا على طاهر فى البيت حينما وصلنا فى مساء اليوم التالى. رأيته رجلا قوى البنية، يبلغ من العمر ثلاثين سنة، يمكن تمييزه من الورم الكائن فوق عينه اليمنى و حجمها بقدر حجم الجوزة. و لما عرضنا عليه الأمر وافق على مرافقتنا.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۶

و كان قد مات أكبر أولاده حديثا فبقى له طفلان صغيران فقط لذلك ساعده فى الضيافة ابن أخيه لأنه صبى نشيط يبلغ من العمر اثنى عشر سنة و يعيش بجوار بيته. و كان هذا الصبى يشبه أباه. و أما أخو طاهر فهو أصغر الأخوة و يشبه طاهرا بشكل عام من المظهر و يعيش هو الآخر على النهرين.

و سرعان ما حضر عدد من الناس المرضى أكثر من المعتاد حتى أعالجهم. جاء بعضهم من مسافات بعيدة فتعجبت من الطريقة التى تنتقل فيها الأخبار بسرعة. و لهذا السبب بقيت يوما آخر مع طاهر حتى أعالج هؤلاء المرضى. فوجدت فى هذه القرية صبيا قضيبه تحت خصيتيه. و لم يسبق لى أن رأيت مثله.

و فى طريقنا إلى الهوير أخبرنا طاهر من أن مغامراته الأخيرة لم تكن ناجحة حيث ألقت الشرطة الإيرانية القبض عليه و صادرت ما يحمله من أموال مهربة كالشاى و السكر و غيرها. و استجوب حول مصير شرطيين إيرانيين كانا قد اختفيا قبل عدة أشهر. و بعد يومين من الضرب بالعصى و التحقيق الشديد لم يتوصلوا إلى نتيجة لذلك أطلقوا سراحه و لكنهم حذروه بأنهم سوف يطلقون النار عليه إن أمسكوه مرة أخرى. ثم تأوه و قال:

«أگدر أدليهم على مكان اختفاء الشرطيين المفقودين. أنا اللى دفعتهما تحت جزيرة عائمة فى الهور. كنا نحمل الدقيق فطاردنا هذان الشرطيان فى الظلام. لكن تركنا وراءنا شخصين و كمنا و باغتناهما. و حصل كل واحد على مائة دينار من بيع بندقيتهما. أنا الآن أحاول البقاء بعيدا عن إيران فى الوقت الحاضر».

تقع الهوير على مسافة قليلة فوق خليج صغير إلى الشمال من نهر الفرات. تجد الدور و عددا من المضايف منتصبة تحت أشجار النخيل الباسقة فوق جزيرة ذات أرض عالية محاطة بالهور. مكثنا مع الحاج حميد فى مضيفه الصغير المجاور لساحة القارب. وجدته رجلا ذا حيوية و نشاط و هو بمتوسط العمر.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۲۹۷

أمر الصبيان بأن ينتزعوا القشرة من الطرادة فى الحال ثم اصطحبونى لنتجول فى القرية. وجدت الناس منهمكين فى صناعة القوارب إما بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. فألواح الخشب وكتله و أعواد الخيزران كلها مكدسة فى الساحة خلف دكاكينهم. و يبيع البقالون

فی دکاکینهم المعدات الخاصة لصناعة القوارب و المسامیر بالإضافة إلی السلع الاعتیادیة.

و وجدت العمال یشتغلون تحت أشجار النخیل و هم یضعون اللمسات الأخیرة علی قارب ذی صاریین قبل إنزاله إلی الماء علی جذوع الأشجار.

و یعمل معظم أصحاب الحرف فی الساحة التی تعود لهم و التی تقع وراء حواجز القصب. ینزعون قشور القوارب الصغیرة أو یطلونها بالقیر من جدید أو یصلّحون الأطر المتکسرة أو یصنعون قوارب جدیدة.

راقبنا أحدهم و هو رجل عجوز یصنع زورقا صغیرا. صمم البطن أولا من الشرائح الخشبیة المستعرضة. و جعل کل شریحة تبعد عن الأخری مقدار عقدة واحدة أو ما یقارب ذلک.

ثم ثبّت لوحة خشبیة طویلة بالمسمار فی الوسط. إنتهی من صنع الهیکل و نحن نشرب الشای. و کان یختار القطع المناسبة من الأخشاب المکدسة بجانبه. کان یستخدم القدّوم و منشارا صغیرا و مثقبا مقوسا موضوعة بجانبه فوق الحصیر مع عدد کبیر من المسامیر. کنا نشمّ رائحة القیر المذاب حیث تجرف أبخرتها الریاح نحونا من الساحة المجاورة.

و کانت أشعة الشمس تتسلط علینا من خلال سعف النخیل. و شاهدت غرابین أرقطین علی السعف، ینظران إلینا و یراقبان کل حرکة من حرکات العمال.

و أخیرا قال الحاج حمید «خلّی نرجع هسه. لازم خلّصوا نزع القشرة من طرادتک. راح أقیرها من بعد الغداء بقیر جدید. إبق هذه اللیلة حتی تیبس عند الصباح». ثم صنع لنا مجاذیف جدیدة و صبغ ریشتها باللون الأحمر حتی یصعب سرقتها. و لمست أنهم یفرحون جدا إذا ما حصلوا

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۲۹۸

علی مجاذیف من صنع الحاج حمید. و علی هذا الأساس، أصبحت مجاذیفنا منذ الآن ممیّزة عن غیرها. و کانت تبدو جیدة.

و فی صباح الیوم التالی، عدنا أدراجنا، و بدأنا نجذف سویة فی الماء و نحن نسیر مع المجری و مررنا بضفتی النهر المغروسة بأشجار النخیل.

و کان طاهر یجلس فی مقدمة الطرادة، حیث المکان الذی کان یشغله حسن. و حلّ حسن فی محل عمارة الذی جلس قبالتی کمسافر. و قبل أن نصل إلی القرنة تخطینا زورقین أو ثلاثة تجاریة النوع.

وجدنا جسرا من نوع جسر پانتون مشیّدا علی نهر الفرات فی المکان الذی یلتقی فیه بنهر دجله و هو مفتوح لمرور السابلة. و کان منسوب نهر دجلة عالیا فتناولنا طعام الغداء فی مضیف یقع فی الطرف البعید. و کان ذلک الیوم بتاریخ الرابع من شهر مارت.

بقینا فی الجانب الشرقی من النهر طوال الأسابیع الخمسة التالیة.

زرنا فی البدایة العشائر التی لم ألتق بها فی السابق مثل الدخینات أو عشیرة الحلقیHaliki . ثم عدنا من بعد ذلک إلی أصدقائنا بین عشیرة البو محمد و عشیرة الفریجات و السوید.

کانت الأمطار تهطل فی أکثر الأوقات و خاصة أثناء اللیل مصحوبة بزوابع رعدیة فانجرفت المیاه نحو الأهوار. نمنا فی دور تحتوی سقوفها علی أکثر من حصیرتین لأن معظم الدور فیها حصیرة واحدة فی السقف.

و کانت الحصران الموجودة توضع أحیانا فی أرضیة الغرفة فوق حاجیاتهم البیتیة و ما کان هذا یمنع من تسرب میاه المطر إلیها. کان الجو باردا جدا فکنا ننام علی شکل أزواج نتقاسم بطانیاتنا. و کان الفیضان یزداد ارتفاعا علی الدوام.

خرجنا بعد ظهر أحد الأیام إلی الصید. و کانت الغیوم قد تجمعت بسرعة علی شکل کتل کبیرة تنذر بحدوث زوابع رعدیة هائلة. و قال یاسین بقلق «یا رب. انشاء اللّه ماکو برد بهل زوبعة».

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۲۹۹

وردّ علیه الآخرون بدعاء مثل دعائه. بدأت الزوبعة. و قبل أن نصل إلی البیت کان علینا أن نبقی الطرادة عائمة فوق الماء. و کان رفاقی یخشون من سقوط البرد، و لهم کل العذر فی ذلک لأنه، فی السنة التالیة ضربت الزوبعة التی تحمل البرد قطعة واسعة من النباتات الواقعة فی النصف الشمالی تماما من الأهوار، محطمة بذلک أکبر عیدان القصب و مهلکة عددا لا یحصی من طیور البجع و الأوز و انواع أخری من الطیور المائیة و أتلفت المحاصیل فی کل مکان کما قتلت ایضا عددا من الجواميس. و قال عمارة «ویّا هل مای العالی راح نقتل کثیر من الخنازیر هل سنة». و فعلا قتلنا عددا کبیرا منها. و قبل أن نجتاز نهر دجلة ثانیة کنت قد قتلت (۲۰۵) خنزیرا. إن مثل هذا العمل مثیر و خطر أحیانا. و ما کنت أصیدها لمجرد التسلیة فقط.

تعتبر هذه الخنازیر أعداء سکان الأهوار الطبیعیین. و کان علیّ أن أثیر فی نفوسهم الضغینة أو دفعهم لقتل هذه الخنازیر و أن لا یشعروا

بأسى حينما يقتلونها. و مع ذلك، فإذا ما أبيدت هذه الخنازير هنا كما أبيدت الأسود فلا بدّ و أن أصبح مكروها. و لكن أشكالها الداكنة و هى تقتات على حافات منابت القصب عند المساء تعتبر بالنسبة لى جزءا مكملا لمنظر الأهوار. و أنه من غير التعرض المستمر للحظر من شن الهجوم المقابل عليها تفقد الحياة هنا كثيرا من بهجتها.

و يمكن أن يكون الخنزير جسورا إل درجة مدهشة. ففى إحدى المرات و أنا فى أراضى العميرة، أكّد لى القرويون بأن أحد الخنازير عاد إلى القرية مع الجواميس و أمضى الليل فى الدور الخالية، و ما صدقتهم حتى رأيت خنزيرين يسيران فى المياه الضحلة و هما فى طريقهما إلى القرية مع مغيب الشمس. فقمنا بمطاردتهما و قتلناهما. و لما رجعنا فى الظلام قالت لنا إحدى العوائل حيث كانت المرأة جالسة خارج البيت بالقرب من النار بهدوء و حذر:

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۰

«شوفوا اكو بعد داخل البيت» و كانت تشير إلى باب البيت المجاور و الذى يبعد مقدار بضعة ياردات. و حسبت فى أول الأمر من أنها تمازحنا.

فنزلنا، على أية حال، من الزورق على الدبن و كادت الخنازير تقتلنا لأنها خرجت من داخل البيت مسرعة و هائجة و ألقت بنفسها فى الماء.

إتجهنا بالطرادة نحو الشمال، وقادنا طاهر إلى العويسج، و هى عبارة عن سلسلة طويلة من الأرض المرتفعة قليلا عن مستوى الماء، تمتد بمحاذاة نهر دجلة. و كانت معظم الخنازير غاطسة فى الماء بسبب منسوب الفيضان بشكل غير اعتيادى و عدد آخر كبير منها مضطجع على الأرض فى ذلك النهار. و كان رفاقى يدفعون الطرادة بسهولة من خلال الترسبات الطينية فى أى إتجاه نريده حتى نصطاد الخنزير الذى نبغى قتله. و فى أحد الأيام، و من بعد الظهر، قتلت (۱۰) خنازير كانت تسير أمامنا الواحدة وراء الأخرى. و كنت أرمى بشكل استثنائى فى ذلك اليوم حيث قتلت خنزيرا واحدا بإطلاقة واحدة فقط. ثم عثرنا على أربعة خنازير أخرى و عندما قتلت أحدها، تجمعت البقية حوله و هى تضرب الأرض بحوافرها و بقيت لفترة بجواره و ما أدركت السبب فقتلتهم جميعا.

ثم رأينا ذكرى خنزير كبيرى الحجم، وقفا يراقباننا على بعد (۲۰۰) ياردا. فأدار طاهر و رفاقه الزورق إلى الجانب ثم وقفوا خلفهما. فجلست على الزورق و أطلقت النار فقتلت أكبرهما. بدأ الخنزير بالدوران كأنه مزراع ثم ركض مقدار (۲۰) باردا ثم انحرف و توجه نحونا رأسا و من ورائه الآخر. فأطلقت أطلاقة أخرى سمعت صوتها حينما أصابته، لكنه لم يسقط على الأرض. فأطلقت أخرى و هو لا يزال يواصل اندفاعه نحونا حتى أصبح على مقربة منا تماما. فأطلقت النار عليه فسقط هذه المرة على الأرض. أطلقت أربع إطلاقات حتى سقط ميتا. حشوت البندقية و أطلقت النار على الآخر فأصابته الإطلاقة لأنه كان قريبا منى. و لكن لو قفز قفزتين أخريين لأصبح فوقى إلا أننى بادرته بإطلاقة أخرى فسقط على الأرض.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۱

و توجهنا من بعد ذلك نحو الزورق حشوت البندقية استعدادا للرمى و لكننى وجدته جثة هامدة لا حراك فيها فانحنيت و أنا فى الزورق و لامست يدى أقربها. أما الآخر فكان بعيد عنى بمقدار قدم أو أكثر.

كنت مركزا كل همى فى الرمى لذلك لم أكن أفكر فى الخوف. غير أن هجوم الخنزير و هو يندفع نحونا و عدم تأثير إطلاقاتى فيه لا بدّ و أن يسبب ذعرا شديدا لرفاقى الخمسة الذين كانوا غير مسلحين لأن بندقية الصيد و المسدس كانا معى داخل الزورق. و لقد كانوا خائفين فعلا لأننى التفت إليهم و رأيتهم على أهبة الاستعداد للقفز على الخنزير و الخناجر بأيديهم. فقلت لهم:

«ماذا كنتم تفعلون لو أن الخنزير دخل إلى الزورق؟».

«كنا نركب على ظهره و نقتله بخناجرنا» أجاب عمارة.

و فى اليوم الثانى طاردنا خنزيرا ذكيا آخر فى مياه عمقها (۱۸) عقدة.

كان يبعد عنا مقدار (۴۰) ياردا فقط. كنا نتقدم نحوه فاستدار و هجم علينا بسرعة و هو فى الماء بحيث كان الرذاذ يتطاير بشكل غزير جدا. أخفقت فى إيقافه و أنا فى الطرادة التى لا زالت تتحرك و أصبح بجانبنا قبل أن أتمكن من إطلاق النار ثانية.

و كان طاهر قد استعار رمح صيد السمك فى ذلك الصباح فقذف الرمح فى وجه الخنزير الذكر فأصابه و انغرز الرمح فى جسمه. أما أنا فأطلقت النار ثانية فأرديته قتيلا، لكنه ضرب الطرادة من الجانب قبل سقوطه جثة هامدة بحيث سقط طاهر فى الماء و تبلل جسمه من رأسه إلى أخمص قدميه بالوحل ثم نهض و هو يتمم كلمات سريعة غير مفهومة.

سأله ياسين ببراءة «ليش ذبيت نفسك بالماى؟. مو چنت بأمان تماما بداخلها. مو شفت الصاحب راح يرميه؟. لم يضحك طاهر على هذا القول.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۲

و قال عمارة «لو تقدم الخنزير قدم آخر، جان يحطم القارب إلى قسمين. مثل القارب اللى شفناه قبل اليوم، اللى حطمه الخنزير».

كان هذا الخنزير أكبر خنزير شاهدته إلى الآن. له شعر طويل و خشن بلون بنى غامق. كانت جلود بعض الخنازير الأخرى سوداء تقريبا و بعضها الآخر حمراء. كما شاهدنا مرّة و نحن نسير مجموعة من الخنازير باهتة اللون بحيث حسبناها لأول و هلة أغناما. و على أية حال، فإن كثيرا من الخنازير لها عدد قليل من الشعر الخشن على جلودها الأجرد. تلد الخنازير بين شهر مارت و مايس. و تلد الواحدة منها خمسة فروخ دفعة واحدة، لها جلود مقلمة ناعمة الملمس، جذابة الشكل.

و حينما كنت أصطاد الخنازير، كنت أرى أنه لا فائدة من سوقها باتجاه الريح. و للخنازير بصر حاد و لكن يظهر أن سمعها ثقيل و خاصة عندما تكون نائمة. إذ نادانى مرة بعض الخيالة من عشيرة بنى لام بأن أقترب منهم حينما كنت أقوم بصيد الخنازير على ظهر الحصان فى أحراش تحتوى على أشجار الطرفاء، و ذلك حتى أرى خنزيرا ذكرا، ضخم الجسم، و هو يغط فى نومه داخل الدغل و نحن على بعد ياردة واحدة منه.

و يؤكد المعدان بأن الخنزير يقتات على الجيفة أو المواد الفاسدة.

و فى العويسج رأيت فعلا عددا من الخنازير التى قتلتها قبل أيام و قد أكلت أجزاء منها من بنات آوى التى تتواجد بأعداد كبيرة فى هذه المنطقة.

و أخشى من غرق جميع بنات آوى فى تلك السنة لأنه لم يبق هناك إلا قطعة صغيرة من الأرض لا تزال غير مغمورة بالمياه التى كانت فى حالة ارتفاع مستمر و ستبقى على هذه الحال طوال شهرين آخرين على الأقل.

و كثيرا ما كنا ننام فى قرى صغيرة فوق جدار نحيف من الطين محاط بالمياه. و كنت أتوقع دوما سقوطها و نحن نيام.

كانت الزوابع تحدث فى معظم الليالى مصحوبة بالرعد و البرق و كنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۳

نتبلّل بسرعة. و كانت مياه الأمطار تنهمر علينا من السقوف المشقوقة. و فى الصباح اللطيف، كنا نجفف ملابسنا و إلّا أصبنا بالبرد و أصبحنا فى حالة تعيسة.

كنا واصلنا سيرنا عبر فسحة واسعة من الطين الممزوج بالماء و تحت سماء مكفهرة بالغيوم. و حينما وصلنا نهر الكحلاء وجدنا القرى الواقعة على مصبها مغمورة بمياه الفيضان.

ففى إحدى القرى، اكتسحت المياه الجدران الطينية المحيطة بالدار، خلال الليل و كانت الأسر تتلمس طريقها فى المياه بحثا عن حاجياتها.

و كان ضغط المياه على طول نهر الكحلاء قد حطّم السدود بسبب تدفق المياه عبر حقول القمح و الشعير غير المحصودة، و عندما عبرنا مرة أخرى نهر دجلة، لم تبق لنا حاجة حتى نبحث عن جسر لكى نعبر من تحت الطريق الرئيسى لأن مستوى المياه الفائضة كان بمستوى حافات السدود.

ففى مثل هذه الحال كنا نرش الطريق الترابى ثم ندفع الطرادة فتنزلق على الأرض الموحلة. و هنا أصرّ طاهر بأن يتركنا حتى يتمكن من مساعدة أسرته فقال لنا «راح ترتفع المياه هذه السنة و تصبح عميقة جدا بحيث يصعب على الجواميس أن تقتات من الأهوار. راح نشتغل زايد حتى نقطع الحشيش لتأكل».

كان طاهر يتحلى بمزاج حسن و يساعد الآخرين حتى فى أصعب ظروف المحن و يتقاسم معهم العمل بالتساوى على الرغم من أنه كبير السن، يبدو و كأنه أب لرفاقه فكان دليلنا فى سيرنا فى أماكن نمو القصب الواسعة على امتداد الحدود الإيرانية، لأننا كنا نسلك طرقا لا يعرفها إلّا أناس قلائل.

وعدنا بأن يصحبنا فى مرة أخرى، و لكن، لما سألت عنه فى السنة التالية قال لى أحد الرجال و هو فى غاية الاستغراب «ما سمعت طاهر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۴

مات؟. قتله ابن أخيه الصغير فى الشهر الماضى». و يظهر أن طاهرا و أخاه قد فقدا عقلهما و نفذ صبرهما حول بعض الأمور الثانوية بحيث أطلق أحدهما النار على الآخر. فهجم ذلك الصبى الذى لا يتجاوز عمره (۱۲) سنة و الذى رأيناه فى السنة الماضية حينما كان يساعد أباه. فأخذ رمحا من رماح الصيد و طعن به ظهر عمه طاهر. اخترقت إحدى رؤوس الرمح ذات الشوكة الحادة كليته فمات خلال ساعات بعد أن عانى خلالها ألما شديدا مبرّحا. فقال لى أحد الرجال من كبار السن: «أخوه صار مثل المجنون من كثرة حزنه عليه. شتم ابنه و وبّخه مع العلم أن الصبى نفسه كان يحب عمه طاهرا حبا جما و يعتبره مثل أبيه. حقا إنها مأساة».

و فی هذا الوقت، و نحن فی الأهوار، کنا منفصلین عن بقیة العالم تماما، لا ندری ماذا سیحل بأرض العراق من دمار. لأن المیاه غمرت مناطق شاسعة جدا و أصبحت بغداد نفسها فی خطر جسیم. و لکن مع ذلک، لم ینقطع طریق البصرة- بغداد فبقی سلیما غیر مغمور بالمیاه. قمنا بزیارة عاجلة للبصرة فی شهر نیسان. استأجرنا سیارة تارکین الطرادة فی الغدیر. و کنت قد اشتریت بندقیة عیار (۲۷۵) مستعملة من محلات رکبی Rigby لأننی لم أکن أرغب أن أحمل معی البندقیة الأخری من نفس العیار و التی صنعت لی خصیصا قبل الحرب ففی سنة ۱۹۵۴، جلبت معی، علی أیة حال، أحسن ما لدی من بنادق أیضا و ترکت الأخری فی البصرة.

و الآن أهدیت تلک البندقیة إلی عمارة و اشتریت بندقیة صید إلی کل من سبیتی و حسن و یاسین.

و بعد شهرین، عندما زرنا البصرة مرة أخری، رکبنا الطرادة و سیرناها بالمرادی، متجهین إلی الجنوب علی امتداد الطریق الرئیسی حتی وصلنا القرنة حیث استأجرنا زورقا بخاریا لیقلّنا فی النهر إلی البصرة. و عندما عدنا إلی قریة قباب فی شهر نیسان وجدنا المیاه بمستوی عال یقل عن مدخل مضیف صدام بمقدار قدم واحد فقط. علما بأن المیاه کانت بمقدار

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۳۰۵

ستة أقدام أقلّ ارتفاعا من مدخل المضیف نفسه حینما زرت القریة فی المرة الأولی و قد کانت تعتبر تلک السنة جافة بشکل استثنائی. ثم استوجب منه أن یحیط بناءه بجدار فیما بعد.

کانت ظاهرة المیاه المرتفعة غیر ملائمة للمعدان بالتأکید. و مع ذلک فقد کانت الحیاة تسیر بشکلها الطبیعی. فکانت الأسر تکوّم کمیات کبیرة من القصب علی أرضیة بیتها حتی تحافظ علی أنفسها من البلل.

و من قریة قباب إنطلقنا لنزور عشائر المنتفک الساکنة علی امتداد نهر الفرات ثم ننتقل نحو الشمال بعکس المجری. فتوقفنا عند مسیرنا لدی جاسم الفارس و مکثنا فی ضیافته یومین. و کانت الأراضی فی هذا الوقت من السنة الکائنة إلی الغرب من قری عشیرة الفرطوس مغمورة دوما بمیاه الفیضان. و کدنا أن نغرق فی السنة الماضیة حینما کنا نعبر من العویدیة إلی الحمّار. لذلک أصرّ جاسم بأن یرسل معنا ابنه فالح مع رجلین آخرین من الفرطوس فی البلم.

غادرنا قریة العویدیة یوم (۲۹) من نیسان. و سرعان ما هب الریح الشمالی الغربی العاصف، و المیاه الفسیحة کالبحر تجری فی أرض مکشوفة. و لهذا السبب، انتقلنا أنا و سبیتی و عمارة بأمتعتنا إلی البلم، و ترکنا یاسین و حسنا فی الطرادة علی أن یتدبرا أمرهما مع ما یقی من الحمل فیها. فاندفعنا إلی مجری الماء ثم سرنا بعکس المجری مرة أخری.

کان مستوی میاه الفیضان لا یزال فوق المستوی بالنسبة للسنوات الاعتیادیة، تزداد فی الارتفاع طوال شهر آخر علی الأقل. و لکن، حینما رأیت معظم قری الحمّار غاطسة بالمیاه، أدرکت عند ذاک مقدار خطورة الموقف.

فبإمکاننا الآن الذهاب إلی أی مکان نریده، نجذف الطرادة و البلم الکبیر عبر حقول القمح غیر المحصودة و بین جذوع عدد لا یحصی من أشجار النخیل.

رحلة إلی عرب أهوار العراق/ تعریب خالد حسن الیاس، ص: ۳۰۶

کانت جمیع القری مهجورة، و الکلاب الضالة تنبح من فوق سطوح الدور و نحن نجتازها. و کنا نری من حین لآخر بقرة، وصل الماء إلی مستوی بطنها و هی واقفة علی قمة السدّة حیث کانت تأکل سعف النخیل التی کانت تصلها بسهولة. و لکن، کان هناک عدد قلیل من المضایق و الدور الواقعة علی أرض عالیة أو فی الأماکن التی لا تزال فیها السداد قائمة.

و حینما کنا نتبادل التحایا عند العبور کان المتواجدون فی الدور یصیحون بنا أن نتوقف عندهم. و کانوا یهیئون القهوة حینما نتوقف عندهم کما یعدون الشای و یذبحون الدجاج لیهیئوا لنا الطعام. فکنا نجلس معهم و نتحدث إلیهم.

و کنت قد التقیت بعضهم فی الزیارات السابقة. و کلهم قد سمع بأن رجلا إنکلیزیا یعیش بین ظهرانیهم. و لکن، حتی إن لم أکن معروفا لدیهم فإنهم کانوا یرحبون بنا لأننا ضیوف. و عند عودتنا إلی الناصریة، دخلنا فی مجری نهر الفرات الرئیسی و جرفتنا تیارات الماء السریعة الجریان.

ففی أحد الأماکن، أصبحت بقایا السدة کطبقة مستویة تطفح الماء من فوقها علی شکل دوّامة قبیحة المنظر. و کنا لا نزال نحمل الصنادیق الثقیلة من البلم و هی التی زادت من ثقل البلم و إلّا ستصبح الطرادة بدونها خفیفة علی سطح الماء. و حتی فی مثل هذه الحالة، کنت أخشی من الانقلاب.

غیر أن یاسین کان یعرف بالضبط واجبه فقاد الطرادة قیادة حسنة بینما کان رفاقی الآخرون یجذفون بکل ما فی وسعهم من جهد. و رأینا مدینة سوق الشیوخ أثناء عبورنا مغمورة بالمیاه.

و بعد أن مکثنا یومین آخرین مع آل جویبر، عدنا إلی الحمّار ثم رأینا من بعد ذلک سوق الفهود خالیة و مهجورة.

و لما تسلق أصحاب الدكاكين القارب ليركبوه انهارت الجدران الطينية وراءهم. ثم عقبنا مجرى نهر الغرّاف سائرين عكس المجرى حتى وصلنا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۷

إلى مدينة الشطرة بعد مسيرنا بضعة أميال. رأينا المياه قد أحدثت كسرات على السداد فى بعض المحلات. و أما فى بعضها الآخر فكانت السداد قائمة. كان الرجال يشتغلون بجد و بدون كلل أو ملل حتى يخلّصوا محاصيلهم من الغرق.

مكثنا فى ضيافة محسن فى مضيفه الكبير الواسع الذى يتكون من خيمة واسعة قائمة بين عشيرة البو صالح.

كان مضيفه مفتوحا حتى فى مثل هذه الحالات أمام الزوار يبذخ بسخاء. و لا عجب من ذلك فهو ابن بدر المشهور بالكرم و الجود.

مكثنا مع شيوخ آخرين من شيوخ المنتفك و لكن كنا نقضى أكثر الليالى مع الرعاء (الرعاة) البسطاء أو مع الفلاحين، أحيانا فى خيام سوداء و أحيانا أخرى مع أناس آخرين فى أكواخهم القصبية (الصرائف) أو فى أكواخهم الصغيرة المبنية بالطين، كلها معزولة فى داخل هذا البحر المحيط بصرائفهم و أكواخهم.

وصلنا قرية العويدية مرة أخرى و افترقنا عن فالح بن جاسم الفارس و رفيقيه ثم انطلقنا لنزور عشيرة البزون.

قبل خمس سنوات كنت أنا و دوكالد ستيوارت قد تركنا مضاربهم و ركبنا الخيول و اتجهنا نحو الجنوب و ضربنا فى الصحراء الرملية حتى نصل إلى مضارب آل عيسى.

أما الآن فذهبت إليهم عبر الصحراء نفسها فى طرادتى لأن الأراضى كانت مغمورة بمياه الفيضان.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۰۹

۲۲- سنة ۱۹۵۵: سنة الجفاف

كانت سنة ۱۹۵۵ من جهة أخرى سنة جفاف، على نقيض سنة ۱۹۵۴ تماما. لأن الثلوج سقطت قليلا على قمم الجبال فى الشمال. و لم يرتفع منسوب نهر دجلة فى شهر نيسان فوق مستواه الذى كان عليه فى فصل الشتاء. و كان فيضان سنة ۱۹۵۴ الاستثنائى قد دمّر محاصيل القمح و الشعير احدى المضايف خلال الفيضان

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۰

على نهرى الغراف و الفرات و فى كل مكان آخر. أمّا فى الأهوار فإنه حال دون قيام القرويين بزراعة مناطق زراعة الشلب الغنية الواقعة بين قرية سيكال و مصب نهر العدل. و فى الوقت الذى كانت فيه عشيرة الازيرج التى تقع أراضيها لزراعة الشلب خارج الأهوار، قادرة على بذر بذور الشلب بعد أن يهبط منسوب مياه الفيضان فيحصلوا على غلال وفيرة من جراء زراعة هذه الأرض الشاسعة غير المغمورة بالمياه، لأنها كانت فى تلك السنة مغطاة بطبقة كثيفة من الغرين. أما الآن فإن منسوب المياه المنخفض استثنائيا من شأنه أن يمكّن أهالى الهور من تطهير أراضى واسعة أكثر من المعتاد ليزرعوا فيها الشلب و يحصلوا على منتوج كبير، و على عكسهم أصيبت عشيرة الأزيرج بأضرار.

الأزيرج عشيرة تزرع الشلب. يبلغ تعدادها أربعة آلاف شخص، يعيشون على ما تنتجه الأرض المنخفضة و الممتدة من نهر البطيرة، و هو فرع من نهر دجلة، يترك النهر الرئيسى فوق مدينة العمارة بعشرة أميال. و بعد أن يتفرع إلى ثلاثة مجار مهمة تتبدد مياهه فى الأهوار فى شمال قرية سيكال.

اجتزنا أراضيها فى أواسط شهر نيسان. و رأينا القرى الرخيّة الواحدة بجانب الأخرى ممتدة على طول الساحلين بدون فواصل تقريبا. و هنا فى هذا المكان يتميزون بوجود الربعة المستبدة على شكل(T) . فأحد الأذرع يستخدم كسكن للعائلة و الأخرى مخصصة للضيوف. و توجد حول بيوت الرؤساء مخازن واسعة و مقفلة مصنوعة من الحصران و على سقوفها روث الجواميس الجافة، تضم محاصيل الشلب من حصة الشيخ من السنة السابقة. و يمكننا حساب مقدار الغلال من كثرة عدد هذه المخازن و أحجامها.

و مع ذلك، رأيت القرى نصف خالية. عرفت بأنّ عددا من الازيرج قد هاجر فى فصل الربيع لمساعدة الأهالى الساكنين على ضفاف الغراف فى حصد القمح و الشعير. و افترضت فى البداية، أن الذين ذهبوا هم أكثر

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۱

من العدد المعتاد، و بنيت افتراضى هذا على كون السنة رديئة ذات غلال قليلة من الشلب.

و عندما مكثنا بين ظهرانيهم، لا حظنا، على أية حال، أن كثيرا من البيوت الواسعة المبنية بناء جيدا خالية من السكان.

و لا يحتمل أن يكون أصحابها قد ذهبو إلى الغراف للقيام بأعمال الحصاد لأن مثل هذا العمل، يقوم به الفقراء. و عرفت فى الحال أن

عـددا قليلا من الازيرج قد ذهب فعلا فى هذه السـنة للقيام بأعمال الحصاد إلّا أن هذا العدد هو أقل من المعتاد. فسألنا عما حدث لهم. فقيل لنا بأن أعدادا كبيرة منهم قد هاجرت إلى بغداد أو البصرة و تساوى بذلك الغنى و الفقير.

تلـك هى بدايـة الهجرة فى لواء العمارة. و هى تمثّل الهجمـة القديمـة الطراز التى تسـتوجب ترك عـدد كبير من القرى كليا أو جزئيا مهجورة، و ذلك سـعيا وراء الثراء فى محل آخر. و تأثر جميع الفلاحين من هـذا العمل و لم يقتصـر الأمر على الازيرج فقط بل تعـدّاه إلى عشيرة البو محمد و السويد و ما بقى من أفراد عشيرة السودان.

أما المعدان و العشائر التى تربى الأغنام مثل آل عيسـى فلم يتأثروا بهذه الهجرة. و عندما ذهبت إلى العراق لأول مرة فى سنة ۱۹۵۰، لم تكن حقول النفط فى البصـرة مفتوحة. و لكن، بحلول سنة ۱۹۵۵ كانت هذه الحقول فى أقصـى انتاجية، و المال يتدفق على هذا البلد. ففى بغـداد، كـانت أحيـاء بكاملهـا تقوّض و يعـاد بناؤهـا من جديـد. و كـان يجرى تعبيـد الطرق الجديـدة فى كـل مكان و يتم إنشاء الجسور. و لهـذا السـبب كـانوا بحاجـة ماسـة إلى الأيـدى العاملـة بأعـداد كبيرة جـدا. فكان هؤلاء الـذين تركوا قراهم و جاءوا ليعملوا يحصلون على نقود كثيرة جدا و يرسلونها إلى ذويهم فى قراهم فتكون مصدرا للتداول. لذلك هاجر عشرات الألوف من الفلاحين فى لواء العمارة مع عوائلهم سعيا وراء المال.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۲

داخل المضيف على نهر الفرات

و فى السـابق، عنـدما كـانوا يـذهبون إلى الحصـاد فى الغراف أو فى أى مكـان آخر، كـانوا ينتقلـون مع حيوانـاتهم و يحملون كـل ما يملكونه. أما الآن، فقـد باعوا قواربهم و جواميسـهم و حبوبهم- باعوا فى الحقيقة كل شـىء إلّا ما يمكنهم نقله على ظهور الحافلات و اللوريات. لأنه لم تعد لهم نيّة للرجوع إلى موطنهم.

إنهم لم يتركوا أراضـيهم بسـبب الحاجـة، لأننا نرى الازيرج الـذين شـكلوا نسـبة عالية فى الهجرة أكثر من العشائر الأخرى حصدوا فى الحقيقة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۳

محصولا وفيرا بشـكل اسـتثنائى من الشـلب فى شـهر تشـرين الثانى. صـحيح أنهم قد واجهوا فى السـنة التالية نقصا فى الغلال نوعا ما و لكنهم كانوا يملكون الشـىء الكثير بحيث يساعـدهم على التغلب على المصاعب. هـذا علما بأن الذين بقوا فى قراهم لم يعانوا ضـنك العيش الحقيقى.

و فى سنة ۱۹۵۱ كانت المياه ذات منسوب منخفض جدا أيضا، غير أننى لاحظت فيما بعد أقل ما يمكن من علامات الفقر بين الازيرج و البو محمد. و الصـحيح هو أن المنسوب المتدنى للمياه فى سنة ۱۹۵۵ هو الذى عجّل فى عملية الهجرة بالجملة إلى المدن و لكنه لم يكن السبب لها.

و فى خلال السـنوات الأخيرة كانت قـد هاجرت أعـداد قليلـة من الازيرج و من البو محمد إلى بغداد و البصـرة حيث عاشت فى أحياء خاصـة بها بقيت على تماس مع أقاربها فى القرى. و اتخـذ بعضـها مهنة البقالة و انهمك الآخرون فى أعمال تجارية صـغيرة و حصـلوا على الأرباح. و إن حكايات نجاحهم فى أعمالهم ما جعلتهم يخسرون أى شىء عند سردها.

و بالإضافـة إلى ذلك كان الشـىء المعروف بشـكل عام هو الشـخص القادر على العمل يسـتطيع أن يجد له عملا فى بغداد و يحصـل على أجر يومى قدره خمسة دراهم. و هذه وحدها كانت تعنى ثروة بالنسبة إلى هؤلاء القرويين.

أما السـبب الآخر للهجرة و الأكثر أهمية فهو السـخط الناجم من التعلّم. فكان كثير من الشباب من أبناء الفلاحين يذهبون إلى المدرسة و أصـبحوا نتيجـة لـذلك فى حالـة ينتقـدون فيها القيم المقبولة من حياة القرية انتقادا مرّا. كما أنهم كانوا مسـتائين من سـلطة الشـيوخ عليهم فكانوا يتـذمرون علانيـة من ابتزازهم لمحاصـيلهم. و كانوا يحلمون بالهرب إلى بغداد، إلى عالم يتيح لهم فرصا عظيمة للعمل و أجرا كبيرا مع أنواع مختلفـة من المغريـات. و كـان الآباء يحترمون قراءة الكتب لأنهم كانوا أميين لا يجيـدون القراءة و الكتابـة فتأثروا بأبنائهم و لكنهم كانوا عنيدين جدا فى الاستجابة لطلباتهم. و عندما رأى الشباب فى سنة ۱۹۵۵ بأنه لم يبق لهم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۴

سوى قسم قليـل من الأرض لزراعته أخـذوا عنـد ذاك يشـددون الضـغط على الكبار قائلين لهم: «ليش نبقى هنا و نهلك أنفسـنا حتى نزيـد من محاصـيل الشـيوخ؟. ليش لازم نشـتغل من أجلهم؟ نحن أحرار موش عبيـد. يعاملوننـا مثـل معاملـة الكلاب. ما لهم حق على الأراضـى. إذا جاءت حكومة صـحيحة فإنها تأخذ الأرض منهم و توزعها علينا. ما راح تصـير زراعة هذه السنة. ماكو مای. إذا بقينا هنا راح نموت من الجوع. إذا رحنـا إلى بغـداد كلنا راح نشـتغل. نصـير أغنياء خلال كم شـهر. شوف واوى راح إلى بغـداد قبل سـنتين ما

يملك شيء غير دشداشته. هسه، يملك سيارة و بيت. شوف على و عباس و الزائر جاسب كلهم راحوا. غانم راح يبيع جواميسه و يروح أيضا. هيا يا بوى. إذا بقينا راح نصير الناس الوحيدين اللى الشيوخ يشغلوهم فى كل الأعمال. خلينا نروح قبل ما يبعثوا ورانا حتى نبنى السد الكبير فى أبو فحل».

و الشيوخ أنفسهم كانوا فى غاية القلق من هذه الهجرة الجماعية لرجال العشائر لأنها تهددهم بعدم بقاء أى فرد حتى يعمل فى حقولهم. ثم إن سلطتهم أصبحت ضعيفة على أولئك الذين بقوا و قد تزول عاجلا. و كان الفلاحون، و على الأخص، غير المرتاحين من شيوخ الازيرج قبل مغادرتهم إلى بغداد يتجمهرون أمام المضيف و يرددون الاهازيج و الهوسات قائلين:

«حمّال و لا أنكال».

و فى أحوال كثيرة، يجب أن يلوم الشيوخ أنفسهم لأنهم كانوا متعجرفين بشكل لا يطاق.

و فى سنة ۱۹۵۳ ضرب أحد عبيد الشيخ مجيد الخليفة أخا رئيس العشيرة التى تمتهن تربية الأغنام فى قرية العگار. فهجم الفلاحون الغاضبون على العبد و كادوا أن يفتكوا به لأن (القالط) أى رئيس العشيرة هذا و أسرته كانوا محترمين جدا. فأرسل الشيخ مجيد الخليفة ممثله فجلد عددا من كبار الرجال من الفلاحين. و نتيجة لهذا العمل، غادر معظم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۵

الشفانيا قرية العگار و ذهبوا إلى سيگال. و عندما سمع الشيخ بهذا الخبر صاح بغضب علانية «الكلاب راحوا. راح اشوف غير كلاب و اخليهم فى مكانهم».

و لكن، بحلول شهر تموز سنة ۱۹۵۵ لم يتمكن من الحصول على مبتغاه بسهولة. و عندما سألته عما سيفعله إن غادر نصف هؤلاء الفلاحين.

فكّر مليًا ثم أجاب قائلا كمن آمن بالقضاء و القدر «لا. ما اعتقد راح يرحل بقدر هذا العدد». ثم سألته عما سيفعله إن ترك عدد كبير منهم قراهم فقال بأنه سيتخلى عن زراعة الشلب و يركز عمله على زراعة القمح و الشعير بآلات زراعية.

إن الأرض ما تهمه و ليس عشيرته. و تذكرت حينما كان يتجرع الألم داخل المضيف على نهر الفرات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۶

فى عزاء ابنه و يقول: «أرضى! هسّه، و لما اموت. شراح يجرى لأرضى؟».

فعرفت عند ذاك و أنا أشعر بالأسى و الحزن العميق أنه يضع مصلحة أرضه فوق مصلحة عشيرته.

اختفت العلائق القديمة التى كانت سائدة بين الشيخ و أبناء عشيرته فى عشيرتى البو محمد و الازيرج و لهذا السبب كان كلاهما فقيرتين. أما الرابطة بين العشائر التى تربى الأغنام فلا زالت قائمة.

حثّ الشيخ مزيد آل عيسى عشيرته على زراعة الشعير طوال سنوات فى البر الرئيسى، غير أن الظروف كانت غير ملائمة. فأحيانا كانت المياه كثيرة جدا و أحيانا أخرى شحيحة جدا. و عملهم هذا كان يعتبر مجازفة بالنسبة للعشيرة. غير أنّ الشيخ مزيد أغرق نفسه بالدين للحكومة. و على أية حال، لما رأت العشيرة حالته هذه و أنه فى عسر شديد جمعت له المال من بين أفرادها و دفعت ديونه.

و مثال آخر أذكره هنا عن تصرفات بعض الشيوخ. فمثلا الشيخ محسن بن بدر من البو صالح.

طلب منى صباح أحد الأيام بأن أصطحبه بطرادتى إلى مركز اللواء الذى يبعد مقدار ساعتين و يقع شمال الغراف. و لما نزلنا إلى البر، توجه نحو الدائرة حيث كان المدير يجرى محاكمة لأحد الأشخاص عن إحدى القضايا. و بعد أن حيّا المدير إتجه صوب السجين و قال له بحدّة و عصبية:

«روح و اركب الطرادة برّة» ثم التفت صوب المدير و قال له «لا تشغل نفسك معه. هذا ينتسب إلى عشيرتى. أنا أعالج الموضوع» ثم جلس و بدأ يتحدث بشكل مهذب قبل أن يقول لهم سامحونى على كلامى هذا.

و بحلول سنة ۱۹۵۶ انتهت أعمال الهجرة الجماعية إلى المدن. غير أن الأسر استمرت فى الرحيل إلى بغداد و البصرة على الرغم من أنّ الأخبار التى كانت تردهم غير مشجعة. و لهذا عاد قليل منهم إلى قراهم بعد أن تحرروا من الوهم.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۷

كان ربع الدينار فى ذلك الوقت يعنى أجرا ممتازا، غير أنهم اصطدموا بالواقع لما ذهبوا إلى المدينة و وجدوا هذا المبلغ بالكاد يكفى لمعيشة الرجل و أسرته مهما اقتصد فى عيشه. و فضلا عن ذلك، قد يتوقف العمل فى الأجواء الرديئة لمدة طويلة، فعندها لا يتقاضى أى أجر طوال مدة بقائه عاطلا عن العمل. و أن كل شيء فى المدينة يتطلب المال، حتى الماء و لهذا السبب قال بعضهم:

«بس شنو الغاية من روحتنا للمدن؟ فالرجل اللى يبقى فى بيته فى القرية و يعمل بجد و نشاط فى حقل الشلب الذى يزرعه يمكن أن

يدر عليه حاصلا يكفيه لطعامه و طعام أسرته لمدة سنة من بعد أن يأخذ الشيخ حصته و يبقى عنده فضله (۳۵) دينار». و هذا المبلغ له قيمته. فهو يعادل ما يصرفه يوميا طوال السنة بمعدل مائة فلس أو يعادل أجرة عمل ستة أشهر فقط.

و فى المواسم الضعيفة يمكنه الذهاب للحصاد مع أسرته و يحصل على الحبوب بحيث تمكّنه من بيع كثير من الشلب. و بإمكانه الاحتفاظ بالجواميس ليحصل منها على الحليب و اللبن و يربى الدجاج ليحصل منها على البيض و اللحم. هذا بالإضافة إلى أنه يحصل على الوقود و مواد البناء و علف الحيوان بدون أن ينفق أى شىء. كما أن هناك السمك فى الأنهار و البحيرات و يعثر على الطيور المائية فى الأهوار. و علاوة على ذلك، فإن هناك فرقا قليلا فى هذه القرى بين معيشة الغنى و الفقير.

و الشيخ يعيش بالأسلوب نفسه الذى يعيشه أفراد عشيرته و لكن بشكل أفضل.

أما فى بغداد و البصرة فيكون التباين كبيرا و شاملا. فالأحياء الفقيرة المجاورة للفنادق الغالية و الدور العصرية الحديثة و التى تشيّد على شكل أكواخ و صرائف تضم أنواعا مختلفة من النفايات تكون و الحالة هذه أكثر قذارة من أية قرية من قراهم لأنه لا تتيسر فسحة خالية بالقرب من هذه الأكواخ و الصرائف.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۸

من السهل أن يترك المرء الحياة العشائرية و يسكن فى المدينة. و لكن من المستحيل له تقريبا العودة إلى منطقة سكن عشيرته إذا ما كان عاطلا عن العمل.

كنت فى سنة ۱۹۳۶ فى مراكش. وزرت حيّا كبيرا يقع فى ضواحى الدار البيضاء و المعروف لدى الفرنسيين باسم (بيدونفيلا(Bidonville حيث البربر المعوزون يعيشون فيها فى أكواخ مبنية من تنكات فارغة. و كانوا قد جائوا فى الأصل إلى الدار البيضاء من قراهم الجبلية خلال سنوات الازدهار الاقتصادى من بعد الحرب العالمية الأولى حينما كان الطلب شديدا على الأيدى العاملة- و قد قلّ فى الثلاثينات من سنة ۱۹۳۰ بشكل ملحوظ. و رأيت بأم عينى فى ذلك الوقت الذى زرت فيه هذه المنطقة هؤلاء البربر يكنسون الأرض حول بالوعة بحثا عن فتات الطعام ليأكلوها حتى يبقوا أحياء لأنهم كانوا يموتون جوع بالعشرات.

و فى العراق، ترك الكثيرون من المهاجرين قراهم هربا من ظلم و طغيان الشيوخ و لكنهم جوبهوا باعتداءات الشرطة فى بغداد و البصرة.

و هؤلاء، بعد أن أقاموا صرائفهم من الحصران بين أكواخ الآخرين من أفراد عشيرتهم من غير ترتيب و لا- تنظيم على أرض خالية داخل المدينة يشعرون كأنهم فى بيوتهم أو فى قراهم، و انصرفوا إلى مزاولة أعمالهم.

غير أن الشرطة أخذت تضايقهم و تجبرهم على إخلاء المنطقة حسب الأوامر المعطاة لهم بهذا الخصوص.

«وين لازم نروح؟».

«أى مكان. بس لا تبقون هنا. روحوا إلى قراكم إذا ما تحبون العيش هنا. هيّا. اهدموا ذلك البيت. بسرعة! نحن مشغولين».

و هكذا ينتقلون من مكان إلى آخر و يبنون صرائفهم و ما يكادون يستقرون حتى تأتيهم الشرطة و ترحلهم. أما إذا استقروا فى ضواحى المدينة، فعليهم أن يصرفوا المال الذى يحصلون عليه بصعوبة كأجرة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۱۹

للسيارات لتنقلهم من بيوتهم إلى أماكن عملهم و بالعكس. ثم شعرت السلطات بخطر هذه الهجرة الهائلة فاهتمت بالأمر حتى توقفها أو تحد منها. فشجعت الشرطة على ملاحقتهم و إيذاهم و التحرش بهم.

و على هذا الأساس اعتبرت الشرطة هذا العمل إزاء هؤلاء السكان من الريف عملا- قانونيا مشروعا. «شوّفنى أوراق تسريحك. ما عندك أوراق. لازم تجى ويای لمركز الشرطة».

و فى العراق، من المفروض أن يخدم كل فرد إلزاميا مدة سنتين فى الجيش. و كان عدد قليل جدا من النازحين عن قراهم قد أدى الخدمة الإلزامية. ففى إحدى المرات، بينما كنت أقف مع الشيخ فالح إذ بنقيب فى الجيش يأتى إلى المضيف و معه عريف و جنديان، يحملون معهم أضابير كثيرة. و كان الضابط بدين الجسم و بعمر متوسط. رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس ؛ ص۳۱۹

عر الشيخ فالح يقدوم الضابط و جماعته و طلبوا منه إحضار المكلفين للخدمة العسكرية. كان الوقت فى شهر تموز، و الجو حار جدا. فقدموا إلى النقيب و من معه الشربت ثم الحامض. و كانت بدلة الضابط الرسمية ضيّقة و ملتصقة بجسمه بحيث لا يستطيع الجلوس على الأرض.

لذلك أعدّوا له كرسيا ليجلس عليه و وضعوا أمامه منضدة. ثم جاءوا بالمكلفين للخدمة الإلزامية و عددهم (۱۶) شابا. و جلس آباؤهم

و الزوار حول الجدار. و هؤلاء من مجموع (۳۲) مكلفا.

كان اثنان من المكلفين فى سن الخدمة و أما البقية فهم أحداث دون سن المكلفية.

نظر النقيب فى الأضابير ثم مسح وجهه الذى يتصبب عرقا ثم وضع النظارات، و قرأ الأسماء. «علوان بن شنطة». لم يجب أحد. ثم كرر الاسم مرة أخرى. فردّ عليه أحد الرجال الجالسين حول الجدار قائلا:

«راح إلى البصرة مع عائلته فى السنة الماضية». ثم قلّب القوائم و دوّن ملاحظة. ثم نادى:

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۰

«چليب بن حسن».

«مات فى العام الماضى» جاء الرد سريعا.

«مزيد بن على». تقدّم صبى إلى الأمام و عمره (۱۲) سنة.

«هل أنت مزيد بن على؟».

«لا» أجاب الصبى بسرعة. ثم قال من بعد و كزة على ظهره «نعم».

«هل أنت مزيد بن على؟» كرر النقيب السؤال و هو فى ريبة من ذلك ثم بدأ ينظر فى قائمة الأسماء.

«نعم أنا مزيد بن ..... إبن على» قال الصبى بشىء من التأكيد.

«أنت مسجل بقائمتى بعمر (۱۸) سنة. ارفع قميصك فوق يا ولد».

و بعد أن مسح وجهه بعصبية أكثر، التفت صوب الشيخ فالح و قال له:

«لازم اكو فى خطأ. هذا لا يمكن أن يكون مزيد بن على».

أجاب فالح بلطف قائلا: «هذوله الناس يعيشون بضنك. نمو الأولاد يكون متأخر».

و هكذا، دوّن النقيب ملاحظة أخرى فى القائمة و قال: «قل له بأن يأتى فى العام القادم».

و بعد تناول غداء فاخر. غادر النقيب و من معه و بصحبتهم مجندان اثنان فقط و هما الوحيدان المنتخبان من ذلك الجمع. و هذا يدلّ على أن البقية من مجموع (۳۲) شخصا و المدونة أسماؤهم فى الاضبارة إمّا قد ماتوا أو انتقلوا إلى مكان آخر أو أنهم لا يزالون صغار السن جدا.

كان هذا المشهد جيدا و الشيخ يؤازر الفلاحين. و لكن المسألة تختلف تماما عن هذا المشهد إذا ما طلبت الشرطة من الشخص إبراز هويته أو دفتر خدمته العسكرية فى مركز الشرطة فى بغداد، و غرضهم من ذلك تخويفه و مضايقته. و هى على استعداد لاستخدام العنف ضدهم حتى يبتزوا منهم النقود.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۱

۲۳- البربر و المضايف

غادرنا قرى الازيرج فى الأسبوع الأخير من شهر نيسان و أخذنا نقترب من قرية سيگال، و بإمكاننا أن نرى مضيف عبد اللّه عبر البحيرة.

و كنا قد هيّجنا عددا من البط الرخامى اللون الذى جاء فى الربيع إلى هذا المكان ليضع بيوضه فطارت فجأة فى ذلك الصباح. و قد اندهشت كثيرا من الأعداد الكبيرة من طيور پوشار المائية Bochard لأننى كنت أتوقع أنها غادرت هذا المكان الآن.

أصرّ ياسين على أن نسير بمحاذاة منابت القصب خوفا من حدوث زوبعة مفاجئة كالتى رفعت قبل بضعة أيام الحصران من فوق عدد من الدور فى القرية التى كنا قد مكثنا فيها.

و قبل سنة، و فى هذا الموسم، كما محصورين من جراء الزوبعة فى نفس هذا المكان و بقينا ننتظر أكثر من ساعتين و قد لفّنا ضباب أحمر غريب من نوعه.

و فى أماكن بعيدة من البحيرة كان البربر يصطادون السمك و هم على القوارب. و بإمكاننا سماع ضربات التنك و المرادى فى المياه و هم يسوقون السمك نحو شبكاتهم. و المعدان يحتقرون البربر بشكل فظيع، و لولا ذلك لأكلوا معهم. كما أنهم يحتقرون الصابئة أكثر بكثير من احتقارهم للبربر، لأنهم يعتبرونهم فى الدرجة السفلى من المقياس الاجتماعى، مع العلم أنه

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۲

البربر يصطادون السمك بالشبك بالقرب من أم النبى

لم يذكر لى أى فرد من العشائر من أن البربر هم من أصل مغاير.

و التحامل عليهم إنما هو بسبب مهنتهم. و يبدو لأول و هلة أن هذا التحامل غير منطقى و لا مبرر له طالما هم أنفسهم يصطادون السمك.

فالبربر يصطادون السمك بالشبكة لغرض البيع، بينما يصطاد المعدان السمك بالرماح لغرض الطعام.

صحيح أن المعدان بدأوا فى السنوات الأخيرة ببيع السمك فانحرفوا بعملهم هذا عن عاداتهم السابقة التى تقضى بعدم بيعه لكنهم يبيعون اللبن و الحليب. أما الآن فقد أجبرت الظروف البعض منهم على بيع السمك و الحليب معا. فمثلا تبيع نساء الفريجات البدويات الحليب و اللبن و الزبدة أو القير فى قلعة صالح و المجر حينما تنصب خيامهم بالقرب من هاتين المدينتين.

فالتحامل على البربر فى الأصل كان بسبب بيعهم السمك، لكنه أصبح الآن يتماشى مع أساليبهم فى صيد السمك. و النظر يا سيدى هو «لعنة اللّه على هذا العمل، الرجل الطيب قد يبيع ما عنده من الدارج و لكنه لا يزال لا يرميها إذا ما كانت تحض البيض».

و يتواجد البربر بين عشيرة الفرطوس و الشفابنا أو الفريجات. و لكن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۳

هناك الكثير منهم بين عشيرة البو محمد. و هناك عدد أكبر بين الازيرج. كما يتواجد آخرون منهم بين عشيرة بنى أسد فى الكبيش و هم يصيدون السمك على امتداد الحافة الغربية للأهوار. فينصبون الخيام و يبقون عدة أشهر فوق جزيرة صغيرة بالقرب من قرية جاسم الفارس.

يعرف تاجر السمك باسم (صفّاط). الذى يشترى أسماكه ثم يملحها و ينقلها إلى البصرة. و يستخدم البربر الشبكة السينةSiene net (شبكة ضخمة) غير أننى شاهدتهم أيضا يصطادون بالشبكات الطافية فى الأنهر و على امتداد شبكات ثابتة متصلة بأوتاد من القصب تثبت فى الأراضى المغمورة بمياه الفيضان خارج الأهوار.

و من حين لآخر يستخدم صبيان المجر الكبير الشبكات فيلقونها على سواحل الأنهر بالقرب من المدن. و لم أر مثل هذه الشبكات فى أى مكان آخر إلّا فى البصرة.

و يضع الفلاحون من السويد فى الأهوار الشرقية أحيانا قطعة من الشبكة عبر قنوات سريعة الجريان. فراقبت فى إحدى المرات شخصين منهم يغمرهما الماء إلى الفخذ و معهما شبكة على شكل نقالة و بحجمها.

أما القرويون الذين يعيشون على حافة الأنهر فينصبون فى أغلب الأحيان قطعا صغيرة من الحصران فى المياه تحت بيوتهم، حتى يؤمنوا الوقاية من التيار ثم ينصبون عددا من القصب أو البردى مباشرة مع المجرى. و عندما تأتى السمكة تحرّك القصب و بعملها هذا تكشف نفسها للصياد الذى ينتظر و بيده رمح الصيد.

و فى فصل الربيع، و قبل ارتفاع منسوب المياه، يتجمع المعدان على شكل جماعات، كل جماعة بفاصل مؤلفة من (۴۰- ۵۰) زورقا. ثم يجوبون الهور صعودا و نزولا و هم على خط واحد بفاصل مقداره (۴- ۵) ياردات عن بعضهم البعض، و ترى الرماح بأيديهم و هم على أتم استعداد لصيد السمك حالما يصبح بجانب الزورق.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۴

احدى المضايف بين آل حسن

و فى فصل الصيف يصطاد السمك بالرماح ليلا و بأيديهم المشاعل من القصب. غير أن صيده بطريقة استخدام السم بالداثوره (نوع من النبات له خاصية التخدير) يعطى ناتجا أكثر.

و بينما كنا نجذف باتجاه عبد اللّه، قلت لرفاقى بأننى شاهدت مرة سمكة طولها خمسة أقدام، اصطيدت فى نهر دجلة بالقرب من مدينة كركوك. ثم سألتهم عن مقدار طول سمكة القطان و البنى فى الأهوار.

«نصيدها و هى بطول ذراعى» قال ياسين لا ربما كانت تلك السمكة التى رأيتها من نوع شبوط، فهى تعيش فى المياه الجارية و بعضها بضعف طول السمكة التى ذكرتها، و هناك سمك آخر كبير أيضا نسمّيها نحن جصّان. و هى تشبه سمكة القطان الكبيرة و نجدها تحت الجزر الطافية.

نسبح تحت المياه و نمسكها بأيدينا. نربط أحد ساقى «الرجل بالحبل.

و يمسك طرف الحبل الآخر رجل فى الزورق. و أخطأ فى إحدى المرات أحدهم بالسابح و طعنه فى بطنه ظنا منه إنها سمكة ثم أراد رفع الرمح بدفع

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۵

الجسم إلى خارج الماء. و إذا أردنا إخراج الرمح من جسمه علينا أن نزيل الشوكات من الرمح بقطعها بواسطة الخناجر إلا أن هذه العملية خطيرة جدا و مخيفة لأن المصاب لا يبقى ساكنا طوال هذه العملية».

الشبوط سمك نهرى. و بما أن الجصان يشبه القطان فإنه نوع آخر من السمك النهرى. ثم أبدى ياسين ملاحظة فقال: «انشاء اللّه. هذه راح تشبه مثل سنة أم البنى. هسه الماى قليل أقل مما كان قبل. بيومين صدت كثير و حصلت على أربعة دنانير. و اللّه صعد حظى إذا ما يتدخل الشيخ مجيد».

أيّد حسن أقواله هذه و قال: «نعم. رحت إلى (أم البنى) مع عمى قبل ما سدّ مجيد البحيرة بوجه كل الناس بيومين إلّا بوجه البربر. شفتك صاحب هناك مع الفرطوس» ثم قال لى «كلكم خيّمتم مع البربر. و بهذاك الوقت ما كنت أعرفك. لكن. أعطيت إلى بعض رفاقى أدوية للمعدة».

تذكرت المناسبة جيدا. كان ذلك فى سنة ۱۹۵۱، أى فى سنتى الأولى من زيارة الأهوار.

كنا قد وصلنا إلى قرية الگار أنا و ثلاثة أشخاص من الفرطوس فى الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثانى و وجدنا القرية مهجورة فعلا. كانت المياه واطئة بشكل استثنائى فى تلك السنة، و لكن كانت قد ارتفعت فى الأيام القليلة الأخيرة بسبب سقوط الأمطار فى الشمال فهددت باكتساح حقول الشلب التى كانت محصودة. و كان معظم القرويين بعيدين عن القرية، خرجوا لإنقاذ محاصيلهم و بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل ذلك. أما الرجال الآخرون و الصبيان فقد ذهبوا لصيد السمك بالرماح فى (أم البنى) حيث كان الصيد بشكل استثنائى فذهبنا نحن أيضا إلى محل تواجدهم.

لقد أحدث مرور عدد كبير من القوارب و الزوارق أثرا واسعا من خلال قلب منابت القصب، و كانت بعض سيقان القصب الساقطة على الطين و المداسة بسمك رسغ يدى. و كانت المياه ضحلة، و كنا أحيانا نلاقى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۶

صعوبة فى تسيير الزورق. و قد صادفنا قاربين بطريق الصدفة محملين بسمك كثير. و كان النوتية البالغ عددهم ستة يسحبون القارب بمشقة على امتداد الساحل. و سمعت من بعد ذلك، أن التجار كانوا يعطون دينارا واحدا يوميا لكل فرد من نوتية القارب بسبب عملهم الشاق و الصعب.

احدى المضايف بين آل جبير

و بعد أن غادرنا قرية الگار بثلاث ساعات، وصلنا إلى فسحة صغيرة خالية، نصب فيها التجار خيامهم تحت سقيفة من الحصران. و يدعى التاجر باسم الملأجبر و معه شخصان آخران يشترون السمك لإرساله إلى أسواق بغداد. و كانوا قد أمضوا فى هذا المكان ستة أيام و طلبوا منا أن نمضى الليل معهم لأنه لا يمكننا الوصول إلى (أم البنى) قبل حلول الظلام. و كان يدفع ثلاثة دنانير عن كل مائة سمكة بصرف النظر عن حجمها. و كان يشتريها بالألوف. أما الآن فقد انخفض العدد كثيرا.

و بعد أن جمعوا كميات كبيرة بدأوا بوضع الثلج فوقها حتى يرسلوها إلى بغداد. نمنا بجانب سقيفة فوق كومة من القصب أبقتنا بعيدين عن

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۷

الماء. و كان البعوض شيئا مؤذيا لا يمكن احتماله. أما الجو فكان باردا لذلك أحطت جسمى بالبطانية. و نصبت الجماعات الأخرى التى كانت متوجهة إلى (أم البنى) خيامها بجوارنا ثم جلست حول النار و بدأت بالغناء حتى ساعة متأخرة من الليل. و شاهدت مرور ثلاثة أبلام فى جوف الظلام و أخذ التاجر يتفحص حمولتها بواسطة مشعل من القصب.

و فى الصباح واصلنا سيرنا إلى (أم البنى) فأمضينا ثلاث ساعات حتى وصلناها. و أم البنى عبارة عن بحيرة بطول ميلين و بعرض نصف ميل، محاطة بمنابت القصب، يصعب اجتيازها. و لا أظن أنّ أحدا قد زارها.

وجدنا البربر قد نصبوا خيامهم فوق أرصفة من القصب المتساقط فوق فتحة الأثر، و نشروا شبكاتهم الاحتياطية تحت أشعة الشمس لكى تجف تحت حراسة صبى و صبيين. كان معهم (۱۵) قاربا، خرجوا جميعا إلى الصيد فى البحيرة. أما نحن فجذفنا زورقنا بجانبهم حتى نراقبهم عن كثب و نتفرج على أعمالهم.

رأيت الجذافين يدخلون إلى الماء و يخرجون منه فى كل الأوقات و هم عراة فى معظم حالات عملهم. و بعد أن استعملوا الشبكات السينة و شكّلوا محيطا بمقدار (۴۰) ياردا تقريبا، بدأوا يسوقون عددا كبيرا من الأسماك أمامهم، كلها من النوع البنى، معدل وزن الواحدة أربعة أرطال.

قال لنا أحد الرجال المسنين، و قد وخط الشيب رأسه، بأن قاربه كان أول قارب يصل إلى البحيرة «كل حياتى و أنا أصطاد السمك.

بس ما شفت بحياتي مثل هل شيء. أول سوقنا شفنا أمامنا مقدار (۹۰۰) سمكة تقريبا. صحيح ما كنت أظن أن القارب يسع كل هذا العدد. و هسه السمك قليل». كان عدد القوارب ما يقرب من (۲۰۰) قارب، تعود إلى الفرطوس و الشفانيا و الفريجات و البو محمد. كلهم منهمكون في البحث عن السمك حول حافات البحيرة. و كان في كل قارب شخصان، أحدهما يجذف

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۸

و الآخر يقف في مقدمة القارب يغرز رمحه باستمرار في الأعشاب.

يعتبر المعدان أنفسهم محظوظين عادة إذا صادوا (۱۲) سمكة في اليوم بأسلوبهم الاعتيادي. أما إذا استعملوا طريقة التسميم فالعدد يكون أكثر بطبيعة الحال.

و هنا على أية حال، كانوا يصيدون سمكة واحدة بعد كل (۳- ۴) و خزات بالرمح. كان معظم هذه الأسماك من نوع القطان.

التحقنا بجماعة من أبناء الفرطوس، كانوا إذا ما هيجتهم يندفعون بتهور فيغطسون رماحهم في الماء ثم يرفعونها و فيها سمكة فيقذفونها داخل القارب و هم يصيحون بأعلى صوتهم «السمك بكثرة متراص واحد فوق الآخر. ما نخطيء في و خزات الرمح».

احدى المضايف على نهر الفرات خلال التشييد

كان السمك قد تجمّع في بقعة واحدة لفترة من الزمن. الصائدون متقاربون بحيث يرى كل واحد منهم مقدار ما يصيده رفيقه. فتبدأ عند ذاك المنافسة. فترى المجذّف يحثّ حامل الرمح على الإسراع في الصيد.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۲۹

و اقترب في هذه الأثناء بعض البربر منهم. فترك الصيادون من الفرطوس حافة البحيرة و اندفعوا نحوهم و هم يصرخون في وجوههم و يسيّرون زوارقهم فوق شبكاتهم السيئة و يطعنون السمك من داخل الشبكة. أما البربر فإنهم استاءوا من هذا العمل و احتجوا. لكن، لم يعبأ بهم رجال العشائر فبدأوا يسخرون منهم و يضحكون عليهم.

لا بدّ أن البعض منهم اشتكى لدى الشيخ مجيد الخليفة لأنه سدّ البحيرة بعد يومين من هذا الحادث بوجه المعدان و سمح للبربر فقط بالصيد.

و من سيگال واصلنا سيرنا بالطرادة متجهين صوب قرية العويدية، و مكثنا بضعة أيام بضيافة جاسم الفارس.

تكون الأراضي الواقعة بين حافة الهور الغربية و نهر الفرات مغمورة بمياه الفيضان إلى عمق أربعة أقدام على الأقل. غير أنه، في سنة ۱۹۵۵، و بسبب الجفاف، وجب علينا أن نذهب إلى الجنوب حتى نصل نهر الفرات تقريبا لكي نجد مياها كافية لتعوم فيها الطرادة خارج الأهوار.

مكثنا في حمّار، في قرية تسمى (البوشامه)، تقع بين أشجار النخيل الباسقة في الغرّاف الأسفل. و تعيش أفخاذ أخرى من نفس العشيرة في الأهوار كمعدان رحّل و مررنا بمجموعة منهم و هم يهاجرون إلى الأراضي المزروعة بالقمح حتى ترعى جواميسهم بقايا سيقان القمح.

و في الغراف مكثنا أيضا مع العميرة. كان قسم منهم يسكن في قرية (مبرد) و في قرى المعدان الأخرى و يحصلون على المال من بيع حمولات قواربهم من القصب اليابس في مدينة سوق الشيوخ. و يفعل الفرطوس الذين يجاورونهم نفس الشيء و يذهبون أكثر المرات إلى سوق الشيوخ مع أحمالهم من الحصران.

و في شهر مايس، صادفنا جوا مشمسا، تبعث الشمس بأشعتها

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۰

البراقة، غير أنّ الجو كان في بعض الأحيان متلبدا بالغيوم و يدوم عدة أيام.

مدخل احدى المضايف على نهر الفرات من الخارج

كما صادفنا في طريقنا عدة مرات سقوط مطر شديد مصحوب برعد و برق.

و بشكل عام، تهب الرياح العاتية من الشمال و الغرب، تحمل معها الغبار، فيصبح الجو مكفهرا لكنه بارد و مريح. لأنه، بدون هذه الرياح، يكون النهار حارا رطبا جدا.

أمضينا الشهر بين آل جويبر و آل حسن و بقية عشائر المنتفك الأخرى، متنقلين على امتداد نهر الفرات.

كنا نقوم دوما بنزهات مع مجرى القنوات المشجرة بأشجار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۱

الصفصاف. و كثيرا ما كنا نصل إلى حافات الأهوار لنبقى في المضايف التي توجه الدعوة إلينا. و كنا في كل هذه الأوقات في أراضي

مزروعة بالنخيل تنمو على شكل صفوف مكتظة فوق كل أرض لا تغمرها مياه الفيضان سنويا و حتى فى الجزر الصغيرة بين منابت البردى. كما كانت أشجار النخيل تغطى أيضا خط الجزر إلى الجنوب بحيث تظهر معتمة إزاء مياه الهور البراقة، مثل هور السنّاف.

و العلامات الوحيدة للكارثة التى حلّت بهذه العشائر فى السنة الماضية ما تركته مياه الفيضان من آثار واضحة يمكن رؤيتها بجلاء على جذوع النخيل و على جدران المضايف.

و على نهر دجلة، كانت بساتين النخيل القليلة العدد، متشابكة مع الأحراش، و كنا نضطر أن نوسع طريقنا من خلالها و ذلك عندما كنا نصطاد ذكور الخنازير. و لكن هنا فى هذا المكان كانوا يعتنون بالأشجار و يقطعون الأغصان الواطئة حتى يتمكنوا من حراثة الأرض.

زرنا الجزر الواقعة على امتداد حافة هور الحمّار إلى الشمال و هى منفصلة عن الأهوار بواسطة مياه مكشوفة ثم تغطى أوراق نباتات الزنبق المائية و عدد لا يحصى من أنواع الازهار ذات اللون الأصفر البراق و الأزهار البيضاء سطح هذه المياه فى نهاية الموسم.

و فى شهر أيلول، كنت قد شاهدت الجواميس ترعى و قد غطست فى المياه إلى حد بطنها بين هذه النباتات المائية و مدّت رؤوسها تحت المياه تقتلع أغصانها المتدلية. و بدت هذه الجواميس للناظر من مسافة بعيدة كأنها قطيع من الغنم تقتات فى مروج مليئة بالأزهار المختلفة الألوان. و فى الخريف، هنالك فى الأهوار أنواع أخرى من الزنابق المائية بعضها بيضاء و بعضها الآخر خبازية اللون.

لا تسكن عشائر المنتفك فى القرى بل فى الأراضى الخاصة بها على

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۲

موقد القهوة

شكل متباعد. هى حسب التقاليد العربية كريمة جدا، لذلك تجد أعدادا كبيرة من المضايف تضاهى فى عددها عدد الدور المستخدمة للسكن و هى قائمة بين أشجار النخيل. و بين الكثير من السكان حصونا لهم من الطين بجانب دورهم و هى عبارة عن كوّة صغيرة الحجم. و السبب هو أنهم مولعون جدا بالحرب و لا ينسون عداوة الدم. لذلك، يحمل كل واحد منهم، سواء كان كبيرا أم صغيرا خنجرا و يملك معظمهم البنادق مع عتاد كثير. و هم يطلقون النار بكثرة حتى الفجر تقريبا فى حفلات الأعراس، و ما أكثرها فى تلك الأيام. إذ لا تمضى ليلة إلّا و تكون فيها حفلة عرس.

كنا فى بعض الأحيان نضع حاجياتنا فى الصريفة قبل أن يرشدونا إلى المضيف. و الصريفة عبارة عن بناء صغير مثلث الشكل، جدرانها من الأوتاد، كأنها عريش، و سقفها المنحدر يغطى بالحصران و يستند على دعامتين من القصب. تكون الأعمدة المستعملة فى الأطراف- بين إهالى المنتفك- من جذوع النخيل الصغيرة عادة. و لكن فى الأهوار فإنها من حزم القصب حيث يفضّل التجار هذا النوع من البناء ليستخدموه كمخازن.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۳

أما المدخل فيكون من جانب البناء. و كنت أشعر دوما بفرح و سرور حينما ألجأ إلى الصرائف لأستريح لفترة من الزمن هربا من طريقة الحياة الشائعة فى المضيف.

بعد سنوات كثيرة من العيش مع العرب وجدت أن عدم الانفراد و للعزلة شىء يدخل السأم فى النفوس، و كنت كثيرا ما أشعر بالتعب المضنى من بعد معالجة عدد كبير من المرضى منذ الصباح و خاصة حينما يبدأ الجو يزداد حماوة، فأجد متعة و راحة حينما ألقى بنفسى فى الصريفة.

و حينما يشعر رفاقى بالتعب يتوجهون إلى المضيف. فكانوا ينهضون من أماكنهم حالما يشربون العدد المألوف من فناجين القهوة و يذهبون إلى الطرف الآخر من المضيف فيلفون أنفسهم بالعباءة و ينامون. و عندما يجلبون الطعام، يوقظون هؤلاء النيام حتى يأكلوا.

كانت الحياة على هذا النمط. و كنت أشعر بالضجر حينما أقوم بما يقومون به. و من أمنياتى الكبيرة أن أجد نفسى فى مكان منعزل. لذلك كنت ألجأ إلى الصريفة و يتبعنى أحيانا رفاقى و شخصان أو ثلاثة آخرين و ننزوى فى إحدى أركانها. أما أنا فأقرأ كتابا أو تأخذنى سنة من النوم.

و المضايف على نهر دجلة، تكون مبنية حسب العرف إمّا بتسعة أقواس أو أحد عشر قوسا. أما المضايف على نهر الفرات فلها أكثر من هذا العدد من الأقواس.

و أكبر المضايف التى رأيتها كان بطول (۸۴) قدما و بعرض (۱۵) و ارتفاع (۱۵) قدما على الرغم من أنه مقام على خمسة عشر قوسا. و أكثر المضايف فيها (۱۷) قوسا. و رأيت أحد المضايف يتألف من (۱۹) قوسا، و كان طوله (۶۹) قدما و عرضه (۱۵) قدما و ارتفاعه (۱۲) قدما. و تكون عرض المضايف الكائنة على نهر دجلة عادة بعرض (۱۸) قدما و بارتفاع (۱۸) قدما. بينما يكون عرض المضايف الكائنة على نهر الفرات (۱۵)

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۴

قدما و ارتفاع (۱۵) قدما و هو القياس المعتاد. و إذا ظهر أن المضيف آخذ فى السقوط، يقوم صاحبه و رفاقه بتقليل الارتفاع بالأسلوب التالى:

يحفرون أولا حفرة خارج قمة قاعدة أحد الأقواس حتى ينكشف مقدار قدمين من حزمة القصب من القاعدة المطمورة فى الأرض. ثم يشدون القاعدة بالحبال و يسحبونها إلى هذه الحفرة. ثم ينظفون الحفرة و يقطعون مقدار قدمين من أسفل الحزمة ثم يعيدونها إلى مكانها و يملؤون الحفرة بالتراب المستخرج. و تتكرر هذه العملية مع كل قوس آخر من أقواس المضيف. و يبدأون العمل فى جانب واحد ثم ينتقلون إلى الجانب الآخر.

أما إذا أراد تقليل الارتفاع مرة أخرى بعد سنوات فإنه يتّبع الأسلوب نفسه. و لكن الساكنين على نهر دجلة لا يعرفون هذه الطريقة و السبب هو أنهم يحصلون على القصب اللازم بسهولة و هم يفضلون دوما بناء مضيف جديد.

و يحتاج المضيف عادة إلى إعادة البناء كل عشر سنوات. و تتوقف هذه المدة على حالة الأرض. و المضيف قد يدوم مدة خمس عشرة سنة فى الظروف الصالحة و المؤاتية.

بيت من عشائر المنتفك

و لبناء مضيف كبير يتطلب استخدام (۱۰۰) شخص لمدة (۲۰) يوما.

و يتقاضى (الاوسطة) فقط أجورا عن عمله. أما العمال فإنهم يتوقعون وجبة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۵

سخية من الطعام عند الظهيرة. لذلك يذبح المضيّف يوميا ذبيحة حتى يؤمن لهم اللحم. و يشكل مركز كل حزمة القوس الذى يتألف من القصب المستخدم من السابق و الذى يجعل الحزمة لينة أكثر. ثم تجرى تغطية الوجه بمجموعة من القصب الرفيع حتى يصبح ملمسه ناعما.

المدخل من الداخل و فى أراضى المنتفك، يكون ارتفاع القصب المتيسر أقل من الارتفاع الكامل للأقواس بكثير.

و لذلك يجرى تطويلها بشكل مستقيم بدلا من جعله على شكل نعال الخيل. كما لا تكون عرضة إلى نفس التوتر كما يستخدمه البو محمد الذين يستخدمون قصبا بطول واحد.

و من عاداتهم أن يلطخوا كل قوس من بعد الأنتهاء من بناء المضيف بكف محنّاة. و فى أكثر الأوقات يجددون طبعة الكف عند مرور الذكرى السنوية لبناء المضيف. و هم يزينون فى كل رأس سنة أو فى عيد النوروز الأقواس بباقات من القصب الأخضر.

و بشكل عام، يختلف مظهر المضيف الخارجى بين عشيرة البو محمد و الازيرج و العشائر الأخرى القاطنة على نهر دجلة. فالسقوف، كما هى الحالة فى كل المضايف مصنوعة من حصران طويلة متشابكة النسج. و فى أحد المضايف رأيت الحصير التحتانى مؤلفا من قطعة كبيرة واحدة بحيث يغطى السقف كله، أما الجدران السفلى فإنها تتألف من حجرة واحدة بحيث تتدلى إلى الأرض كأنها أجنحة وراء الأقواس. و يمكن لفّها فى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۶

الأجواء الحارة و خفضها فى الأجواء الباردة.

أما الطرف الجنوبى الغربى، المواجه لمكة المكرمة، فإنه يحتوى على ثلاثة مداخل بن الدعامتين الضخمتين مع وجود نوافذ فى الحصران الفوقانية. أما الجدار الشمالى الشرقى فإنه خال من كل شىء.

و تصميم المضايف و أشكالها جيدة الاتقان كثيرة التنوع بين العشائر القاطنة على نهر الفرات. فيتألف الجدار التحتانى بأسره من القصب المنسوج على شكل مشبك، يتصل بالخارج من الأقواس و يربط بشريط من الحصير إلى السقف. و يوجد أمام المشبك هذا فى الداخل حاجز واق بارتفاع لا يقل عن قدم واحد حتى يتكىء عليه الجالس.

احدى المضايف على نهر الفرات.

و فى وسط الطرف الجنوب الغربى، تجد مدخلا ذا قوس مدبب، تحيطه نوافذ مشبكة. و يكون شكل الطرف الشمال الشرقى و تصميمه على نفس الشاكلة و لكن من غير مدخل.

و يكون ترتيب النوافذ المشبكة و نموذجها على أشكال مختلفة وفق

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۷

رغبة و هوى البنّاء فى كل بناء. و فوق المدخل، تجد عادة مشبكا من نفس الحجم و الشكل كما هو موجود على المدخل الرئيس. و

بجانبه نافذتان صغيرتان بتشبيك على شكل عقد.

و شاهدت فى أحد المضايف نافذة واحدة مدورة الشكل كائنة فى النصف العلوى من الجدار. و فى هذه الحالة، يجرى تقسيم النصف التحتانى للحائط أفقيا إلى ثلاثة أقسام متشابكة مع وجود فراغ فى الحصران بين المشبكات العلوية و التحتانية. و يجرى تقسيم بناء المضيف عموديا بواسطة عمودين وسطيين.

و كلما جلست فى مضيف من المضايف الواقعة على نهر الفرات أشعر دوما كأننى داخل كاتيدرائية رومانتشيكية أو كاتيدرائية قوطية، و هو تصوّر زاده السقف المضلع و النوافذ المزخرفة الكائنة فى كلتا النهايتين جمالا. و الغرض من النوافذ دخول حزم من الضياء الساطع حتى تبدد العتمة الكائنة فى الداخل.

و يمثل المضيف فى منطقة نهرى دجلة و الفرات معا إنجازا معماريا رائعا مع أبسط ما يمكن من المواد. إن أسلوب البناء يعطى انطباعا جيدا للزخرفة فى القصب، و تأثيرا فى نفوس الناظرين. و هذا الأسلوب من البناء مهم أيضا من الناحية التأريخية. و هذه البيوت التى تشبه فى بنائها البيوت المبنية منذ عهد بعيد، تعطى للمرء فكرة بأن الناس يقلدون فى بنائهم تلك الأبنية المشيّدة من اللبن على شكل أقواس. مثلهم فى ذلك مثل اليونانيين الذين خلّفوا أعمالا فنية خشبية من الحجر.

إن الأبنية التى تشبه فى شكلها هذه المضايف هى جزء من المنظر الذى نلاحظه فى القسم الجنوبى من العراق طوال خمسة آلاف سنة أو أكثر. و سوف يختفى هذا النمط من البناء بعد عشرين سنة على أكثر احتمال، لكنها تختفى بالتأكيد إلى الأبد بعد خمسين سنة.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۳۹

۲۴- عداوة دم عمارة

أقضّى كل سنة شهر حزيران و معظم أيام شهر تموز فى كثير من الأحيان بين العشائر القاطنة على امتداد نهر دجلة فى شمال العمارة. و سلكت النهر مرتين تقريبا صعودا إلى حد مدينة الكوت.

كان يرافقنى كل من سبيتى و عمارة فى كل مرّة إلّا فى سنة ۱۹۵۴ حين جبت هذه الأرض من سيگال على ظهر طرادتى و اجتزت الصحراء المغمورة بمياه الفيضان.

كنا فى السابق ننتقل على ظهور الخيل فى هذه الأراضى و كان مضيّفنا يعيرنا الخيول إلى القرية الأخرى أو إلى المخيم الآخر.

لم يكن أحد رفاقى قد ركب الخيل من قبل، و عندما فعلوا ذلك لأول مرة، سارت خيولهم بعكس الاتجاه. غير أنهم أصبحوا يجيدون ركوبها بشكل معقول فيما بعد. و لما كنت لا أجيد الجذف فى الزورق، سرنى أن أكون قادرا على إظهار براعتى فى ركوب الخيل، و لو أننا كنا فى أغلب الأحيان نسير على الأقدام لأننا كنا نضع أحمالنا على ظهور الخيل.

و فى فصل الصيف، لا يمكن تحمّل الحر عند منتصف النهار، غير أننى وجدت الجو فى شهر حزيران لا يزال باردا فى الليل و مع ذلك كنت أحمل معى بطانيتين.

هبّت رياح شمالية غربية عالية طوال الشهر بأسره فسببت حدوث

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۰

زوابع ترابية بحيث تجعل مدى الرؤية قليلا جدا لا يتجاوز الياردين. أما فى شهر تموز فقد هدأت الرياح، إلا أنه لا يمكن التخلص من الرطوبة أثناء الليل مع وجود الحرارة بحيث قد تصل إلى (۱۲۶) فهر نهايت فى الظل.

و من رفاقى المنتظمين الأربعة كنت أفضل عمارة و سبيتى. و كنا نحن الثلاثة أقرب ما يكون من بعضنا فى هذه الحملات الاستكشافية بصرف النظر عن رفاقهم الآخرين من أبناء العشائر و عن المجالس المألوفة للأهوار.

و بحلول سنة ۱۹۵۶ وجدت نفسى أهتم كثيرا بشؤونهم شيئا فشيئا.

كان ياسين و حسن قد تزوجا قبل سنة. أما عمارة و سبيتى فكانا مخطوبين، و علمت أنهما سيتزوجان بعد مغادرتى العراق لأنهما لا يرغبان بمفارقتى و أنا موجود فى هذه المنطقة.

أما أنا فلم أعزم على المجيء إلى العراق فى السنة التالية لأننى كنت قد اتفقت مع أحد الناشرين حول تأليف كتاب عن جنوب الجزيرة العربية.

كان عمارة قد خطب أخت سبيتى بعدما ذهبت أنا و صحين نيابة عن عمارة إلى بيت لازم، والد سبيتى لهذا الغرض قبل خمسة أشهر. و كان علينا أيضا أن نلتقى مع أخى لازم لأن لابنه الأسبقية فى طلب يد البنت وفقا لعاداتهم و تقاليدهم.

و من حسن الحظ، لم يخيّب لازم رجاءنا إذ وافق على طلبنا بعد نقاش طويل حددنا فيه مقدار المهر ب (۷۵) دينارا عراقيا. و بعملنا

هـذا أدخلنـا السـرور و البهجـة فى نفسـى عمارة و سبيتى و احتفلنا فى ذلك المساء فى قريـة بومفيفات بهـذه المناسـبة و أمضـينا الليل بالرقص و الغناء و إطلاق النار.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۱

و فى تلـك السـنة، كمـا هى الحـال فى السـنوات الأـخرى، لم يكن لنا هـدف من رحلاتنا الاسـتكشافية. و كنا نعلم أنّ الناس جميعهم يرحبون بنا أينما نحط رحالنا فى القرى الصغيرة التى تقع أمامنا ما دمنا نتجه فى سيرنا نحو الشمال.

كنـا نتوقف عن المسـير أينمـا نرغب و نعود أدراجنا حينما نشـتاق للعودة. و كنا فى ضـيافة عشـيرة البودراح لفترة من الزمن، و هى من العشائر المقبولة، تزرع الشلب على امتداد جداول المياه التى تتبدد فى الأهوار المعزولة.

و من هذه العشـيرة اسـتعرنا الزوارق لنزور عشـيرة القلّابة و العگيل البدوية التى ترعى جواميسها بين نباتات القصب القصيرة الارتفاع أو بين قطع من الأرض المليئة بالأشواك. ركبنا زوارقنا مرة ثانية و عبرنا حقول الشـلب العائدة لعشيرة البو على، و هى فخذ من عشيرة البو محمد، تتبع الحاج سليمان فى الشمال و ذلك بعد المعركة التى دارت مع الشيخ مجيد الخليفة. و أخيرا وصلنا إلى عشيرة بنى لام.

ترى النهر الخابط يجرى من خلال أرض ترابية، و رأينا الشـمس تشرق من أرض منبسطة و تبعث بأشعتها البرتقالية ثم تغيب فى أرض منبسطة فى الأفق أمامنا عبر سهول خالية.

كان بوسـعى أن أرى وقت الفجر فى بعض الأحيان وسط رعاة الغنم فى خيم سوداء صـغيرة حيث تدوسنا المواشى و يحوم الذب فوق رؤوسنا من الفجر إلى غسق الليل.

كنت أشـعر بلـذة حينما أجـد نفسـى دوما بين هؤلاء البدو، حينما يعزف هؤلاء الرعاة بمزاميرهم فى الأمسـيات و هم جلوس حول النار المتأججة، فتفتننى هذه الجلسات الرائعة بسحرها و تبعث فى نفسى النشوة.

و فى أوقات أخرى، كنا نصل إلى بعض القرى الواقعة على امتداد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۲

ساحل النهر و نحل سروج خيولنا و نلقى الترحاب الحسن و الضيافة الفاخرة لدى هؤلاء الشيوخ الصغار.

كـان رفـاقى متجانسـين فى السـلوك. و كنـا حينما نخرج من الأكواخ الطينيـة وقت الظهيرة نشـعر بالرياح الحارة جـدا تلفـح وجوهنا و أجسادنا على عكس ما نجده من برودة داخل الأكواخ، لأن نوافذها كانت مغطاة بالعاقول و تبقى مبللة بالماء.

و فى هـذه الأرض القفراء، كنت أشـعر بنفس الأحاسـيس من الحريـة التى يتمتع بها هؤلاء القوم و هم يعيشون عيشـة الكفاف فى هذه الصحراء الفسيحة الأرجاء و الخالية التى لا حدّ لها و لا نهاية.

كنت أعالج بأعداد كبيرة و أجد متعة لا حدّ لها فى عملى هذا، و كنت أشعر دوما كأننى أقوم بإنجاز عظيم آخر.

أحببت عشـيرة بنى لاـم كثيرا، فأصـبح الكثيرون منهم أصـدقائى أثر زيـاراتى السابقـة. كنا نرى فى كثير من الأحيان الـذئاب. و قال لى رجل عجوز بأنه قتل ضبعا فى يوم من الأيام و هو يطاردها على ظهر الحصان.

و يجب أن يكون عند المرء حصان جيد حتى يلحق بالضبع كما عرفت ذلك قبل عشرين سنة حينما كنت فى السودان.

و أخبرنى رجل آخر كيف حفر هو و أصدقاؤه حفرة و أخرجوا منها الغرير، و كيف هاجمهم و عضّ شخصـين منهم و كانوا يضربونها ضربات لا تؤثر فيه فأدركوا عنـد ذاك أنه من الصـعب التخلص من هـذا المأزق حتى وصل أحد الأشـخاص و أطلق النار عليها فأصابه فى فمه فسقطت على الأرض قتيلة.

كنا نرى أحيانا قططا بريـة. و رأيت إحـداها بلون بنى، تختلف تماما عن القطط الأخرى. إلا أنه لا أثر للغزلان فى هـذه المنطقة بل إنما تتواجد بكثرة على الحدود الإيرانية و هى آخذة بالانقراض هناك أيضا مع الأسف

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۳

لأـن الصـيادين يطاردونهـا بالسـيارات، علمـا بـأن هـذا النوع من الصـيد محرم قانونـا. و لكن الموظفين الحكوميين يتغاضون عن تطبيق القانون و بعملهم هذا اعتبرهم مجرمين.

شاهدت مرة، عندما كنت أهبط من قمم جبال كردستان و أنا على ظهر الخيل قطعانا من الغزلان، كل قطيع يضم (۵۰) غزالا أو أكثر. و هنا أيضا فى العراق يقضون على الغزلان كما قضوا بالأمس على الأسود.

أما نحن فكنا نصـطاد الخنازير فقط و هى تتواجد بكثرة بين أحراش أشجار الطرفاء النامية على امتداد مجرى الأنهر، فضلا عن وجودها بين الأدغال التى يبلغ علوها ثلاثـة أقـدام و التى تغطى الأرض الكائنـة بجانب نهر دجلة. و هذا المكان هو أحسن مكان لصـيد الخنزير بالرمـاح. أما أنا فقط أصـطادها بالبندقيـة لأننى ما كنت أملك الرمـح. فكنت أطلق النار عليها بالمسـدس بيـد واحـدة و الشـكيمة باليد

الأخرى. و كنت أجد متعة عند السير خببا و أنا على ظهر الحصان. و كنت أشعر بالاشمئزاز حينما نصطاد بطريقة أخرى سيرا على الأقدام و نضطر إلى ذبح الخنزير. كنت أفسح فى المجال إلى عمارة ليطلق النار على الخنزير. و كان راميا ماهرا لا يخطىء هدفه إلّا فيما ندر. و اكتسب شهرة من جراء إصاباته الدقيقة هذه و وضعته فى مركز يستفاد منه عند الحاجة.

و عندما رجعنا إلى المجر فى نهاية شهر حزيران، جاءتنا الأخبار بأنّ بادى ابن عم عمارة قد قتل أحد أولاد رضوى.

و القتيل هو أخو حسن ابن رضوى الآخر الذى أراد أن يتزوج زوجة بادى و حاول جاهدا منع إتمام عملية الزواج.

تذكرت اليوم الذى أمضينا فيه مع بادى فى العويسج قبل ثلاث سنوات. و كيف أن عمارة ذهب فى ذلك الوقت ليلتقى مع رضوى حتى يجد طريقة يسوّى فيها هذه المشكلة. أما الآن فقد سفكت الدماء. و كان

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۴

عمارة قد قصّ على، فى وقت من الأوقات فى أوائل السنة، بأن زوجة بادى قد هجرته و ذهبت إلى بيت أبيها. و هنا فى هذه المنطقة، بإمكان الرجل أن يطلق زوجته بمجرد أن يقول لها «أنت طالق». فإذا طلق الرجل زوجته بهذه الطريقة، لا يحق له أن يسترد المهر المدفوع.

أما الزوجة فليس لها الحق بأن تطلق زوجها بل إنما بإمكانها أن تهرب إلى بيت أبيها و تلتمس الملاذ أو تهرب إلى بيت أخيها و تطلب منه حمايتها. و إذا أصرّت الزوجة على البقاء و عاندت بأن لا تعود إلى بيت زوجها، يلحّون، عند ذاك، على الزوج بأن يطلق زوجته بعد أن يعرضوا عليه بأنهم سوف يدفعون له جزءا من المهر أو كله.

أما فى قضية بادى مع زوجته فإنه رفض أن يطلق زوجته حتى لا يتسنى لها أن تتزوج حسنا و لأنه المسبب لكل هذه المشاكل. ثم عرفت من بعد ذلك بقية القصة.

أقام بادى بيته على قناة بالقرب من نهر الوادية مبتعدا عنهم حتى لا تحدث له المشاكل. إلّا أن حسن اصطحب معه أخاه الأصغر خلف مع أحد أولاد أخيه و قصدوا بادى ليقتلوه فيخلو الجو له ليتزوج الفتاة التى هو فى غرام معها. كان بادى كما قلت يسكن بالقرب من قلعة صالح فى صريفة على شكل سقيفة من الحصران و تتباعد هذه الصرائف الواحدة عن الأخرى.

و هنا لعب الحظ دوره، إذ كان بادى فى ذلك الوقت، خارج المنطقة يبحث عن جاموسة مسروقة. فمكث هؤلاء القادمون لقتله مختفين ينتظرون عودته.

عاد بادى فى اليوم الثالث من غيبته، فتقدم هؤلاء الثلاثة فى آخر الليل إلى بيته. غير أنهم شوهدوا فصاح عليهم أحد الجيران قائلا «ليش تجون كل يوم بالليل و تدورون على بادى؟ هو ما قتل واحد من أهلكم» ثم

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۵

أطلق النار فوق رؤوسهم فولوا هاربين.

غير أن كلب بادى خرج من الدار و طاردهم و خرج بادى يتعقب أثرهم، و كان نباح الكلب يرشده إليهم.

شاهدهم حينما وقفوا حتى يشعلوا سيكارة. و سمع صوت حسن و هو يقول: «خلى نرمى كلبه» و عندها أطلق بادى النار و أخطأ فى رميه، فتفرق الثلاثة و هم يهربون. فأطلق بادى إطلاقة أخرى سقط على أثرها أحدهم على الأرض. و لما اقترب من هذا الشخص تعرّف إليه و كان خلفا أخا حسن، فوجده قد جرح فى فخذه و تمزق العظم و قال له بادى: «أنت تريد دم؟ هاك الدم!» فأطلق النار عليه مصوبا على رأسه فأرداه قتيلا.

و بعد فترة، التقى حسن بابن أخيه من بعد تفرقهم أثناء الهرب و انتظرا حتى يحضر خلف. لكنه لم يحضر فعادا أدراجهما يبحثان عنه، ثم عثرا عليه فوجداه قتيلا. فاهتاجا و قررا الانتقام بسرعة.

أسرعا نحو بيت بادى، و وقفا على ساحل القناة قبالة البيت و نادى حسن متحديا باديا بأن يخرج إليهما. فأخذ بادى بندقيته فى الحال و خرج بحذر مختفيا فى ظلام الليل الدامس. و ما أراد أى منهم أن يجعل نفسه فريسة أمام الآخر إذا ما إراد التقدم نحوه و هو يخوض الماء. لذلك، بدأوا يتراشقون برمى الإطلاقات مصوبين على مكان و ميض الإطلاقة.

و قبل حلول الفجر، تمكن الفريجات المجاورين لبادى من إقناع حسن بأن يعود أدراجه قائلين بأن الشيخ سوف يوقف بادى إن كان لا يزال فى البيت. ثم تأتى الشرطة و تحبسه كما تحبس باديا و تطلب منه أن يأتى أبوه ليسلّم نفسه للحكومة لأنه متهم بتهمتى قتل. فحمل حسن و ابن أخيه جثة المقتول. أما بادى فقد أصيب بجرح بسيط لم يقعده عن العمل، فقوّض داره عند الضياء الأول و حمّل كل حاجياته فى القارب و اختفى مع أسرته و حيواناته فى متاهات الأهوار. و لا يعلم أحد بالمكان الذى قصده.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۶

و لما أحطنا بالقصة بكاملها، بدا الحزن على وجه عمارة. فأردت أن أصرف الهم و الحزن عن نفسه مبينا له بأن هذا القتل لا يختلف عن أى قتل آخر بين هذه العشائر الذين لا يخضعون لأى قانون. و هنا تدخل سبيتى و قال: «ما تعرف أن عمارة هو أقرب واحد لبادى و ما تعرف أن رضوى و عائلته يريدون هسه قتله؟».

كنت قد عقدت العزم على تمضية ثلاثة أشهر فى منطقة نورستان، و هى منطقة جبلية موحشة غير معروفة تقع على حدود جترال Ghitral .

و كنت على وشك الرحيل خلال عشرة أيام إلى أفغانستان. و الآن، علىّ أن أفعل شيئا ما يضمن سلامة عمارة.

طلبت من عمارة أن نذهب إلى قرية الرفيعة لألتقى بوالده و استفسر منه عما إذا كان هو ورشك ابنه الآخر يشعران أنهما فى خطر. فقال لى:

«لا. لكن، إذا ما يقدر رضوى من قتل بادى فحتما يحاول قتل عمارة».

إقترح بأن ألتقى مع الشيخ مجيد الخليفة و أرتب قضية العطوة أو الهدنة لعمارة. و قال لى: «إذا تقدر تحصّل عطوة لمدة ستة أشهر فقط، يكون رضوى قد برد. و بعدين يمكن أن يقبل بالديّة» فوافقت على الذهاب لألتقى بالشيخ مجيد فى الصباح لأرى ما يمكننى أن أفعله.

كنت أعرف أنه لا يمكن لأى شخص مهما كان منفذا و لا أىّ سيّد مهما كان محترما أن يسوّى نهائيا عداوة الدم. إلا أنه بوسع القالط أو المختار أن يسوى المسألة بين المتخاصمين و يختم الميثاق بعقده الكوفية على قصبة و يناول كل طرف منها إلى جماعة. إن مركزه هذا يتوارثه أبّا عن جد حتى و لو كان شيخا خرفا أو أبله. و أما إذا كان طفلا فيتولى عند ذاك أقرب الذكور إليه هذا العمل بدلا عنه.

سألت (ثقب) والد عمارة، عما إذا كان من الحكمة أن نصطحب معنا صحين لكونه قالطا (مختار فخذ من الفريجات) حتى يدير المباحثات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۷

لغرض الهدنة على شرط أن نتمكن من الاتصال مع رضوى. فأكد قائلا بأنه، على أية حال، يمكن التوصل إلى العطوة بواسطة الشيخ أو بواسطة أى شخص آخر دون حضور القاتل.

أعرت عمارة مسدسى، و نصحته أن يقتنى كلبا جيدا يصلح للحراسة، و أن يبدّل مكان نومه فى البيت فى كل ليلة.

كان عمارة يملك بندقية صيد عيار (۲۷۵) كنت قد أعطيتها له قبل سنتين مع عدد كبير من العتاد. و اشترى عمارة فى الأيام الأخيرة بندقية ل (رشك) مستعملة لكنها جيدة. و لما أردنا الذهاب لننام قال أبوه ثقب:

«راح ابقى أحرس البيت. أنا رجل كبير السن أحتاج إلى نوم قليل. أگدر ارتاح بالنهار». و قال رشك ضاحكا «اقتل لنا ذئب. صاحب. و اعطنا عينه حتى نخيطها على رأسنا. و اللى يلبس العين ما ينام».

نمنا تلك الليلة و لم يحدث أى شىء. نمت بين حسن الصغير و بين عمارة أما رشك فنام بجانبه. وضعت بندقيتى المحشوة باطلاقة بجانبى كما وضع عمارة بندقيته بجانبه. أما والدهم فجلس فى مدخل الباب و بندقية رشك فوق ركبتيه.

كانت والدة عمارة المدعوّة ناقة فى الطرف الأخير من الغرفة تدندن بصوت هادىء لتسلّى نفسها و هى ترتّب بعض الأشياء. و كان أصغر الأطفال مشاكسا لذلك حملته أم عمارة و أخذت تداريه بجانب النار.

و من مكانى كان بوسعى أن أرى عددا لا بأس به من الجواميس المربوطة تقتات بالنباتات التى جمعها (چليب) لها من الهور على ضوء القمر.

ضغط حسن على يدى كعلامة بأنه مسرور لوجودى معهم ثانية. و قبل هذا كان حسن قد أرانى حقيبة الكتب التى كنت قد أعطيته إياها و فيها دفاتره المدرسية.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۸

و الآن، كل شىء يسير بالنسبة لى حسب الأصول فى بيت عمارة.

فأخوه رشك قد بذر بذورا كثيرة فى أراضى كثيرة أكثر من أى وقت آخر، و كان قد حصد فى السنة السابقة محصولا جيدا على الرغم من شحّ المياه.

و لم يبق ما يؤلمنى غير الفكرة التى تراودنى و هى أنه ربما يتسلل شخص ما فى الظلام الدامس يحمل بندقية جاهزة للرمى، ينتهز الفرصة السانحة ليقتل عمارة دون سبب اقترفه. و ما لم أرتّب لهم (عطوة) لن يهدأ لهم بال و يناموا مرتاحين. و كنت ألاحظ عمارة فى هذه الليلة يرفع رأسه من الوسادة كل ما سمع نباح كلبه فى القرية.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۴۹

۲۵- سنتى الأخيرة فى الأهوار

فى وقت مبكر من صباح اليوم الثانى، ذهبت لزيارة الشيخ مجيد فى داره الجديد الذى بناه بالقرب من المجر. بعثنى بسيارة مع ممثله الشخصى، و زودنى برسالة إلى الشيخ الذى يحل رضوى فى أرضه بالقرب من قلعة صالح. و لما وصلته طلبت من الشيخ أن يضمن لى هدنة لمدة سنة لثقب و أسرته. فقال لى:

صانع قارب من الصابئة

«رضوى هسه هايج و حزين و كلش غضبان. ما أعتقد يوافق على العطوة أبدا. و بالتأكيد ما راح يوافق إذا أدخلت بادى وياهم». و قلت له.

«بادى مسؤول عن نفسه. ما تهمنى قضيته. أريد عطوة لأسرة ثقب».

«راح أبذل كل جهدى. لكن، ما أعتقد راح ننجح فى مهمتنا. ابق هنا فى المضيف وراح أروح إلى بيت رضوى مع ممثل الشيخ مجيد».

أرسلت سبيتى معهم ليمثّلنى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۰

فأمضوا وقتا لدرجة خفت فيها من أنهم أخفقوا فى مهمتهم هذه. و أقوال القهواتى ما كانت مشجعة إذ يقول: «رضوى أبدا ما يقبل بالعطوة. و حلف يمين راح يأخذ دم مقابل دم. و اللّه. ماكو خير من هذيج العائلة».

و أخيرا عادوا و هم يحملون الأخبار بأنه من بعد الإلحاح الكثير، أفلحوا فى إقناع رضوى بأن يعطى هدنة لمدة ستة أشهر لعمارة و أبيه و أخوته.

و ما كنت آمل أن أحصل على أكثر من هذا.

و بعد مضى ثلاثة أشهر، أى فى شهر أيلول من سنة ۱۹۵۶، توقفت لمدة أسبوعين فى الأهوار و أنا عائد من رحلتى من نورستان. و أمضيت عدة أيام فى قرية الرفيعة و فى خلال هذه المدة، تزوج عمارة أخت سبيتى و لكنه بقى يعيش مع والديه كما هى العادة المتبعة.

احد أفراد من القميرة من الاهوار الوسطية

كانت زوجته فتاة رشيقة القد، لطيفة، لها عينان سوداوان واسعتان.

كانت قد حببت نفسها إلى أسرة زوجها، إذ كانت هى و مطرة لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

و بينما كنا نراقبها و هى ذاهبة لجلب الماء من الساقية، قال لى ثقب العجوز فى أحد الأيام: «الحمد للّه، إبنى تزوج امرأة جيدة. و لولا عطفك ما كان يقدر يتزوج إلا بعد عدة سنوات. أريد أن أشكرك على كل ما فعلته من أجلنا».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۱

تصليح القوارب

كنت منهمكا بأعمالى فلم أستطع العودة إلى العراق حتى بداية سنة ۱۹۵۸. و حينما قدمت ذهبت إلى البصرة بالطائرة. و بإمكانى أن أرى الأهوار تحتنا. و كنت أفكر فى موضوع الأشهر الستة القادمة التى يتوقف عليها مصير عمارة و أسرته.

و حالما نزلت من الطائرة وجدت عمارة و سبيتى ينتظران فى المطار و توجها نحوى حينما دخلت دائرة الكمرك. فأخذا يحضناننى من شدة الفرح. و لما سألتهما عن أحوال أسرتيهما كانا يردان بالجواب المعتاد قائلين «يوصلولك سلام».

وجدت سبيتى، الذى تزوج خلال غيابى عنهم بالمظهر نفسه لم يتغير

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۲

عمارة بن ثقب

منه شىء. لكننى وجدت عمارة قد تغيّر إذ نضج جسمه كثيرا و أصبح متحفظا بشكل غريب.

و لما وصلنا إلى القنصلية البريطانية، أخذنى سبيتى و أخبرنى بأن والد عمارة و زوجته قد توفيا.

سألت فى الحال عما إذا كان رضوى قد قتل ثقبا. أجاب سبيتى بالنفى ثم قال بأنه توفى بأجله الموعود فى الصيف بعد أن عانى من مرض فى معدته لمدة طويلة و قاسى ألاما كثيرة.

و من أقوال عمارة عن الأعراض المرضية لوالده تبين لى أن الوفاة كانت بسبب داء السرطان «لو چنت ويانا. صاحب. چان اعطيته دواء حتى يزول الألم. ما أقدر اسوى كل شيء لأنه هو والدى». و بعد أسبوعين من وفاة والد عمارة، ذهبت زوجته إلى بيت أبيها بسبب الولادة حسب العرف الجارى.

و أخبرنى عمارة بأن والدته كانت ترضعه مع طفلها الآخر الذى يبلغ من العمر سنتين. «لكن. حليبها قليل، و الجواميس ما عندها هسه حليب».

و بعد التشاور مع أناس كثيرين فى البصرة حول تغذية هكذا طفل، نصحت بأن أشترى له كمية من طعام الأطفال من نوع فيريكسFarex و أنواع أخرى. و لما صبى من عشيرة الفريجات

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۳

ياسين. الشخص الآخر من ندتية زورقى

وصلنا القرية اقتضى منى أن أبذل جهدى لأقنع والدته حتى تطعم الطفل هذا الغذاء.

قالت لى: «هل الطعام زين إلى أولاد الشيوخ. لكن الطعام الصحيح لأولادنا هو خبز الأرز. و إذا ماكو حليب تستعمل ماى و شوية طين من النهر».

غير أن أخت عمارة المدعوة مطرة تطوعت لرعاية الطفل و تعهدت بإطعامه من هذا الطعام مثلما بيّنا لها طريقة الاستعمال.

طرادتى فى المياه الهائجة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۴

طرادتى

بدأ الطفل ينمو و يكبر و يسمن نتيجة لهذا الغذاء. و كان يبدو نصف ميت حينما رأيته لأول مرة و أنا متأكد أنه كاد يموت لولا استعماله هذا المغذى.

و فى إحدى المرات، أصابنا الخوف حيث كنا قد خرجنا فى طرادتى و بقينا مدة شهرين ثم عدنا و وجدنا الطفل يعانى من آلام الاسهال و القيء الشديد.

تأثر عمارة بحالة طفله و أيقنت أنه ميت لا محالة. لكننى طمأنته فحقنته بإبرة البنسلين ثم رأيته فى صباح اليوم التالى معافى و فى أتم صحة.

التحق بنا حسن فى قرية بومفيفات و معه ابن أخيه المدعو كاثر ليحل محل ياسين الذى بقى مع أسرته فى القرية.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۵

فصل الربيع فى الاهوار

الشتاء فى الاهوار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۶

من أفراد عشيرة السودان

قمنا بزيارة القرى كلها تقريبا. و كنت أشعر بفرح يغمر قلبى حينما كنت أجد الناس يفرحون بقدومى إليهم ثانية. و قال الكثيرون منهم «حسبنا طبيبنا غادرنا وراح إلى بلدته حتى يعيش و يستقر عند أهله. اللّه يحفظك.

مع أفراد من عشيرة بنى لام

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۷

والدة حسن. عفراء- من بيت مكزى

صاحب. هسه أنت ويانا هنا. راح نصير كلش زين».

و كنت أشعر أن هذه الكلمات هى بمثابة مكافأة كبيرة لى عما كان يصيبنى من تعب و سخط و إخفاق. أما موظفو الحكومة فإنهم ما زالوا يظنون أنى جاسوس بريطانى؛ و لو أنه كان من الصعب التصور عن نوع المعلومات العسكرية التى أكتشفها فى الأهوار. غير أن القرويين الذين وثقوا بى كانوا يعرفون بأن وجودى هنا معهم هو للمتعة و مساعدتهم إن أمكن.

كانت عداوة الدم لا تزال تهدد أسرة عمارة. و قد حذّرت عدة مرات بأن رضوى قد تخلى عن محاولة قتل بادى و يريد أن يقتل عمارة بدلا عنه.

كانت جماعتنا مسلحة تسليحا جيدا، و شهرتنا كهدافين قد انتشرت فى كل مكان، فمن الصعب على رضوى أن يحاول قتل عمارة فى

الوقت الذى نكون فيه سوية. و لكننى كنت أخشى ما سيفعلونه من بعد مغادرتى القرية.

كان بادى فى أمان لأنه يعيش بين عشيرة الفرطوس فى الغرب. و إذا ما شوهد رضوى فى قريتهم فإنه سيكون غريبا. أما عمارة الذى يسكن قرية الرفيعية التى تبعد مقدار مسيرة ساعة أو ساعتين عن مكان سكنى رضوى فإنه سيصبح هدفا واهنا له.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۸

سترة من قرية أبو ليلى- قسم السكن من النهاية اليسرى

و بما أننى أيقنت أن رضوى سيضرب ضربته إن آجلا أو عاجلا، لذلك نصحت عمارة بأن يرحل من هذه القرية و يسكن فى سيگال. لكنه رفض و قال «ما أريد أختفى. إذا بادى يفضّل يبقى مع عشيرة الفرطوس فهذا يعود له. أنا راح ابقى هنا لأن أصدقائى كلهم هنا ورشك باقى فى أرضه. عندى بندقية و أنت أعطيتنى مسدسا. ما أريد مشاكل. أهل ثقب يريدون يعيشون بسلام. لكن. إذا جاء رضوى و يبحث عنى راح أقتله».

فى قرية القبور فى احدى السنين عندما تكون المياه واطئة جدا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۵۹

الجواميس فى قرية أبو ليلى

و فى إحدى المرات ذهب السيد (سروط) بنفسه ليلتقى برضوى و يطلب منه أن يقبل بالديّة و لكن باءت جهوده بالفشل، و عندها استشاط السيد سروط غضبا من أعمال رضوى بحيث ضربه بالقصبة.

عزمت فى آخر الأمر، أن ألتقى بنفسى مع رضوى و أجبره على إعطاء راعى الجواميس من ربيعه فى قرية أبو ليلى

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۰

مخيم لعشيرة ربيعة من قرية أبو ليلى

محرقة الطابوق على نهر دجلة بالقرب من العذير

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۱

تصليح البلح فى الهوير

عمارة و أخوته هدنة أمدها سنة واحدة هذه المرة. و سوف تكون هذه المدة مقبولة جدا لديهم لأننى سأعود مرة أخرى إليهم. غير أن المشكلة هى العثور على مكان رضوى.

ذهبنا مرتين نبحث عنه و لم نفلح فى العثور عليه. ثم سمعت فى نهاية شهر مايس سنة ۱۹۵۸ بأنه يتواجد بالقرب من الغدير، يسكن على أرض أحد اشيوخ البو محمد المدعو (شنته).

قصدنا ذلك المكان و التقينا بالشيخ (شنته)، و هو رجل طاعن فى السن، جالس فى مضيفه. و بعد الشكليات من التحايا و الاستفسار قلت له:

«جئت حتى أحصل على عطوة لعمارة من رضوى. أريد أن يحضر إلى هذا المضيف».

صنع المشحوف فى الهوير

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۲

المرحلة الاولى من صنع المشحوف

«وين هو؟». سأل شنته و هو يتظاهر بعدم معرفته.

«هناك. فى البيوت الواقعة على حافة الأرض اليابسة».

استدعى شنته أحد رجاله و قال له: «روح عند رضوى و قل له بأننى أريده. أجلبه معك» انتظرنا و نحن جلوس خارج المضيف فوق الحشيش بظل المضيف، لأن الجو كان حارا جدا.

بعد مضى نصف ساعة عاد الرسول وحده.

«رضوى ما يقبل يجى».

نظرت إلى شنته الذى هزّ كتفه و هو يقول «سشوى بعد إذا ما يريد يجى؟»

باچر راح اطراده من أرضى».

و بدا لى بأنه لا يريد أن يساعدنا فى هذا الموضوع.

الحاج حميد «كلش زين» قلت بغضب.

«سبيتى: حسن. كاثر. تعالوا معى.

نحن راح نروح و نجيبه إلى هنا» فأخذت بندقيتى و نهضت.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۳

تجديد القير على الطرادة

نهض شنته بسرعة على قدميه و قال لى «لا تروح صاحب.

رضوى موخوش انسان».

«إذا انت ما تجيبه، أنا راح أجيبه» قلت له.

«لا. أنا و ابنى راح نروح عنده. ابق انت و رفاقك هنا».

توجه شنته يتبعه جمع من أتباعه نحو بيت يقع على مسافة بعيدة. طال انتظارنا لهما حتى أخذ الليل يقترب. ثم رأيناهم قادمين.

و لما أصبحوا قريبين منا قال لى عمارة بصوت خافت «رضوى و ابنه معهم».

طرادتى تطوف فى بحيرة ضخمة

نهضنا و تبادلنا التحايا، و جلس رضوى و جماعته قبالتنا.

وجدته صغير الجسم، هزيلا، ذا لحية صغيرة و ذا عينين تنمان عن القسوة. أمّا ولده حسن فيبلغ من العمر (۲۰) سنة تقريبا، قصير القامة، بدين الجسم، فظ الطباع.

و كان معه ثمانية أشخاص من عشيرة الفريجات. كلهم غير مسلحين ما عدا بالخناجر، و أنا لا

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۴

التنقل فى الاهوار فى فصل الصيف

أريد أن أخاطر فوضعت مسدسى فوق الحصير بجانبى.

«صاحب. هذا هو رضوى» بدأ شنته بالحديث «جاء لأنه سمع بأنك تريد أن تتحدث معه».

فقلت له «أريد (عطوة) لمدة سنتين لعمارة و أخوته. و أنا ما يهمنى بادى».

«لا أوافق أبدا. ما راح أعطى عطوة» أجاب رضوى بفتور.

«سنتين» كررت القول عليه و لم أحوّل نظرى عنه.

«لا أوافق أبدا!».

احتفالات الزواج فى قرية الرفيعة

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۵

عشيرة البو محمد فى احدى الهوسات

بالقرب من المجر الكبير

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۶

احدى قرى البو محمد على نهر العدل و هو فرع من المجر

نظر كل واحد منا إلى الآخر بصمت.

و أخيرا قال سبيتى: «نحن طالبين عطوة لأهل ثقب فقط».

«لا، و لا لأى أحد، هسه و إلى الأبد».

كنت أعرف سوابق رضوى فقلت له: «اسمع زين يا رضوى، اسمع زين. إما تعطينى عطوة هسه أو راح أروح باجر إلى الحكومة. أنت مطلوب من السابق بتهمتى قتل. فإذا دخلت السجن راح تقضى بقية حياتك فى السجن.

و حسن إبنك ساعدك فى القتل الأخير. راح يتوقف هو الآخر».

توقفت بعدئذ عن الكلام بضع لحظات، عاصفة هوائية بالقرب من الحمار

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۷

السوق من العهود على نهر الفرات

ثم واصلت القول: «سأعطى مكافأة مائة دينار لتوقيفك. راح يبحث عنك و عن ابنك كل شرطى فى اللواء و عدد كثير من الناس أيضا. فكر زين باللّه عليك! و أنا أعرف الشيء اللى أقوله. أقسم بحياتى و أقسم بما هو أهم من الازيرج يفككون بيوتهم للذهاب إلى

الحصاد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۸

اقامة الاقواس

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۶۹

بناء ربعة المرحلة الاولى

ذلك. إذا قتلت عمارة لما أكون فى الخارج أبذل كل جهدى حتى أتأكد أنك مقتول مهما يكلفنى هذا العمل من مال».

الفريجات يصطادون السمك بالرماح

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۰

صريفه

كان عمارة طوال هذا الوقت يسبح بمسبحته و هو جالس بجانبى. و مر من أمامنا عدد من الجواميس الواحد وراء الأخرى و هى عائدة إلى بيوتها من الأهوار. و الشمس بدأت بالمغيب، و السماء محمّرة، و البعوض يدور حولنا محدثا صوته المعتاد. ثم اعتدلت بجلستى. و بعد بضع لحظات قال أحد الرجال من جماعة رضوى، له لحية رماديه، من عشيرة الفريجات، موجها كلامه لرضوى «تعال ويای برّة حتى نحچى حول هل المسألة».

قارب محمّل بالحصران

نهضوا و مشوا مقدار مائة يارد عنا ثم جلسوا. كنت أسمع هممماتهم. ثم ارتفع صوت

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۱

رضوى بغضب. حل الظلام و جلب أحد الخدم فانوسا و أمر شنته بأن يجلب القهوة. و بعد مضى ساعة من الوقت رجعوا إلى أماكنهم ثم بدأ ذلك الشخص نفسه بالكلام و قال:

«رضوى إنسان طيب. وافق هو و ابنه على إعطاء أهل ثقب عطوة مدتها سنة واحدة. مو من عادتنا أن نعطى عطوة لمدة أطول. أما بالنسبة إلى بادى فما راح يعطيه رضوى أى عطوة هسه و لا إلى الأبد».

المعدان فى طريق عودتهم من السوق

قال شنته لى: «صدّقه، صاحب. فى الحقيقة، ليس من عادتنا إعطاء عطوة لفترة تزيد على السنة. و عندما تنتهى مدة العطوة يمكنك تجديدها.

صدّق يا صاحب».

«هل تضمن العطوة أنت؟. أريد أربعة أشخاص من مختلف القبائل».

«سأرتب ذلك» قال شنته.

تشاورت مع جماعتى ثم قلت «زين. نحن موافقين».

و بعد انتهاء الشكليات عادت جماعة الفريجات ثم أرسل شنته إحضار العشاء.

كنت على وشك المغادرة إلى لندن لأن أمامى مدة ستة أشهر أخرى من العمل المضنى لإعداد الكتاب قبل أن تتاح لى فرصة العودة مرة أخرى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۲

فى طريق عودتهم إلى الفرات لغرض الحصاد

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۳

و الآن، بوسعى أن أذهب و أنا مرتاح البال على الأقل. و لكن ستنقطع أخبار عمارة و أهله عنى بعد مغادرتى العراق إلى وطنى و لن أستطيع الاتصال بهم لمعرفة أحوالهم.

و عندما عزمت على مغادرة العراق ذهبت إلى البصرة لأرتب معاملة سفرى هناك و عندما ذهبت إلى المطار، التقيت بعمارة و سبيتى. و بما أن الطائرة فى منتصف الليل لذلك انتظرنا فى فندق المطار إلى حين موعد حركة الطائرة. و شاهدت على الجدار الكائن قبالتى تصويرا ممزقا لمضيفة طائرة غربية قدّمت وجبة طعام لشاب خفيف الحركة و كتب تحت الصورة:

«شوف العالم و أنت على كرسيك».

و الآن هبطت الطائرة التى ستقلنى، و دخل القاعة حشد كبير من المسافرين المتعبين و جلسوا على المقاعد بينما بدأت الطائرة بالتزود

بالوقود.

جلب الخادم لهم الكوكا كولا. و كان هؤلاء المسافرون قد غادروا فى ذلك الصباح أو قبل ليلة من بانكوك أو من سدنى. و الآن سألتحق بهم و سأكون فى لندن بعد ثمانى ساعات. و هذا الوقت يكفى للتنقل بالمشحوف من قرية قباب إلى القرنة و تناول الغداء مع عشيرة البوبخت فى الطريق.

بدأت مكبرات الصوت بنقل المعلومات عن حركة الطائرة، بوسعى التقاط بعض الكلمات مثل «المسافرون .... على خطوط شركة الخطوط الجوية البريطانية فيما وراء البحار، رقم الرحلة ..... روما .....

لندن .... جوازات السفر .... نقطة تفتيش جوازات السفر».

كانت هناك حركة داخل القاعة. فنهضت من مقعدى ثم جمعت حاجياتى و قلت لرفاقى «لازم أروح هسه».

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۴

قبلنى عمارة و سبيتى و ودعانى ثم قال لى عمارة «إرجع إلينا و لا تطول الغيبة و أجبتهما قائلا «فى السنة القادمة إن شاء اللّه». ثم التحقت بالجمع الواقف الواحد وراء الآخر.

و بعد ثلاثة أسابيع، كنت أتناول الشاى مع أصدقائى فى آيرلنده، إذ بأحد الأشخاص يدخل علينا قائلا «هل سمعتم بأخبار الساعة الرابعة؟

حدث انقلاب فى بغداد و قتلت العائلة المالكة و قتل نورى باشا السعيد رئيس وزراء العراق. و الجماهير الحاشدة أحرقت السفارة البريطانية ..» أدركت عند ذاك بأنه لن يسمح لى بالعودة إلى العراق مرة أخرى و أن فصلا آخر من حياتى قد إنتهى.

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۵

المحتويات

كلمة الناشر ۵

كلمة المؤلف ۹

۱- لمحة عامة عن أهوار العراق ۱۳

۲- الرجوع إلى حافة الأهوار ۲۵

۳- صيد الخنزير البرّى ۴۱

۴- الوصول إلى قرية قباب ۵۷

۵- الصورة الأولى المطبوعة فى ذهن المعدان ۶۹

۶- فى دار ضيافة صدام ۷۹

۷- بومفيفات إحدى قرى الأهوار ۸۹

۸- عبور الأهوار الوسطية ۱۰۹

۹- فى قلب الأهوار ۱۲۹

۱۰- الخلفية التاريخية للأهوار ۱۴۱

۱۱- الفوز بكسب الصداقة ۱۵۵

۱۲- بين عشيرة الفرطوس ۱۷۱

۱۳- العداوة فى الأهوار ۱۸۳

۱۴- العودة إلى قباب ۱۹۳

رحلة إلى عرب أهوار العراق/ تعريب خالد حسن الياس، ص: ۳۷۶

۱۵- فالح بن مجيد الخليفة ۲۰۹

۱۶- وفاة الشيخ فالح ۲۲۳

۱۷- مراسيم العزاء ۲۳۵

۱۸- الأهوار الشرقية ۲۴۵

۱۹- بين السودان و السويد ۲۶۱

۲۰- عائلة عماره ۲۷۷

۲۱- فيضان سنة ۱۹۵۴ ۲۹۱

۲۲- سنة ۱۹۵۵: سنة الجفاف ۳۰۹

۲۳- البربر و المضايف ۳۲۱

۲۴- عداوة دم عمارة ۳۳۹

۲۵- سنتى الأخيرة فى الأهوار ۳۴۹

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبيّة، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹